تجليد صالح الدقر
تلفون ٢٢٩٧٧

297[redacted] C.2

العماوى ، محمد عبد القادر.

هذا هو الاسلام.

OCT 29 A2345
OCT 18 '69

297
=1 NOV 69
[redacted]
C.2
12 NOV 69

297
A51hA

محمد عبد القادر العماوي

هذا هو الإسلام

الناشر

دار الفكر الحديث للطباعة والنشر

٤٠ شارع خيرت بالمالية

لماذا وضعت هذا الكتاب ؟

من الظواهر العجيبة التى تسترعى نظر الباحث المدقق فى الثورات الفكرية والانقلابات التاريخية : أن البيئة التى تختمر فيها بذور هذه الثورات والانقلابات. وتكمن فيها بواعثها ودوافعها هذه البيئة لو درسها الباحث لخرج منها بشىء عجيب حقا وهو خصامها للدين والحادها به ، والعمل فى غير شفقة ولا رحمة ولا تدبر ولا تروٍ على هدم مبادئه ومحو آثاره والمتتبع لتاريخ هذه الثورات الفكرية والحركات الانقلابية يظهر له ذلك كله فى وضوح وجلاء ويقين ولنتحدث عن هذه الثورات القريبة التى ما زالت تؤثر فى التفكير البشرى حتى الآن وأولى هذه الثورات ثورة أوربا على الكنيسة فى أواخر القرون الوسطى هذه الثورة التى كانت تمتاز بطابع السخرية من رجال الدين والتحلل المسرف من الايمان بالله ومن قواعد الأخلاق التى رسمها الدين للناس . فكان طابعها الاعتماد على العقل وحده فى النظر إلى الأشياء والناس والكائنات وليس أدل على ذلك من أن الفلسفة التى آمن بها أدباء أوربا ومفكروها فى ذلك الحين واتخذوها مادة لغذائهم العقلى وأخذوا يقيسون آراءهم وتصورهم للاشياء على ضوئها وبوحى من هديها لم تكن الا فلسفة اليونان الوثنية الملحدة التى لم تكن تؤمن برسل ولا بأنبياء ولا آلهة . والتى وضع سقراط أسسها وأقام دعائمها من بعده تلميذاه أفلاطون وأرسطاليس .هذه الفلسفة التى كانت قائمة على التأمل والفكر والايمان بالعقل ومحو أى قيد يقيده ويجعله قابعاً فى دائرة محدودة لايريم منها ولا يحيد عنها هذه الفلسفة التى كانت أول لبنة من لبناتها هذه الجملة المشهورة التى كانت مكتوبة على معبد دلفا والتى اتخذها سقراط شعاراً له (اعرف نفسك بنفسك) فكانت ارتفاعاً للفرد وايماناً بالعقل ومقدرته وقوته وكانت تقديساً

للفكر الحر الذى كان طابعه الاستقلال وعدم الاعتماد على تقاليد أودين أوعرف لم يكن سقراط يؤمن بإله اليونانيين (أبولون) ولم يكن يتبع شيئا من مبادئه أو تعاليمه وانما كان يسخر منه ومن اليونانيين فى محاوراته ونقاشه مع تلاميذه وقد ظل معتصما بذلك حتى وهو فى أشد نكبته وأعصب وقت فى حياته يوم أن وقف أمام قضاته ليحاكم على خروجه على الدين وعمله على هدم العرف والتقاليد فلقد سخر من الدعوى وسخر من قضاته حين طلبوا منه أن يدافع عن نفسه لأن إيمانه بعقله وتقديسه لحرية الفكر وبصيرة الانسان كان يملك عليه نفسه وحواسه فكان يعتقد أن اقامة مثل هذه الدعوى عليه عبث من القوم وضرب من الخزى والعار وكان من نتيجة ذلك أن حكم عليه قضاته بالاعدام فتقبل الحكم راضيا مبتسما ساخراً لأن هؤلاء القضاة قد حكموا على جسمانه المادى بالفناء ولكنهم لم يستطيعوا ولن يستطيعوا أن يحكموا على آرائه الفكرية وفلسفته العقلية بالزوال والاعدام وكان أن تجرع السم فى رباطة جأش رائعة وفى غير ما جزع ولا مال وظل حتى وهو يلفظ أنفاسه الأخيره ناعيا على اليونان تفكيرهم منكراً عليهم معتقداتهم وتقاليدهم لم يتطرق إلى نفسه ضعف أو خور أو شك فيما قال بل لم يندم على ما كان .

هذه هى فلسفة اليونان بتحللها وانطلاقها وعبادتها للعقل وانكارها كل شىء غيره هى التى انتهل منها مفكروا أوربا فى ثورتهم الفكرية وأول نهضتهم الحديثة حتى جاء هذا العصر الذى يؤرخونه بعصر التنوير ممجداً العقل مزهوا به منكراً الروح ساخطاً على كل مظهر من مظاهرها وهو عصر الفيلسوف الفرنسى (فولتير) الذى بلغ فيه العقل منزلة من القدسية والألوهية لم يكن يحلم بها

ونترك هذا الآن لنتحدث عن ثورتين خطيرتين حدثتا فى قرننا هذا الذى نعيش فيه ـ القرن العشرين ـ وأولى هاتين الثورتين هى ثورة الشيوعية فى روسيا والدارس السيكولوجى لنفسية هذه البيئة التى احتضنت تعاليم (كارل ماركس) البروسى اليهودى واعتنقت مبادئه وأرهفت اذنيها لصوته يخرج بنتيجة غريبة غاية فى الدهشة والعجب فإن هذه البيئة كانت تؤمن قبلا بالمسيحية وكانت تخضع

معيشتها ونظم حياتها لتعاليم القساوسة والرهبان وكان هؤلاء القساوسة و الرهبان أنفسهم يدعون الناس إلى الزهد والقناعة والاتكال والذلة والمسكنة والمحافظة على النظام الامبراطورى القائم نظام القيصرية ونظام الطبقات من أمراء وأشراف ونظام الإقطاعيات هذه التى كانت تجعل من روسيا كلها وهى الارض الشاسعة الواسعة ضيعة لعمداء النظام القيصرى القائم بل كان هذا النظام يحمل فى ذاته امتهاناً مخيفاً للكرامة البشرية لأنه كان يجعل غالبية أفراد الشعب سخرة وعبيداً لهؤلاء الأشراف والأمراء بل لهذه الضياع التى يملكونها لأنهم كانوا تابعين لها يباعون ويشترون كما تباع هى وتشترى ولم يكن القساوسة والرهبان ورجال الكنيسة منكرين لشىء من ذلك بالقول أو الفعل وإنما كانوا يسكرون الناس بروحانيتهم وينيمونهم بمواعظهم هذه التى تستعذب الذلة والمسكنة والخضوع ومن هنا ندرك كيف تقبلت روسيا مبادىء (كارل ماركس) واحتضنتها وجعلتها انجيلا لها ومن هنا ندرك أيضاً كيف كان عداؤها للدين بغلوه واسرافه حتى قال لنين أبو الثورة (إن الدين مخدر للشعوب مؤخر لها عن النهوض والكمال)

فلولا هذه الظروف الاجتماعية السيئة التى كانت تسود روسيا فى عهدها القيصرى البغيض ولولا هذا الاستغلال والظلم الذى ظهر بأبشع صورة وأتعس ما يتصوره عقل الأنسان ، ولولا جمود رجال الدين وانحطاطهم ونفاقهم وتفكيرهم الرجعى لما وجدنا هذه القسوة الطاغية ولا هذا العنف المتغالى الشامل سواء على النظام القائم أوعلى الدين ونظمه وتعاليمه ولكل ما يمت إليه بصلة من قريب أو بعيد

هذه هى روسيا القيصرية وما كان يكتنفها من عوامل الانحطاط والفقر الخلقى والافلاس الاجتماعى والجشع الاستغلالى والعربدة الرأسمالية .

وهذه هى الثورة الشيوعية التى كان يكمن وراءها من روح التذمر وبواعث السخط ما جعلها لا تلوى على شىء فى طريقها لأنها ترفع عن كاهلها عبئا ثقيلا بغيضاً ولأنها تستنقذ نفسها من ظلم صارخ مزمن لم تكن تحس به لأنه لم يكن

يوجد من ينبهها إليه ولأن رجال الدين وأرباب الكنيسة كانوا آخذين على أنفسهم عهداً بقتل كل نزعة وهى فى مهدها ترمى إلى التحرر من الفقر والظلم والمسكنة

كان رجال الدين لشهوات فى نفوسهم خبيثة وحرصهم على بقاء العهد الحاضر على حاله الذى يتمتعون فيه بجاههم المادى وسلطانهم الروحى أو لعقليتهم التقليدية الرجعية التى لم تكن تهضم ولا تقبل أى طريقة من وسائل الاصلاح ما دامت تحمل فى طياتها روح التجديد والإبتكار .

كان رجال الدين هؤلاء هم العقبة الكؤود فى سبيل كل تقدم أو اصلاح وإذاً فيجب القضاء عليهم قضاء لا هوادة فيه وإذاً فيجب إزالتهم وعدم الاعتراف برسالتهم هذه الروحية التى قتلت روح الابتكار وعطلت التقدم والاصلاح كل هذه الحقب الطوال .

وقد كان من عداء هذه الثورة للدين الذى كان يمثله هذا الرهط من القساوسة والرهبان وقد تقبل أفراد الشعب من زعماء روسيا ومفكريها هذه الدعوة الى هدم الدين بحماسة وقوة واقبال واستبدلوا إنجيل عيسى بانجيل (كارل ماركس)

ولولا أنى اشفق من إطالة البحث فى هذه الصفحات اليسيرة القليلة لحدثتك عن شىء لا ينفد من حماقة رجال الدين وجمودهم وعقليتهم التقليدية وارتكابهم اخطاء شنيعة ومسئوليات جسيمة فى حق الدين وفيما أوذى به وما انصب عليه من هذه اللعنات والسخطات : ولكن لنترك ذلك الآن على أن نحدثك عنه مرة أخرى فى موضعه من هذا الكتاب . ولم يبق إلا أن ننتقل بك الآن إلى الثورة الثانية متأملين مسهبين حسب ما تتسع له مقدمة هذا الكتاب لأن هذه الثورة تعنينا أكثر من غيرها لأنها حدثت من أمة اسيوية شرقية كانت تشترك معنا فى المزاج والعقيدة وكانت تربطنا بها روابط عدة : روابط تاريخية وروابط اجتماعية بل كنا مرتبطين بها فيما هو أخطر من ذلك فكان فى يدها مصيرنا ، وكانت ترسم لنا مجرى حياتنا ، وتتحكم فينا فى كل شىء بحكم الخلافة الاسلامية التى كانت مركزها حينذاك .

لننتقل الآن إلى (تركيا) ولنتأملها فى ثورتها العنيفة وانقلابها الخطير

نجد هذه الدولة التى كانت الرأس المدبرة واليد الموجهة للعالم الاسلامى بحكم الخلافة . قد انقلبت من تدين بالدين وحرص عليه ومحافظة له إلى الحاد مسرف به وإلى سخط عام ليس على الدين الاسلامى فقط وانما على الأديان جميعاً . وعلى ما سمته العقلية الاسيوية بوجه عام . ولننقل الآن بعض فقرات من كتاب لكاتب تركى عاصر الانقلاب التركى واسمه (قابيل آدم) واسم الكتاب مصطفى كمال لنرى إلى أى حد كانت تعتور العقلية التركية هذه البواعث والعوامل التى ساعدت على نجاح حركة مصطفى كمال قال الكاتب التركى ((١) إن العقلية الأوربية هى العقلية التى تتسق وحاجات هذه الحياة الدنيا ونحن انما نتبع ما توحى إلينا به هذه العقلية بحكم أننا موجودون فى هذه الحياة أما العقلية الأسيوية ، فالعقلية التى تلائم الحياة الآخرة فإذا انتقلنا إلى الحياة الباقية فهنالك نتبع ما توحى به هذه العقلية)

(لم تسلم الأمم الأسيوية يوما من الفقر والتعاسة وليس لهذا من سبب سوى أنها اعتادت على أن تستقرىء حياتها المعيشية كلها من تشريعها الدينى المقدس ولن تقف على طابع آخر غير هذا إذا ما قلبت تاريخ مصر والهند وفارس واليابان القديمة والصين وبلاد العرب فإن هذه الأمم لجهلها قد نسبت لأمرائها وسلاطينها أو لغيرهم من مقدمى الانتهازيين صفات قدسية حينا أو سلطة ايحائية حينا آخر وكان من نتائج هذه العقلية أن تردت الأمم الاسيوية فى وهدة التعاسة والشقاء)

(أما المعركة القائمة اليوم فموجهة بكل ما فيها من قوة إلى القضاء على هذه العقلية الاسيوية والحالة جلية واضحة فلست تجد فى أوربا مثقفا أو غير مثقف يمضى فى أعماله متوكلا على سلطة الوحى أما فى آسيا فإنك لا تجد شيئا اللهم الا الأنبياء والقديسين والحكام الذين يستمدون سلطتهم من الله مباشرة .

تجد الأوامر والنواهى القدسية متغلغة فى تضاعيف العديد الأوفر من الشئون الخاصة الصرفة للناس محتكمة فى كل وجه من وجوه حياتهم الاجتماعية

---

(١) اعتمدنا فى نقل هذه الفقرات على ترجمة للاستاذ الفاضل اسماعيل مظهر

والاقتصادية والتجارية والإدارية ولديهم أن هذه الأوامر والنواهى هى أوامر الله ونواهيه وعلى هذا لا يمكن تبديلها أو تكييفها إذا تبدل الزمان وتكيف وجمدت هذه الأوامر والنواهى مقصرة على اللحاق بروح العصر نشوء آوارتقاء لا تجد من شىء اللهم إلا نبيا آخر مرسلا بتعاليم جديدة ولا مرية فى أن تتابع ظهور الأنبياء فى آسياله طابع خاص بها لا تفاضلها فيه بقعة أخرى من بقاع الأرض)

(لم تكن الديانات فى تاريخ آسياكله إلا حركات رجعية أملتها الغيرة التى تزود بها كل رسول جديد ضد الرسل الأقدمين . ان ديانات آسيا كافة واحدة فى جوهرها فإن تعاليم بوذا وكونفوشيوس وبراهما وموسى وعيسى ومحمد كلها واحدة فإن اختلفت فإنها إنما تختلف فى التفاصيل لا فى القواعد)

(إن مشيدوا العقلية الأسيوية وواضعوا قواعدها لم يتوانوا على أن يجعلوا أساسها الاعتقاد بأن الحق فى هذه الحياة تقليدى لا عقلى ولكن نتساءل ما هى التقاليد ولماذا لا يكون لدينا من الحرية ما نستطيع به أن ننظر فى هذه التقاليد نظرة تحليل نحكم فيها العقل : تلك التقاليد التى لم تسم بنا يوما إلى أفق السعادة والحرية والثروة ومعرفة حقيقة الانسانية بل كثيرا ما عضدت أسباب التعاسة والشقاء وقويت جذور شجرة الاستبداد التى تمتع بثمراتها الرئيس الروحى خلال كل الأزمان ، وبما أن هذه التقاليد لم توضع الا لتطبق على لانسانية فإن العقل الانسانى يحس ضرورة بإنه مقسور على أن يبحث فى أصلها ونشأتها وماهيتها ليعرف ان كانت التقاليد سموما قاتلة أم أنها عقاقير لقمان السحرية)

(إن من أبلغ السفسطة أن تقول بإن العقل الانسانى لا يستطيع أن يدرك الحقيقة إن كل الذين أوصلوا لنا هذه التقاليد وبثوها فى نفوسنا قد اتخذوا العقل الانسانى وسيلة لبثها . وما هذه التقاليد لدى الواقع الا مجموعة من السخف لا يمكن أن تقاوم قوة النقد ساعة واحدة ولم يكن فى مستطاع أحد من ناطق هذه التقاليد (الأنبياء) أن يوحى الينا برسالة تساعدنا على اختراع آلة من الآلات أو استكشاف الكهربائية أو البواخر أو الطيارات أو التليفون اللاسلكى

أو مبادىء الطب التى تساعدنا على مقاومة داء السرطان أو السل أو غيرهما من الأمراض ولقد ثبت فى روعنا اليوم أن مايجب أن يوحى الينا به من العالم المجهول انما ينحصر فى مثل هذه العلوم لخير الانسان والإنسانية وإذا قلبت تاريخ آسيا برمتها منذ أبعد العصور إلى اليوم لما استطعت أن تلتقى فى سفرك الطويل بقديس واحد من أولئك القديسين الذين اتخذوا العلم للقداسة طريقا فى حين أن تاريخ الدنيا يفيض بذكر الكثير ممن هم من هذا الطابع الخالد أولئك الذين استكشفوا الحق وعرفوا الحقيقة . أولئك الذين آمنوا بأن الحق عقلى لا تقليدى . لا الذين ظلوا طوال الأعصر ينتظرون الوصول الى الحق من طريق التقاليد ولا شبهة فى أن رجال آسيا وهذه عقليتهم لايستطيعون أن يدركوا من الحقيقة شيئاً)

« لقد عودنا بأن نلقن بأننا عبيد الخليفة (ظل الله فوق الأرض) وأننا له ملك ومتاع وهذا يتضمن بالضرورة الاعتقاد بأنه ليس لدينا من شىء يمكن أن يقاوم قوة خليفة الله الواحد القهار . المتربع فوق عرش الأرض وأنه لن يكون من نظام إجتماعى اثبت أصولا من اجتماعنا ولا حياة دنيوية أسعد ولا أمتع من حياتنا بينما كانت الحقائق الملموسة توحى لنا كل حين بأن فى أنحاء مملكتنا فقر وجوع ، وأن جزءاً بعد جزء من أطراف الأمبراطورية كان يؤخذ عنوة ورغما منا نهبا واغتصابا ، وكانت لنا حكومة هى أضعف من أحط الحكومات الأوربية مترددة فى حمأة الرشوة مفككة الأوصال مضطربة الأحوال بعيدة عن حكم الشرائع والآداب ، وأننا كنا نستجدى الغرب فى كل شىء نحتاج اليه ومع كل هذا فقد كان لدينا (ظل الله فوق الأرض) وأربعون زوجة من زوجاته ، وأربعون غلاماً ممن تعرف ولا أذكر ، لاشغل له إلا أن يحمل الشعب على أن يتجرع فكرة الجنة ونعائمها على ما وصفها رجال المذاهب القديمة . كان قد أصابنا الانحلال فى الداخل ، ولم يكن لدينا من سبيل لكى نفهم الحق أو نعرف الحقيقة إلا بأن نتصل من طريق ما بالمعرفة الأوربية . وأن نعترف بتفوق العقلية الغربية وأن نكب على درس الأسباب التى غرست الشقاء

والتعاسة فى أرض من كنا نعتقد أنه (ظل الله فوق الأرض) ولما فعلنا بان لنا (أن ظل الله فوق الأرض) لم يكن شيئا اللهم الا صنم مفقود القوة والروح كأى صنم من اصنام بوذا فى الهند وكان لنا بمحمد أسوة فكما انه حطم أصنام مكة والمدينة كذلك نحن حطمنا اصنام الخلفاء والمذاهب القديمة والتكايا والقبور : هذا هو معنى الثورة أما نتائجها فسوف تكون عظيمة لخير الأمة وسعادتها فى المستقبل)

هذه بعض فقرات من الكتاب تحمل فى طياتها كما قرأت هذه السخرية والسخط على الدين ورجاله والداعين اليه والمؤمنين به والعاملين له وليس من سبب لذلك لو أردت أن تدرس الناحية السيكولوجية لهذه البيئات التى اختمرت فيها بذور هذه الثورات جميعها الا سبب واحد - سبب شنيع بغيض مخز - سبب يحمل فى طياته أنانية الحكام وفجرهم ويفضح فيهم ضميرهم الميت وشهواتهم الخبيثة ووحشيتهم البشعة وتضامن رجال الدين معهم فى ذلك

نعم لو أراد الباحث النزيه أن يستخرج علة لقيام هذه الثورات وللبواعث التى كانت تأتمر فيها وللقوة التى كانت تحركها لخرج بما ذكرت ، ولخرج بما هو أشد هولا وبشاعة مما ذكرت : وهو أن الذى يتحمل المسئولية وتنصب عليه كل التبعات فى الانقلاب على الدين ، ومحاولة محوه من الوجود ، ووصمه بكل هذه الصفات كما رأيت . إنما هم رجال الدين أنفسهم لأنهم لم يحاولوا أن يفسروا الدين بعقلية حرة تجديدية. وعلى ضوء نظام التطور والارتقاء ، وانما قيدوا الدين ، وقيدوا أنفسهم والمتدينين معهم فى دائرة ضيقة تقليدية هى خطر على الدين فى جوهره ومعناه ، وغاياته لم يسألوا أنفسهم : ماهى الغاية الحقيقية لنزول الأديان ؟ وهل كانت تنشد شيئا غير صلاح الانسان ورقيه وامتيازه ، وايمانه بالخير والمثل العليا وقتل كل شهوات دنيئة فيه ، والارتفاع به عن حيانه الحيوانية البهيمية التى كان يحياها ، وجعله يؤمن بأن هناك أشياء أخرى كثيرة غير مطالب جسده ، واشباع غرائزه يجب أن يعطيها شيئا من التفاته واهتمامه ، وأن يجعلها تؤثر فى تكوينه ومجرى حياته ، وأن يرتب معيشته على نظم ومبادىء من طبيعتها صلاح العمران ومنع الفساد

فالدين عندما أنزل على الرسل ليبشروا به الناس كان يحتفل بالانسان ، وعنصره وكان يؤمن به وينشد له تنظيم حياة راقية صافية فيها سعادته ونعيمه ولكن رجال الاديان فى كل زمان ومكان الذين لم يعاصروا انبياءهم ورسلهم وانما اتوا بعدهم بفترات غير قصيرة لم يسألوا أنفسهم عن شىء من ذلك وإنما فسروا الدين على هواهم ، وفى حدود التقاليد والرجعية التى لاتخلو من الكذب والافتراء فحقروا الانسان وزهدوه فى دنياه ، وشجعوا الناس على حياة الذلة والمسكنة والخضوع والخنوع وقتلوا فيهم كل روح للتجديد والابتكار وعدم الاحتفال بحياتهم التى يحيونها : زهدوهم فى كل شىء الا فى أن هناك حياة أخرى يجب أن ينفقوا كل وقتهم وحياتهم للعمل لها وحدها ، وان يقاطعوا كل عمل يتصل بحياتهم الدنيا ، لينقطعوا للزهد والاتكال والقبوع فى كسل وخمول يرددون الفاظاً بأفواههم لأن ذلك هو ثمن سعادتهم الآخرة :

يصورون ذلك كله مما يدعو إليه ويعمل له الدين والدين من كل ذلك براء

ان المتدين العاقل البصير يسأل نفسه أول ما يسأل عن الغاية من وجود الدين ، وعن الغاية مما يبغى تحقيقه من المبادىء والنظم والآراء ثم يتبع هذه الغاية بأية وسيلة تقربه إلى تحقيقها التحقيق الصحيح ولاحرج عليه أن اختلفت وسائله والوسائل التى كان يدعو إلى اتخاذها الدين ، لأن العبرة والمعول على الجوهر وليس على الوسائل ، ولأن الوسائل كثيراً ما تتغير وكثيرا مالم تعد تصلح وذلك بحكم الزمن والتطور ، أما الغاية فهى الجوهر فى كل شىء لأنه غير قابل للتغير بحكم لانهائيته وبحكم طبيعته الخالدة ، والأديان السماوية فى طبيعتها لاتمانع فى ذلك لأنها قد نزلت لتخاطب العقل الحر بحكم أنها كانت تنعى على العقل التقليدى الرجعى فكان من طبيعتها وديدنها الجدل والنقاش والاقحام لأنها هى الأخرى كانت جديدة على العقل الانسانى بحكم ماسبقها من الوان التفكير التى اتخذها العقل مادة له فى بداءته الأولى ولذلك كانت هذه الكتب السماوية نفسها تنعى على الانسان جموده وتنكر عليه عقليته هذه الرجعية التقليدية التى لاتؤمن بالقديم إلا لأنه قديم ورثته عن آبائها وأجدادها ، والتى تنفر من الجديد لأنه جديد تخشى أن يغير ما ألفته من

معيشة وما تواضعت عليه من حياة والانسان بطبيعته يركن إلى ما ألف ولوكان فيه تعاسته ، وينفر مما لم يألف ولو كان فيه سعادته والمتصفح لكل الكتب السماوية يظهر له كل ذلك فى غير عسر ولا إبهام :

كان هذا هو الشر الأول والاثم الكبير الذى ارتكبه علماء الدين فى حق الدين ثم أتى الخلافاء والأمراء فحكموا الناس حكما أوتقراطيا محضا يبيحون لأنفسهم مالم يبيحونه لرعاياهم لأنهم يعتقدون ورعاياهم يسلمون لهم بذلك انهم خلفاء الله فى أرضه يتصرفون فيها كيفما يشاءون وحسبما يهوون يميزون أنفسهم عن رعاياهم فى كل ظرف من ظروف الحياة ومع ذلك نرى رجال الدين يقرونهم على ذلك ويخدرون الناس بتلهيتهم عن حياتهم هذه الدنيا ليحظوا بالآخرة مما جعل أكثر المفكرين الأحرار فى كل ثورة فكرية أو انقلاب تحريرى يغضبون على الدين ويسبونه ويرمونه بكل نقيصة ويحملونه مسئولية تاخر الانسانية وانحطاطها وترديها فى هذه الهاوية السحيقة التى لولاهم ولولا انتشالهم لها لقضى عليها قضاء لارجوع فيه مما ظهر لك فى أول هذا الكتاب

ولعل سائل يسألنى بعد ذلك لماذا وضعت هـــذا الكتاب ؟ . وأنا أجيبه فى قوة وشجاعة ، وفى غير دوران أو التواء أننى وضعت هذا الكتاب لأدافع به عن الدين الصحيح ، لأكشف عن جوهره ، واهتك النقاب عن غاياته وما يرمى إليه ، لأظهره للناس عاريا صافيا خالصا مما علق به من أوهام وخرافات وخزعبلات أعلم أنه برىء منها وانه ينكرها على نفسه وينكرها ممن ألصقوها به بنية سليمة لجهلهم وغباوتهم ، وعدم ادراكهم ، أو ممن الصقوها به بسوء نية لمآربهم الجشعة وشهواتهم النهمة ، ونزعاتهم الخبيثة

نعم لقد وضعت هذا الكتاب لأدلل به على ان الدين فى جوهره وغاياته لاينكر التقدم ولايخاصم التجديد ، وانما يشجع الارتفاع بالفرد والاحتفال به : كما يشجع تنظيم الجماعات ورقيها . كما أنه يقر اجتهاد الانسان وحريته وافكاره البصيرة . وما يسعى له من حياة ممتازة ومثل عليا

إنى لأبتسم فى سخرية مريرة عندما أقرأ لبعض متعنتى الصوفية ومترهبيهم

والزاهدين المتخلفين عن ركب الحياة : إن الحياة ماهى الا كعبة حذاء من العبث الاحتفال بها وان الرجل الذى يحتفل بحياته ويجهد ويسعى فى أن يوفر لنفسه حياة راقية ممتازة هو رجل مكروه من الرب بعيد عن السماء سائر فى طريق الضلال

ولو تبسطت مع هؤلاء الناس . وأردت أن تسبر غور تفكيرهم . وأن تصل إلى مداركهم لتستخرج من ذلك كله صورة لنظرهم الى الحياة ؛ وتفسيرهم لحقيقة الوجود لهالك الأمر وافزعتك الحقيقة ، ولرجعت مشفقا عليهم راثيالهم باكيا على حالهم وتخبطهم وضلالهم

ان هؤلاء الناس الذين يتشدقون بحب الرب والقرب من السماء مغضوب عليهم من ربهم ، بعيدون عن السماء حاملين لعناتها وسخطاتها فهذه الاشارات التى أتت فى كل الكتب السماوية مزهدة الناس فى الحياة الدنيا منزلة من قيمتها حاططة من قدرها ليس معناها أنها تدعو الانسان إلى ان ينكر وجوده وحقيقته وأن لايتمتع بكل ما طاب له ولذ مما بسطه الله وانما ترمى إلى معنى سام رفيع تدركه العقول البصيرة والقلوب النيرة ، وهو محاربة الجشع والبطر والاستغلال الرخيص ، وقتل شهوات الانسان الخبيثة ، ومحاربة كبريائه وغروره والحد من حيوانيته النهمة التى لاتتفق ونظام العمران

إن الانسان بطبيعته وجبلته مفطور على الغرور وحب الذات والتمتع والاستعلاء على حساب غيره من الضعفاء والمساكين ولو ترك له الأمر لاستبد وتكبر وطغى وهدد الانسان والعمران فى سبيل لذائذه وشهواته ونزعاته الحيوانية فيكون من نتيجة ذلك ماذا ؟ يكون من نتيجته تأخر العمران وانقراض نوع الانسان فهذه الاشارات التى أتت فى الكتب السماوية محقرة الدنيا منزلة من شأنها لم تكن تقصد الا مثل هؤلاء الطغاة القساة المستبدين الذين كانوا يسعون فى الأرض فسادا يقاتلون ويعتدون لا لشىء الا لنزعات طارئة وشهوات فاجرة يعيشون فى همجية متواصلة قانونهم الاعتداء والسلب والاغارة على الضعفاء من بنى جنسهم يتصرفون فيهم كما يشاءون بالبيع أو الرهن

أو يقتلونهم ويفنونهم من الوجود ولا اعتراض عليهم فى ذلك لأن هذا قانون متعارف بينهم: الحق للقوة ، والزعامة لمن يسلب ويعتدى ويغير على الغير والدارس لكل البيئات التى انزلت عليها هذه الديانات يرى ماذا ؟ يرى أمما يكيفون حياتهم على هدى غرائزهم ، ويسلمون قيادهم لمن يظهر البطش والقسوة والظلم عليهم يدينون للطاغية ويعبدونه ويؤلهونه . ينكرون ذاتيتهم وفرديتهم لا فى سبيل الصالح العام ولا فى سبيل نفع المجتمع الذى يعيشون فيه وإنما لأجل نزوات حاكمهم ووليهم فهم قطيع عنده يسخرهم لجمع المال من غير طريقه الشريف وتوفير لذائذه البهيمية التى ترجع بالانسان القهقرى إلى الوراء حيث كانت تسوده شريعة الغابة ، وشريعة الغرائز التى تقرر بأن (الكل للقوى ولاشىء للضعيف)

الدارس لكل هذه البيئات يرى مجتمعات يحتفلون بالحياة حقيقة ويحبون أن يوفروا لأنفسهم فيها الرفاهية والسعادة والهناء ولكنهم لا يفعلون ذلك بجهدهم وثمرة أعمالهم ومايستعذبونه فى سبيل ذلك من آلام ، وانما ببطشهم واعتدائهم على حقوق الغير وطمعهم فى سلب ما لا يملكون ، لا يحتفلون بهذه الحياة ولا ينظرون اليها بمنظار التفكير والعقل والبصيرة ، وإنما بمنظار الحيوان الشره المفترس الجبار الكافر بقانون النظام وقانون التعاون وقانون الاخاء فهذه الاشارات لم تكن تعنى إلا هذه المجتمعات التعسه التى تخضب ايديها بالدماء فى سبيل لذائذ فانية ولكنها لم تكن تعنى أبدا إنكار الانسان نفسه وعمل الانسان لدنياه وحثه على الكشف والاختراع والتطور فى حياته بدليل ماأقرته من النظم التى اصطنعها الانسان لنفسه مثل التشريعات اليونانية والرومانية التى أدمجتها فى تشاريعها ادماجاً مما سنحدثك عنه باسهاب فى موضعه من هذا الكتاب عندما نتحدث عن علاقات الاديان بعضها ببعض

ولا يطاوعنا القلم أن نمضى دون أن نرجع ثانية إلى هذه الفئة من المتقشفين المستذلين المنكرين للحياة فنسألهم : ماهى حقيقة الرب الذى تعبدونه وما هى حقيقة السماء التى تعطف عليكم ؟ وهل يكره الرب أن يرى خلقه فى جمال وقوة ونضارة وحياة ؟ وهل عظمة الخالق تكون أروع واعظم فى بقاء الحياة على حالها بغير تقدم بل

بتأخر : أم بتطور الحياة واستغلال خيراتها ومواصلة البحث لاستخراج أسرارها ، والانتفاع بما أودعه الله فيها من مزايا وعناصر قوة وارتقاء

إنى لأسائل هؤلاء الناس وفى جوانحى أسآ ، وملء فمى دهشة من تخبطهم وظلوعهم ، ومن ضيق مداركهم وظلام بصيرتهم

إنى لأسائلهم : كيف عرفتم الله ؟ وكيف توصلتم إلى حقيقة السماء ؟ وهل إيمان الانسان بالله بعد تفكير وتعقل وتأمل خير ؟ أم إيمانه به بالتقليد والسماع والانقياد ؟

نعم انى لأسألهم هذه الأسئلة ولكنى لن أسمع منهم جواباً لأنهم يتشككون فى مقدرة الانسان وقوته يجحدونها ويكفرون بها بل إنهم ليكفرون بالانسان جميعه وبكل ماوهبه الله من ميزات وصفات وفضائل ميزه بها وفضله على كل العالمين وعلى جميع المخلوقات

فالانسان عندهم خلق من قاذورات وركب من نتانة فأصله وضيع ضعيف حقير : ومن هنا يستعذبون الذلة والمسكنة وتعذيب أنفسهم وعدم السعى فى الحياة ناسبين ذلك كله إلى واجبات الله وأوامر الدين وتنزيلات الكتب المقدسة مستغلين بعض آيات من التنزيل كانت تأتى لتعالج مشاكل خاصة فى بيئات معينة لظروف كائنة ضاربين صفحا عن التنزيل فى مجموعه وفيما يهدف اليه ويبغى تحقيقه

ولكننا لانحب أن نتمادى فى ذلك كثيرا ، وإنما نعرض هنا هذا العرض البديهى وهو هل تأتى معرفة الله الحقيقية المؤيدة بالدلائل المادية بطريق غير العقل ؟ وهل يكون العقل صافيا خالصا مليئاً بالقوة والحيوية فى جسم غير سليم صحيح ؟ وهل يتوفر الجسم السليم الصحيح بدون أن يأخذ الانسان حظه من المتع البدنية ويوفر لنفسه ماشاء من طيبات الحياة

وهكذا نرجع فنجد الانسان هو الكائن الممتاز ونجد حياته هى الحياة لانقول الجديرة بأن يعتز بها ويعمل لها ويحرص عليها لانقول ذلك فقط وإنما نقول فوق ذلك إنها هى الحياة التى بها عرف الخالق ، والتى هى استمداد لمعرفة قدرته وعظمته وبديع خلقه : فإذا أراد إنسان أن يسمو بحياته ويرتفع بها

وأن ينقب ويفتش ويسخر كل ما يمكن تسخيره لمنفعته ومصلحته من أسرار الأرض والسماء والهواء ، وان يعتز باستقلاله التفكيرى والعقلى فى اصطناع مايلائم حياته الحديثة من نظم ومبادىء وقوانين قالوا له قف مكانك! إنك تأمر بغير ما نزل الله ناسين أو متجاهلين أومتغابين أن الله لايكره أن يرى فى مخلوقه استعداده للتطور والخلق والابتكار لأنه هو الذى أودع فيه تلك القدرة ، ولأنه من قوة المخلوق تستبان مقدرة الخالق ولأن الله لم يكن يرسل أنبياءه ورسله الا عندما كان يفلس الانسان وينفد رصيده من بواعث التقدم والارتقاء !

وماهى حقيقة السماء ؟ هل حقيقة السماء شىء غير درس الطبيعة وكشف ماوراءها من غموض وابهام؟ وإذا فليقل لنا هؤلاء الناس المقربون من السماء لماذا نجهد فى معرفة حقيقة الطبيعة أو ماوراء الطبيعة ومافيها من شمس وقمر ونجوم وعوالم أخرى بل لماذا وجدت فيها هذه الشمس والقمر والنجوم والعوالم الأخرى ألأجل أن ننتفع بها فى حياتنا هذه الدنيا ونسخرها لاستغلال أرضنا التى ندب عليها أم لأجل أن ننكرها ونتمنى زوالها ومحوها ليعجل بنا ذلك كله إلى حياتنا الآخرة !

إن كل ظاهرة من ظواهر الطبيعة ، بل من ظواهر السماء تنادى بالحياة وتعمل على تنمية الوجود وإحيائه وازدهاره والتقدم به بخطى سريعة إلى الامام فمن يقف ومن يتخلف فى الطريق فلن يحفل به أحد وسيدوسه الركب ولن يبوء الا بالندم والهلاك والضياع

وإذاً فأنا لم أضع هذا الكتاب إلا لأجل أن أبدد به هذه المعتقدات الباطلة وهذه المزاعم المضللة التى إن دلت على شىء فانما تدل على جهل فاضح بحقائق الكون وأسرار الوجود ، ورسالات السماء

إننا لنسمع كثيرا من علماء الدين ومن كتاب يتعرضون للدراسة والبحث فى مسائل الأديان ونظمها ومبادئها وقوانينها فيبرزون لنا ماسموه المادية والروحانية زاعمين أنهما ضدان متخاصمان متنافران لاتربطهما ببعضها صلة كبيرة أويسيرة

ومن هنا ننظر وينظر معنا القارئون والآخذون عن هؤلاء العلماء فنجد

أمامنا مشخصين قائمين متخاصمين مشخصا يرمز إلى المادية والآخر الى الروحانية مشخصا يشمل العلوم وما يدخل فيها من كافة العناصر الطبيعية والجيلوجية والقوانين الصناعية ورسالته البحث والتقصى والتجربة والاختبار والكشف ثم الاختراع والخلق ، وإضافة كائن الى الكائنات له أصول وآثار مختبئة كامنة تحتاج الى من يعالجها ويكشفها ويعرف أسرارها وهذا هو مشخص المادية

أما مشخص الروحانية كما يبسطه ويفسره رجال الصوفية وبعض علمائ الدين فنجده يشتمل على ماذا ؟ نجده يشتمل على العلوم النظرية ثم على الزهد والقناعة والتحقير من شأن الدنيا والخصام والمناقشات البيزنطية الشديدة العنيفة لكل مظهر من مظاهر المادية

وهكذا سادت هذه المهزلة - مهزلة رجال الصوفية وبعض علمائنا الدينيين - الذين ضللوا الناس لغبائهم وجهالاتهم وأخذهم بالظواهر والقشور ولغضائهم عن الجوهر واللباب ففسروا لهم الروحانية قائمة بذاتها مضادة للمادية فى كل شىء بل قالوا لهم إن المادية خطر على الروحانية ، وان اجتماعهما ببعض فيه تعويق لقوانين الحياة وفساد لنظام العمران وإشاحة عن أوامر الله ومن هنا جعلوا الروحانية وحدها المثل الأعلى للإنسان ، وهى السمو الذى لا يصل إليه إلا كل إنسان رفيع ممتاز

ونحب نحن قبل أن ندخل فى مناقشة هذه المسألة ، وقبل أن ندلل على أن المادية من صميم الدين ، وأنها تشغل حيزاً غير قليل من رسالات الكتب السماوية نحب قبل أن ندخل فى هذا النقاش أن نوجه سؤالا بسيطا إلى هؤلاء السادة الأفاضل : وهو هل من الممكن أن يدلونا على إنسان أو على مجتمع خاصم المادية وأنكرها ، ولم يخضع لها فى مجرى حياته وعمر على ذلك طويلا ؟ أما إذا كان الجواب بالسلب وهو بالسلب حتما لأن الانسان بطبيعته وخلقته مادى لأنه ابن للمادة خلق منها ويعود إليها يخضع لها خضوعاً تاماً سواء رضى ذلك أم لم يرض وسواء أراده مختارا أم مكرها

وعلى ذلك فاننا نحب أن نقرر هنا مستمدين ذلك من روح الأديان وتشاريعها جميعا نحب أن نقرر بأن المادية لا تصلح الا بالروحانية ، وأن الروحانية

لاتعيش بدون المادية

وعندما ننظر إلى بعض الديانات التى جاءت تدعو للروحانية ولم تحفل بالمادية فى شىء يذكر مثل الديانة المسيحية نجدها لم تستطع تحارب المادية أو تخاصمها أو تنكرها : وإنما جاءت فوجدت مجتمعا خاضعاً لماديته كل الخضوع غارقا فى حيوانيته الى أذنيه ، قائما حياته على هدى غرائزه فدعت إلى الروحية لا لتحارب المادية أو تخاصمها أو ترتفع عنها وانما ليتكيفا مع بعض فتصلح الروحانية المادية ، وتقوم ما اعوج فيها وماشذ من طباعها

من هذا يظهر لنا أن المادية متماسكة بالروحانية كل التمسك وأن الروحانية متعلقة بالمادية كل التعلق وأن الانسان يخضع فى حياته للماديات ويتأثر بالروحانيات بل من هذا يظهر لنا أن رسالات الديانات السماوية نفسها حثت الانسان على السعى نحو الماديات بعد أن يسموبها ويخضعها لأحكام العقل البصير الرشيد فاذا جاءنا بعد ذلك شيخ ، أو قسيس ، أوحاخام وقال لنا : ان الدين يدعو إلى الروحانية ويحبذها ويعمل لها ، وينهى عن المادية وينكرها ويحاربها بكل سلاح من أسلحته لأنها خطر على الانسانية وسم زعاف فيه هلاك للبشرية فماذا يكون جوابنا عليه ؟

يكون جوابنا عليه أنه ساذج فى تفكيره ، ضعيف فى عقله سادر فى ضلاله

يكون جوابنا عليه أنه بعيد عن جوهر دينه ، هادم لغاياته ومايرمى اليه من إصلاح شأن الانسان فى حياته التى يحياها والتقدم به بخطى سريعة نحو التطور والسمو والكمال

يكون جوابنا عليه أنه مخالف حتى لمنطقه لأنه هو نفسه خاضع للمادية مستعين بها على أداء رسالته ، وأعمال وظيفته

إن جميع الأديان السماوية فى جوهرها وغاياتها لاتنشد إلا شيئاً واحداً : وهو تكوين مجتمع إنسانى راق نظيف عامل مفيد آخذ بأسباب التقدم والتطور السريع ليسعد نفسه ، وليسعد من سيخلفه بعد ذلك من أجيال

فاذا جاءنا بعد ذلك إنسان ـ كائن من كان ـ وقال لنا : إننى أتعبد النهار وأقوم

الليل في التهجد لله . وانى أقف وقتى وحياتى على ذلك لأظل قريباً من الله :
قلنا له إنك كاذب مخاتل مخادع بعيد عن الله جاهل بتعاليم دينه :

إن الله لايريد العبادة فقط و إنما ذلك وسيلة لتحقيق غاية رفيعة سامية للإنسان : وهى تمسكه بالمثل العليا وتمثله بصفات الحق والعدل والحب والايثار ، وبكل ماهو حميد قويم وحسبنا فى هذه العجالة قول رسول الاسلام محمد بن عبد الله عندما جاءه نفر من أصحابه وقالوا له (إن فلاناً مقيم فى المسجد يتعبد فى النهار ويتهجد فى الليل فقال لهم من يعوله قالو كلنا نعوله يارسول الله فقال لهم صلى الله عليه وسلم كلكم خير منه)

وهكذا أرانى رغما عنى أختم هذه المقدمة وفى نفسى أشياء ولكنى لن اعدم أن أعالجها بتطويل فيما يلى من موضوعات هذا الكتاب بيد أنى أحب قبل أن أطوى هذه المقدمة أن أشهد الله وهو العليم ببواطن الأمور أنى مافكرت فى تأليف هذا الكتاب واخراجه ونشره بين الناس إلا لأشياء خطيرة أحس أن ضمير الزمن يهمس بها ، وأحس أن جيلنا هذا الحاضر قد تبلورت فيه آراء جديدة هدامة تسبق العاصفة التى نحب أن نتفاداها ، وأن نخمد أوارها بالاصلاح قبل أن تقوم

ولنى أشهد الله مرة ثانية وهو العليم ببواطن النفوس أنى لست متأثرا بأى شىء ولا بأية نزعة ، وأنى لا أستضىء فى كتابتى هذه الا بوحى الحق ولا أنشد إلا الاصلاح ما استطعت راجيا ممن يقرأ هذا الكتاب أن يخلع عن نفسه رداء التعصب وأن يستقبله بعقل حر وبوجدان سليم غير متأثر بأية عاطفة حتى يمكن أن تؤتى ثمرته كما نرجوها (والله ولينا وهو نعم المولى ونعم النصير)

هل الدين لازم للبشر ؟

ليس علينا من حرج فى أن نختصر التعريف اللغوى لكلمة الدين . وأن لانسهب فى ذلك كثيراً لأن قصدنا من هذا الفصل واضح جلى وهو الدراسة الواقعية والنفسية لمدى كلمة الدين وما تهدف اليه وتبغى تحقيقه

فالدين بمعناه اللغوى . وبكسر الدال المشددة وضم النون هو الطاعة والانقياد فيقال رجل متدين يعنى مستسلم منقاد مطيع

وعلى كل حال فان أول مايعن للباحث فى دراسة الدين وماهيته ومدلوله ومدى احتياج البشر اليه أو استغنائهم عنه والدور الذى يؤديه للإنسان فى حياته والتأثير الذى يحدثه له فى مجريات أموره إن كان لذلك كله نصيب كما سيظهر بعد

أول مايعن للباحث :هو أن مايقابل الدين من مدلولات وتفسيرات أنه جملة معتقدات لأشياء سماهية وغيبية . ظاهرة وخفية يدركها الانسان بعقله وبصيرته وقلبه أم يعجز عن إدراكها واحساسها وتصورها والالمام بها والحكم عليها فالعقدة فى الدين إذاً هى العقيدة لآراء ومبادىء وصفات وأحكام يطمئن الانسان إليها ويعمل بها ولما يخطو خطواته على ضوئها ، ويستضىء بهديها . يكون احكامه وتصوره للاشياء والناس والصفات من خلال منظارها

وإذا كنا نحن سنقيم دراستنا ونبرز دلائلنا ونبسط تشريحنا لحقيقة الدين وماهيته ، والدور الذى يلعبه فى حياة الانسان من الوجهة العقلية . والمنطقية فقط

واذا كنا قد علمنا أن مايقابل الدين هو العقيدة : أو أن العقيدة هى الأصل فى الدين . أو هى البذرة التى تتفرع منها مبادئه والتى يقيم دعائمه على أصولها !

إذا كنا قد علمنا ذلك كله فاننا نحب أن نوجه الى أنفسنا وإلى قرائنا هذين السؤالين وهما أولا ، هل العقائد التى اصطنعها الانسان البدائى لنفسه كانت باختياره وبوحى من كرامته النفسية أم أنه ارغم عليها ارغاما ، واكره عليها اكراها ؟ ، ثانيا ، هل يتأتى لانسان عاقل متحضر أن يدب على ظهر الأرض وأن يعمر فى دنياه طويلا دون أن تكون له عقيدة أيا كانت هـــذه العقيدة ؟ ، للإجابة عن هذين السؤالين يحتم علينا الواجب أن نستعرض فى اختصار ولمحات سريعة تاريخ الانسان واطواره المختلفة حتى الآن ولا نحب أن نستهدف لبحوث طويله نعتقد أنها لاتهمنا فى بحثنا هذا بل نعتقد فوق ذلك أنها ليست على أهمية كبيرة أو ضئيلة للإنسانية بعد أن قطعت هذه المرحلة الطويلة فى الارتفاع والتطور والرقى وتكوين هذا الوعى الانسانى العام ثم لا نحب أن نقتحم هذه المنطقة الجدلية التى اختلف فيها العلماء كثيراً وهى : هل المادة قديمة أم الروح وبالتالى هل الأصل فى الانسان أنه حيوان مادى نشأ من المادة أم أنه روح خلقها الله قبل أن يستوى مادة

وإن كنا نحن سنتجنب الخوض فى ذلك كثيرا فاننا سنتجنبه لا لشىء الا شفقة منا فى اطالة هذا الفصل من الكتاب وفى وضع كلام فى غير موضعه ولايماننا بأنه من الخير والفائدة للانسانية أن تفسر حقيقتها وحقيقة الوجود كما هو وكما أدركته ولمسته بدل أن تنفق وقتها وتقيس مقاييسها فى شىء علمته بالسماع وعرفته بالخيال وتتبعا لمنهاجنا الذى رسمناه لأنفسنا فى بحثنا فى هذا الكتاب ولهذا الموضوع بالذات وهو أننا لن نتعرض لشىء الا لما هو واقع تحت نظرنا مدرك لعقولنا مؤثر فى انسانيتنا يحتاج اليه النوع البشرى فى تكييف حياته وفى رسم ماينتظره من درجات التقدم والسمو والارتفاع غير أن ذلك كله لن يمنعنا من أن نمس هذا الموضوع مساخفيفاً ونطرقه طرقا متواضعاً

وإذا كان دارون قد أقام دعائم مذهبه الذى آمن به كثير من العلماء والمفكرين على أن المادة قديمة وعلى أن أصل الانسان تدرج من حيوان قذر منحط فإنه قد وجد من العلماء فى هذا العصر من ينكر قدم المادة ومن يقرر

فى غير تحفظ بدلائل ثابتة مادية أن الروح هى الاصل فى القدم بدليل تفتت الذرة ، وبدليل ما أثبته علم التنويم المغناطيسى من تأثر الجسم بالروح ، وانفعاله بها ، وخضوعه لها

وإذا كنا نحن سنخالف داروين ومن لف لفه من الماديين الطبيعيين فيما ذهبوا اليه من أن أصل الإنسان وعنصره تدرج من حيوان بهيمى منحط قذر فإننا نخالفهم لماسبق من دلائل على قدم الروح ومن تأثر الانسان البدائى بها من طريق اللاشعور ، ومن أن الإنسان الأول كان حقيقة أشبه بالحيوان فى طبعه وغرائزه وذلك بحكم اصطباغه بطبيعة الارض المادية التى نشأ فيها ودرج عليها ولكن الروح كانت من عناصر تكوينه وخلقته مستترة فى كوامن نفسه بحكم طغيان الغرائز المادية عليها ، وقوتها منها

ومع ذلك فإن أول مايسترعينا من بحث أطوار الانسان المختلفة حتى الآن أن نقف قليلا عند هذا الطور الذى حقق الانسان فيه لنفسه ثلاثة أشياء كانت بالنسبة له على أعظم جانب من الخطورة وهى النطق ، ومعرفه النار واستغلال الأحجار فى صنع أوانيه وما يلزمه من معدات وأشياء

من هذا الطور نستطيع حقيقة أن نتبين فى وضوح ويقين حقيقة الجنس البشرى لأنه قد أثبت فيه لنفسه ارتفاع عنصره وامتياز خلقته

فى هـــذا الطور ننظر فنجد العقيدة قد ابتدأت تلعب دورها الخطير فى حياة الانسان

فى هـــذا الوقت ننظر فنجد الروح الكامنة فى نفس الانسان قد هتكت النقاب عن نفسها وقد أخذت تظهر شيئا فشيئاً مثبتة لوجودها عاملة على اظهار شخصيتها فلقد استرعى نظر الانسان الأول الذى كان يسكن الغابات ويعيش فى الكهوف فكرة الموت بعد أن كان يسمى ذلك أولا النوم الطويل ، وبعد أن كان لايعرف شيئا عن الموت البتة وذلك بحكم الطبيعة وبحكم ظروفه السابقة التى كانت تحيط به والتى كانت فيها الغرائز الوحشية الفطرية هى المسيطرة عليه فكان الموت يأتيه نتيجة لافتراسه من الوحوش أو لتصارعه مع آخرين وكان

كل مايحدث له أو يصدر عنه أو يتمثل فى خاطره يأتى نتيجة لأعماله الفطرية اللا إدراكية وللقوة الجبرية الغريزية فيه . ولكنه بعد أن أصبح اجتماعياً شيئاً ما بحكم اصطناعه للكلام والنار والآنية أخذ يحس كأن مؤثراً آخر يؤثر فى حياته غير غرائزه الجسدية بدليل ما كان يتراءى له فى النوم من أفعال وأعمال وحوادث تتمثل أمام خاطره مثل تصارعه مع آخرين أو اقدام وحش من الوحوش على افتراسه فيقوم من نومه فزعاً مضطرباً فلا يجد شيئا حدث له البتة ومن هنا آمن بالروح وأخذت عقيدته فيها تتشكل بأشكال مختلفة مع تطوره وقوة ادراكه

والمهم هو أن العقيدة قد نشأت فى نفسه فى أول فرصة أتيحت له عندما استطاع أن يتحلل من غرائز الحيوان السفلى وأن يرتفع الى منزلة الانسان القادر على الشعور والادراك

ثم أخذت العقيدة عنده تتطور مع تطوره وتتشكل فيه بأشكال مختلفة حسب ما كانت توحيه ظروفه ويتمخض عنه خياله

أصبحت عقيدته فى هذا الوقت ذا أثر فعال فى رسم مجرى حياته وفى تكوين خياله وتصوره للناس والأشياء والكائنات

ولو رجعنا نحن إلى علم (الميثولجيا) لنبحث فى طواياه ونفتش فى جوانبه عن أصل العقيدة التى اصطنعها الانسان الأول لنفسه لوجدناها ساذجة بسيطة مما كان يتفق وعقله الضيق وادراكه المحدود فلقد كان يعتقد الألوهية فى آبائه واجداده وذلك لايمانه بأرواحهم التى لم تفن بفناء أجسادهم وانما هى باقية خالدة غير قابلة للفناء . ومن هنا كان يقدسها ويقدم لها القرابين ومن هنا أيضا كانت عقيدته فيها وإيمانه بها ذا أثر كبير فى كل مايقدم عليه من عمل أو يحدث له من حوادث أو يرجو من أشياء

ثم تطورت به العقيدة على أن يكون الهه هو رب قبيلته وذلك لما بلغه من مرحلة كبيرة فى الكثرة والتناسل ومعرفة وسائل التنافس والاستغلال فكانت كل قبيلة لها إلهها القوى الشجاع القادر على كل شىء والذى بيده الأمر والنهى

والخير والشر والذى تضفى عليه من السمات والصفات ماتتفاخر وتتعالى به على قريناتها من القبائل الأخرى

والدارس الذى يتحرى الدقة فى بحثه لايسعه الا أن يقف متأملا فى هذا الطور من اطوار الانسان . وان لايجزم له بعقيدة معينة كان يؤمن بها أوعبادة خاصة كان يصطنعها لأنه هنا فى هذا الطور ـ طور الكثرة والتناسل والتفرع والتشعب ـ لايمكن أن يعين الباحث ديانة واحدة . أوعبادة خاصة كانت تفرض سلطانها عليه ، وكان يستظل بها أفراد الانسانية جميعاً وذلك لوجود ديانات كثيرة لاسبيل الى حصرها ولا محل للجزم بأن واحدة منها كان يستظل بها أبناء البشر جميعاً وعلماء مقارنة الأديان يعترفون بتطور الأديان واتفاقها فى فى الصفة والكثرة والتشعب ثم الاختلاف حسب ما كان يعتور البشرية من ألوان الحياة التى أتت نتيجة لكثرتها وتشعبها واختلافها

واذا كانت الظاهرة التى يستخرجها الباحث فى الديانات أنها لم تتفق فى شىء قدر اتفاقها فى الدعوة الى الروحانية الا أن ذلك لايكون دليلا على أنها كانت قريبة الصلة والتفاهم بعضها من البعض الآخر وعلى أنهـــا خالية من العصبية والتعصب نزيهة من الاختلاف والتخاصم والتنافر والبعد والشقاق

واصدق شىء يمكن أن نصور به هذا الطور من أطوار الديانات أنها كانت فى خصائصها وذاتيتها فقيرة قاصرة متفقة مع المقدار الضئيل الذى استوعبته الانسانية من الوعى والادراك متخاصمة متنافرة متعصبة بقدر ما كان يسود الانسانية فى ذلك الوقت من التخاصم والتنافر والتعصب

ومن هنا نستطيع أن ندرك العلة فى تلون الديانات بألوان معتنقيها وصبغتها بالبيئة التى كانوا يعيشون فيها وتعددها وتنافرها وذلك لأن عقول البشرية لم تكن قدتهيأت بعد لقبول مبدأ التوحيد الصحيح ولهضم دعوة الإله الواحد الخلاق الذى يجب أن يدين له البشر جميعا بالطاعة والانقياد

يقول الاستاذ العقاد فى كتابه الله صفحة ٢٥

« فالتطور فى الديانات محقق لاشك فيه ولكنه لم يكن على سلم واحد

متعاقب الدرجات بل كان على سلالم مختلفة تصعد من ناحية وتهبط من أخرى وقد أوجب هذا الاختلاف أن الشعب على حدته لايطرد فى التقدم عقيدة بعدعقيدة ، ولاتزال له عقائد شتى قلما يسرى عليها حكم واحدمن عوامل التطور والارتقاء . وأن الديانات نشأت فى شعوب كثيرة لا فى شعب واحد فما تقدم هنا لم يلزم أن يتقـــدم هناك ، وما استعاره شعب من شعب غريب عنه قد يكون أرفع من طبقته التى ارتقى اليها من طبقات الحضارة فيتفق له فى الوقت الواحد ضربان من العبادة أحدهما سابق والآخر متخلف ويتقهقر السابق أحيانا قبل أن يتقدم المتخلف اليه وربما سمت قبيلة متخلفة ربا من أربابهم باسم خالق الأشياء جميعا ولم يكن ذلك دليلا على ارتفاع فى فهم الربوبيه بل على ضيق فى حصر نطاق المخلوقات وقصرها على الحيز المحدود الذى تعيش فيه القبيلة)

ويقول ايضا فى كتابه صفحة ٣٠

فديانة الشمس كانت الخطوة السابقة لخطوة التوحيد الصحيح لأنها أكبر ماتقع عليه العين . وتعلل به الخليقة والحياة فإذا دخلت هى أيضا فى عـــداد المعلولات فقد أصبح الكون كله فى حاجة الى خالق موجود للأرض والسماء والكواكب والأقمار . وينطبق هـــذا الترتيب تمام الانطباق على فحوى قصة ابراهيم فى القرآن الكريم)

ثم يقول فى صفحة ٣٢ — ٣٣

« وجملة القول أن أطوار العقيدة الالهية تشعبت بين الناس فلم تطرد على مراحل متشابهة فى جميع الأمم وفى جميع الأزمان

ولـكننا اذا أحطنا بوجهتها العظمى وجدنا أن عقيدة الأرواح لم تفارق أطوارها الأولى وأن عبادة الاسلاف امتزجت بعقيدة الأرواح ثم اتسعت نظرة الإنسان الى دنياه حتى التمس لها علة فى السماء فكانت الشمس هى أكبر مارآه وتوجه اليه بالعبادة ثم أصبحت الشمس رمزاً للخالق حين تجاوزها الإنسان بنظره الى ماهو أعظم منها وأعلى فهى القنطرة الأخيرة بين العدوتين عدوة التعديد وعدوة التحديد ولم يبق بعد اعتبار الشمس رمزاً للقوة الـكونية

إلا قبول التوحيد الصحيح فتعلله الانسان من الديانات الكتابية شيئاً فشيئاً حتى بلغ بالقوة الالهية نهاية التنزيل »

ونحن وإن كنا نخالف الاستاذ العقاد فى رأيه من أن عبادة الشمس هى (القنطرة بين العدوتين عدوة التعديد وعدوة التحديد) وهى الطريق الأخير الذى بلغه الانسان لقبوله بعد ذلك مبدأ التوحيد

اذا كنا نخالفه فى ذلك فنحن نخالفه لما سبق أن قررناه فيما تقدم وفيما قرره هو أيضا

وهو ان الديانات لم تسر على خط واحد منظم منسق وانما كانت تعتمل فيها عوامل الصعود والهبوط . والتقدم والانحطاط التى كانت تعتور البشر فى ذلك الحين . ولأن الأمم التى كونت لنفسها حضارات وأثرت فى تاريخ البشرية كانت تؤمن بالاصنام وبتعدد الآلهة مع أنها تختلف عن الامم التى تعبد الكواكب وتؤله الشمس فى أشياء كثيرة غاية فى الخطورة وهى أنها لم تكن متأخرة مثلها ولم تكن فقيرة فى الوعى والادراك مثل ما كان عليه عبدة الشمس والكواكب

وإن الآية القرآنية التى أشار اليها الاستاذ العقاد فى كتابه وهى من سورة الانعام فى قوله تعالى (وكذلك نرى ابراهيم ملكوت السموات والأرض وليكون من الموقنين فلما جن عليه الليل رأى كوكبا قال هذا ربى فلما أفل قال لا أحب الآفلين . فلما رأى القمر بازغاً قال هذا ربى فلما أفل قال لئن لم يهدنى ربى لأكونن من القوم الضالين . فلما رأى الشمس بازغة قال هذا ربى هذا أكبر فلما أفلت قال ياقوم إنى برىء مما تشركون . إنى وجهت وجهى للذى فطر السموات والأرض حنيفاً وما أنا من المشركين)

هذه الآية لم تكن تعن أن تؤرخ تطور العقيدة كما فهم الاستاذ العقاد ذلك وإنما كانت فى الحقيقة تدعو الانسان الى أن يتدبر فى معرفة الله بعقله وفؤاده وبصيرته ولا حرج عليه فى ذلك ان اخطأ ثم اهتدى الى الحق والصواب وهنا غاية المرونة والتسامح من قبل الله كانت هذه الآية تقرر ذلك ثم تقرر قدرة الله فى عظمة وروعة تصوير وهو أن هذه الشمس فى مقدرتها الكونية لأنها

أعظم قوة كونية يمكن أن يراها الانسان : هـــذه الشمس الضخمة الكبيرة لاتخلو من العجز والقصور والأفول بخلاف قدرة الله القوية الجبارة التى لا يعتورها عجز ولا نقصان ولا ضعف ولا أفول ويوافقنا على رأينا هـــذا الاستاذ الامام محمد عبده قال رحمه الله فى تفسير المنار الجزء السابع

« ان الله تعالى انزل القرآن هدى وموعظة وجعل قصص الرسل فيه عبرة وتذكرة لا تاريخ شعوب ومدائن ولا تحقيق وقائع ومواقع

ثم جاء فى الجزء الثانى من تفسير المنار أيضا

« فإن قيل إن التاريخ من العلوم التى يسهل على البشر تدوينهـا والاستغناء بهـــا عن الوحى فلماذا كثر سرد الاخبار التاريخية فى القرآن وكانت فى التوراة أكثر ؟

والجواب ليس فى القرآن شىء من التاريخ من حيث هو قصص وأخبار للأمم أو البلاد لمعرفة احوالها ، وانما هى الآيات والعبر تجلت فى سياق الوقائع بين الرسل وأقوامهم لبيان سنن الله تعالى فيهم انذارا للكافرين بما جاء به محمد صلى الله عليه وسلم وتثبيتا لقلبه وقلوب المؤمنين به)

وجملة مانود أن نقوله ونقرره بشأن تطور العقيدة أنهـا كانت بصيرة ناضجة بقدر ما استوعبه الانسان من بصيرة وما تأتى له من نضج ، وأنهـا كانت متطورة واعية مع تطور الانسانية وما اكتسبته من وعى وأن الديانات الكتابية لم تنزل عليها الا بعد أن توفر لها من وسائل التكافىء والاستعداد ماتستطيع أن تهضم به ماتدعوها اليه من عبادة الإله الواحد الأحد الذى سيجازى المحسن ويكافئه على ماقدمت يداه من خير وينتقم من المذنب على ما ارتكبه من شرور وآثام

من هذا العرض السريع الذى نعتقد أننا لم نسهب فيه كثيرا لاننا لسنا فى حاجة إلى هذا الاسهاب فى دراستنا هذه يظهر لنا كيف وجدت العقيدة فى نفس الانسان الاول ، وكيف أنه هو الذى اكتشفها بنفسه واصطنعها باختياره ولم يرغم عليها ارغاما أو يساق اليها سوقا وهذا هو جوابنا على السؤال الأول

أما جوبنا على السؤال الثانى وهو هل من الممكن لإنسان متحضر أن يعيش عيشته المثالية ، وأن يسعى فى الحياة يأخذ من الناس ويعطيهم يتطامن معهم فى شىء أو يختلف عنهم فيه هل يتأتى لهذا الانسان أن يعيش دون أن تكون له عقيدة أيا كانت هذه العقيدة

أما أنا فإن جوابى على ذلك أنه ليس من الممكن اطلاقا وأن هذا الانسان لم يوجد بعد وأغلب الظن أنه لن يوجد أبدا بدليل ما قررناه فى السؤال الأول وهو أن العقيدة ليست شيئا جديداً على الانسان طارئا عليه يمكن أن يلغيها من نفسه أو يعتزلها وينبو عنها وانما هى وجدت مع وجوده كانسان مدرك مستشعر لما يحدث له أو يصدر عنه أو يحيط به

وجدت هذه العقيدة كما قررنا فى ردنا عن السؤال الأول عنده يوم أن تحلل من غرائزه الحيوانية السفلى ويوم أن خرج من منطقة الحيوان الغــير المدرك أو الواعى الى منطقة أخرى وهى منطقة استكشاف الروح فيه ، وتأثره بها وتنميتها فيه وتوفر عوامل الوعى والادراك فى نفسه

فالعقيدة اذا من مقومات انسانيته ، ومن بواعث نفرته من سلطة الغرائز الجبرية ومن تحلله شيئاً فشيئاً من صبغة الحيوان المسيطرة عليه ماديته والآخذة عليه كل سبيل من سبل التقدم والارتقاء فاذا رد علينا اخواننا اللادينيون وقالوا لنا ان عوامل الوعى والادراك لم يكن سبيلها استكشاف الروح واستشعار الانسان الأول بها وإنما كان سبيلها سنة النشوء والتطور والارتقاء فى عقل الانسان البدائى كان ردنا عليهم أن إيمان الانسان الأول بالروح وخلودها ، وأن وراء حياته هذه حياة أخرى كان من البواعث التى حملته على كثرة التفكير والتأمل ، وبالتالى على تكوين مادة لعقله استعان بها على اليقظة والنهوض والعمل على هتك ما كان يكتنفه من سحب الجهالة والظلام فلو لم توجد العقيدة بالروح التى يرجع اليها الفضل الاكبر فى استشعار الحواس وعمل العقل ، والتى يرجع إليها بعـــد ذلك فضل التفكير البشرى والتأمل العقلى ، ومحاولة البحث عن حقيقة الوجود

أقول لولم توجد هذه العقيدة لما تأتى للعقل أن يخرج من جهالته ولا أن يبدد ماتكاثف أمامه من ابهام وظلام ، ولكان اتخذ له طريقا آخر يستعين به على نضوجه وإدراكه ، وتطوره وارتقائه مع أننا لانعرف طريقاً آخر يمكن أن يستخدمه الإنسان فى هذا السبيل

ومع ذلك فنحن لانتصور انساناً يعيش البتة بغير عقيدة أياكانت هـــذه العقيدة ! فحتى الانسان الملحد أو الانسان اللادينى لا يمكن أن نبرئه البتة من العقيدة فإنه فى حقيقته مؤمن ولـكن فى وضع آخر وفى صورة أخرى .

وإذا نحن دققنا النظر وتعمقنا البحث فى منشأ الفلسفة والعلوم والفنون وكل فرع آخر من فروع المعرفة الانسانية وجدنا أن تقدمها وتطورها ونضوجها كان ذلك كله متأثراً فى كل عصر من العصور بالعقيدة الدينية أو بما يضاد هذه العقيدة الدينية من عقائد أخرى وبذلك يظهر لنا مما سبق ومن ردنا عن السؤالين الآنفين أن العقيدة خلقت مع خلق الإنسان ووجوده الوجود المدرك ، وأنهـا نبعت من طبيعته وكوامن نفسه ، وأنه من العسير عليه أن يستغنى عنها أو يحيا بدونها سواء رضى ذلك أم لم يرضه ، وسواء أدرك ذلك أم لم يدركه

وعلى ضوء هذا الاستطراد السريع والتقريرات المتقدمة نحب أن نجيب عن سؤالنا الذى صدرنا به هذا الفصل وهو (هل الدين لازم للبشر ؟)

ونحن بعد ذلك ، وبعد أن سردنا لك تاريخ تطور العقيدة الانسانية نقول نعم ! نقولها ونحن مطمئنون واثقون مؤيدون بوثائق منطقية وعقلية ! نقولها وماضى الإنسانية يثبت لنا ذلك ، وحاضرها يسجل عليها أنها تفزع الى الدين مستنقذة نفسها من حيرتها وضلالها وشقوتها . أما مستقبلها فينبئنا بأنها تسير بخطى سريعة نحو الدين آخذة بأصوله ومبادئه وذلك بما تصطنعه هى لنفسها من نظم وتسنه من قوانين يتحقق بها العدل ويرتفع بها الانسان وتهدف إلى ماترمى إليه جميع الأديان

لقد دللنا فى إجابتنا عن سؤالنا الأول على أن العقيدة ليست شيئا طارئاً

أو جديداً على الانسان ، وانما هى من صميم طبيعته وانسانيته كانت مميزة له عن الحيوان غير المدرك وحائلة بينه وبين سيطرة المادة وطغيانها عليه وتفردها به

ثم دللنا فى ردنا على السؤال الثانى أنه من العسير على الانسان أن يعيش بغير عقيدة لأنه فضلا عن أن العقيدة نبعت من نفسه وأنها ملازمة لطبيعته فإن ماركب فيه من عواطف وحواس وقلب وعقل كل ذلك يجبره على أن تكون له عقيدة حتى لاتتعطل وظيفة عواطفه وحواسه وقلبه وعقله وحتى يكون انساناً مهذباً متحضراً يخطو خطواته ويسير فى حياته على ضوء الحقائق ويوحى من هدى قلبه وعقله وبصيرته وعقيدته

والى هنا نعلم أن بعضا من المتفلسفين والعلماء الماديين سيهزون رءوسهم موافقين ولكنهم سيرفعونها دهشين متحدين سائلين قائلين وما شأن هـذا بالدين . إنهم يقرون العقيدة ولزومها وضرورتها للانسان ولكن فى الواقعيات والماديات وحدها أما مادون ذلك فلا شأن لهم به ولا عقيدة لهم فيه ولكننا سنزيل من دهشتهم وسنلطف من حدتهم فنقول لهم إن الدين لاينكر عقيدتكم فى الواقعيات والماديات وإنما يقرها ويعمل لها باعتبارها جزءا مادعا الى الاعتقاد به ، وباعتبار أن مادعا اليه من أمور أخرى سماعية وغيبية تفيد هذه الواقعيات والماديات ولا تضرها لانها تسمو بها وتصلحها وتقتل جراثيم الفساد فيها

لقد قرر علماء النفس والتربية والاجتماع أن الانسان المثالى الذى يعمل لصالح الانسانية ولخير المجتمع هو الانسان المثقف المهذب ولكنهم لم يعترفوا بمن ظهرت عبقريته فى العلم أو الفن او الأدب أو أى فرع آخر من فروع المعرفة الانسانية بأنه انسان مهذب مثقف وانما اشترطوا فيه أن يكون ملما بكل طرف من اطراف المعرفة آخذا من كل شىء بحظ غير قليل يكيف به ماتخصص فيه من علم أو فن أو فلسفة أو أدب خشية جموحه وغطرسته وأنانيته وعدم استجابته لوحى الانسانية العام وتحويل عواطفه واحساساته نحو منحى خاص ووقوفها عنده لاتتذوق غيره ولا تؤمن إلا به

فإذا كان المتفلسفون والعلماء الماديون يؤمنون بأن العقيدة فى الماديات

وحدها تكفى فإنهم يخالفون الحقيقة ويبتعدون عن الطريق السوى بغرورهم وضلالهم وخيالاتهم وضيق مداركهم والتواء عقولهم فهم مقصرون فى حق أنفسهم لأنهم يرسمون لها دائرة محدودة لا يؤمن فيها الزلل ولا يعتصم معها من الضلال

نحن فى دعوتنا الى أن العقيدة فى الدين والعمل بأصوله ومبادئه الصافية الخالصة نحن فى دعوتنا الى أنها شىء لازم للانسان المثالى الممتاز لاغنى له عنها ولا إستقامة لحياته بدونها لا ننكر العقيدة فى الماديات والواقعيات ولكننا ننكر بقوة وبشدة الوقوف عند ذلك والاطمئنان له فكما انكر علماء النفس والتربية والاجتماع على العالم أو الفنان أو الفيلسوف أو الأديب الذى لم يصقل ذوقه ويكيف عقله ويهذب معارفه بأخذه بحظ يذكر من جميع المعارف التى لم يتخصص فيها

اذا كانوا انكروا عليه التثقيف والتهذيب فكذلك نحن ننكر أيضا على من يقصرون العقيدة على كل ماهو مادى محسوس مرئى للعين إدراكهم للحق والصواب والرشاد

ننكر عليهم سعة الصدر ، وصقل الأخلاق ، وميزة الاتزان . . !

إن من طبيعة العقل البشرى القصور والعجز والتطور من النقص الى شىء من النضوج والكمال فمن يريد أن يحمل العقل معرفة أسرار الكون فانما يحمله محالا ، ويخرج به عن طبيعته ـ طبيعة العجز ـ الذى يتطلب نضوجا ، والنقص الذى يسعى الى شىء من الكمال

لقد أثبت تطور العلوم الحديثه أن فى الكون أشياء وأسرار كان من المحال على العقل أن يؤمن بوجودها وحدوثها . ولكن لم يمنع ذلك أن تكون لها كائنياتها ووجودها فمن يقصر بعد ذلك الايمان على العقل وحده فانما يبحث عن إيمان ناقص فقد أهم العناصر لنضوجه وكماله وهى : وحى البصيرة ، والهام الوعى الباطن وتأثير الاحساسات الادراكية

ومع ذلك فلن نكتفى بهذا وانما نحب أن نسأل هؤلاء السادة من الماديين الطبيعيين اللادينيين . مالذى ينشده الدين من كل هذه الأشياء التى يدعو الى الاعتقاد والايمان بها ؟ وما طبيعة هذه الاشياء ؟ هل هى خيرة أم شريرة ؟

وهل هى محببة للنفس الفردية مسعدة لمجموع الانسانية أم أنها كريهة الى النفس جالبة الشقاء والدمار على المجتمع الانسانى ؟

نعم نحب ان نسأل هؤلاء السادة : هل كان الدين فى جوهره وغاياته ، وفى البيئات التى نزل فيها عاملا من عوامل التقدم والتطور والرقى الانسانى أم أنه كان راجعا بالانسان القهقرى الى الوراء ! ولكننا نعتقد ان هؤلاء السادة سيسقط فى أيديهم وسيصمتون صمت القبور لأنهم سيجدون أمامهم دلائل مادية محسوسة ملموسة عندما يولون وجوههم شطر هذه البيئات التى أنزلت عليها كل الديانات السماوية فى عصورها المختلفة . سيجدون هـــذه البيئات تمرع فى جهل مطبق وتعيش فى ظلام قاتم وتكيف حياتها ، وتسن نظمها ، وتشرع قوانينها على ضوء من الأنانية والتعصب والتسلط ووجود سادة وعبيد ، وأغنياء وفقراء وأقوياء وضعفاء ، وعدل مزيف ، وحق لا للناس عامة ، وإنما للقوى وحده والظالم والمعتدى والمغير

نعم لو تعمق الباحث المحايد إلى أعماق هذه البيئات التى أنزلت عليها الديانات السماوية لا استرعى نظره ما كان يعتورها جميعاً من عوامل الانحطاط والفساد الذى كان ينخر فيها ويتهددها بالانقراض والفناء مما سنسهب فى التحدث عنه فى مكانه من هذا الكتاب

فماذا فعل الدين فى هذا الجو الموبوء . وفى هذه البيئات الفاسدة التى لو تركت وشأنها لقضت على نفسها وعلى نمو الانسانية ونظام العمران هل أقرها على نظمها ومبادئها وما تواضعت عليه من معيشة وما ألفته من حياة حتى يتجنب وقوفها ضده وصدها لمبادئه ومصادرتها لما يدعو اليه ؟ وهل كانت الرسل التى حملت أعباء تبليغ رسالة الدين . مبشرين ومنذرين . وهادين ومبشرين هل كان هؤلاء الرسل الا افراداً ممتازين فى انسانيتهم وفى اخلاقهم وفى ايثارهم للغير وفى كل ماهو حميد محبوب من صفات الوفاء والحق والعدل ، وصفاء الضمير ونفاذ البصيرة ورجاحة العقل ؟

ليجيبنا هؤلاء السادة اللادينيون عن ذلك فما نشك أن ذلك يخفى عليهم

لأنه مسطور فى التاريخ مقروء فيما نزلت به هذه الديانات.

إن قلمى ليضطرم وأنا أخط هذه الكلمات لأن العاصين للدين والكافرين به والجاحدين بفضائله يفسرون الدين فى ضوء ماكان يأخذه ويتمثل به اتباعه والقوامون عليه الذين أتوا بعد رسلهم بحقب ليست قصيرة والذين كانوا يلونونه على هواهم بعقولهم الرجعية. ويمثلونه بعيداً عما كان يدعو ويسعى إليه ويبغى تحقيقه. ومن هنا فهموه على غير حقيقته ورموه بالأباطيل والترهات وهو من كل ذلك براء.

إنى لأطلب من هؤلاء السادة أن لا يقفوا عند هؤلاء العلماء. وأن لا يأخذوا شيئاً عنهم، وأن لا يتمثلوا الدين فى ضوء أقوالهم وافعالهم لأنهم أساءوا إلى أديانهم إساءة لا تغتفر، ولأنهم لن يجدوا عندهم شيئا من فضائل الدين ومزاياه وحقيقته وجوهره وذلك لانحطاط مداركهم ومرض نفوسهم وتكالبهم على الطمع والجشع وتسخير عقولهم وتأويل أحكام دينهم لأغراض سياسية وذلك ارضاء لغرورهم أو لرؤسائهم . . . . ! وإنما عليهم إذا أرادوا نشدان الحق والعثور على الحقيقة أن يولوا أنظارهم شطر الأديان فى كتبها المنزلة، وان يدرسوا البيئات التى انزلت فيها هذه الديانات ليروا ماكان يكتنفها من عوامل الهدم والفسوق والبعد عن الصراط المستقيم ثم بعد ذلك يسائلون انفسهم ؟ هل حقق الدين للإنسانية نفعا وخيراً وصلاحا وهل رسم لها طريق التقدم والسمو والكمال أم لم يحقق أو يفعل شيئا من ذلك ؟ وهل لو نظرنا الى رسالات المفكرين والمصلحين والعبقريين من بنى البشر هل نجد الدين كان يقف فى طريقهم (ولا أقول علماء الدين) أم أنه كان يساعدهم ويأخذ بيدهم . بل كانوا يعتمدون عليه هم فى تكوين إدراكهم، ونمو مواهبهم، وتحقيق غاياتهم

لقد سبق أن قررنا بأن اكتشاف الروح فى الإنسان الأول كانت من العوامل التى حملته على الخروج من منطقة اللا إدراك الى منطقة الادراك ثم على التأمل والتفكير فى نظام الكون وحقيقة الوجود فترك تراثا من الفكر والأساطير والفلسفات مهما يقل فيه فإنه كان مادة صالحة ومفيدة لعمل العقل الإنسانى فى كل أطواره التى مرت به

وقياسا على ذلك نقرر والتاريخ معنا شاهد حق على أن مابلغه الانسان من نضج وتقدم وتطور وعلى ان ما اصطنعه من صور التفكير وألوانه المختلفة وما أقامه من اختراعات وابتكارات وأشياء أخرى كان ذلك كله بسبب البذرات الأولى التى وضعها الدين فى دعوته الى الايمان بالله خالق الكون ، وصانع الأرض والسماء فوجد العقل بذلك طريقه فى البحث عن ماهية الروح ، وحقيقة الكون وأسرار الطبيعة وما وراءها وهيئت له بسبب ذلك السبل للتأمل والتفكير والبحث والتدقيق فى معرفة طبيعة الارض وحقيقة السماء فاخترع ما اخترع واكتشف ما أمكنه اكتشافه من أسرار وعلوم وقوانين و ما اصطلحه لكل ذلك من اصطلاحات

ومع ذلك لانود أن نكتفى بهذا لأننا نعلم أن بعضا من الناس سيتعرضون لنا قائلين ولذ كانت طبيعة الدين كما ذكرت . فكيف اذا حارب الدين العلم وكره الناس فيه وانكره عليهم وبغضهم فيه ؟ وجوابنا عليهم أننا لانعلم أن الدين فى ذاته - أى دين من الأديان المنزلة - انكر العلم المفيد للانسانية الآخذ بها نحو السمو والكمال لانعلم أن الدين أنكر شيئا من العلم أو عاداه أو أكره الناس على عدم الأخذ به لأن هذا مخالف لطبيعته ورسالته وغاياته - فإذا كان هؤلاء يعنون العلماء الذين سموا أنفسهم بعلماء الدين فالدين ليس مسئولا عنهم وهو منهم براء

اننا نعلم أن الدين أنكر بعض العلوم وبغض الناس فيها وصرفهم عنها مثل علوم السحر المؤذية للانسان ؛ ومثل العلوم الأخرى المبلبلة لافكار الانسانية والمقلقة لراحتها وأمنها ولكنه كان ينظر من وراء ذلك مصلحة لانسان وخيره وسعادته وهنا يظهر لنا ما فى الدين من سمو وكمال وارتفاع عن الدنايا والموبقات وتحلل من الغريزة الوحشية والبغضاء والانتقام فأى عقل يهضم بعد ذلك أن الدين كان يقف أمام العلم يعثر خطواته ويسد طريقه

إن الحضارة الحديثة التى من آثارها وجود هذه العلوم والفنون وكثرتها وتشعبها تنكر بقوة وبشدة استعمال العلوم المبيدة للانسانية المفككة لرابطتها

المقوضة لأركانها

فهل هناك انسان بعد ذلك عنده ذرة من العقل والوجدان السليم يستطيع أن يقول إن الدين وقف فى طريق العلم وعوق من تطوره ونهضاته

ان الباحث المحايد النزيه لا يسعه الا أن يشكر الله ويحمد له ما أفاء على الانسانية من خير بوجود الدين الذى نجاها من الضلال وجنبها العثرات وميزها تميزا ساميا رفيعا عن باقى المخلوقات

(١) قال جون استيوارت ميل فى رسالة له فى فائدة الديانة

« ان الديانات قد أفادت قديما فى تعليم الانسان مكارم الأخلاق ومحاسن العادات ، وكانت هى المرجع الوحيد الذى كان يرجع اليه فى التفرقة بين الحسن والقبيح والمباح والمحظور . ولكنها قيدت عقله بأحكامها وفروضها فأعجزته عن التفكير فى مضامينها والتخلص من عيوبها وعنده أن العقائد الانسانية كافية فى تهذيب الناس وقيادتهم بعد زوال العقائد التى تقوم على ماوراء الطبيعة لولا مزية لهذه العقائد لا توجد فى العقائد الانسانية وهى تعزية النفس برحمة الله ودوام الحياة فى العالم الآخر ولا مانع عقلا ولا علماً فى أن يصح وعد الديانات بالحياة بعد الموت »

وقال الأستاذ الفيلسوف جمال الدين الافغانى فى كتابه (الرد على الدهريين) ترجمة الاستاذ الامام محمد عبده

« اكسب الدين عقول البشر ثلاث عقائد وأودع نفوسهم ثلاث خصال كل منها ركن لوجود الأمم وعماد لبناء هيئتها الاجتماعية وأساس محكم لمدنيتها وفى كل منها سائق يحث الشعوب والقبائل على التقدم لغايات الكمال والرقى إلى ذرى السعادة ومن كل واحدة وازع قوى يباعد النفوس عن الشر ويزعها عن مقارنة الفساد ويصدها عن مقاربة مايبيدها ويبددها (العقيدة الأولى) التصديق بأن الانسان ملك أرضى وهو أشرف المخلوقات (والثانية) يقين كل ذى دين بأن أمته أشرف الأمم وكل مخالف له فعلى ضلال وباطل (والثالثة)

---

(١) ترجمة الاستاذ العقاد

جزمه بأن الانسان انما ورد هـذه الحياة الدنيا لاستحصال كمال يهيئه للعروج الى عالم أرفع وأوسع من هذا العالم الدنيوى والانتقال من دار ضيقة الساحات كثيرة المكروهات جديرة أن تسمى بيت الأحزان وقرار الآلام الى دار فسيحة الساحات خالية من المؤلمات لا تنقضى سعادتها ولا تنتهى مدتها

لا يغفل العاقل عما يتبع هذه العقائد الثلاث من الآثار الجليلة فى الاجتماع البشرى والمنافع الجمة فى المدنية الصحيحة ومايعود منها بالاصلاح على روابط الأمم وما لكل واحدة من الدخل فى بقاء النوع والميل بأفراده لأن يعيش كل منهم مع الآخر بالمسالمة والموادعة والأخذ بهمم الأمم للصعود فى مراقى الكمال النفسى والعقلى

من البين أن لكل عقيدة لوازم وخواص لا تزايلها فما يلزم الاعتقاد بأن الانسان أشرف المخلوقات ترفع المعتقد بحكم الضرورة عن الخصال البهيمية واستنكافه عن ملابسة الصفات الحيوانية ولاريب أنه كلما قوى الاعتقاد اشتد به النفور من مخالطة الحيوانات فى صفاتها وكلما اشتد هذا النفور سما بروحه الى العالم العقلى وكلما سما عقله أوفى على المدنية وأخذ منها بأوفر الحظوظ حتى قد ينتهى به الحال إلى أن يكون واحدا من أهل المدنية الفاضلة يحيا مع اخوانه الواصلين معه الى درجته على قواعد المحبة وأصول العدالة وتلك نهاية السعادة الانسانية فى الدنيا وغاية ما يسعى اليه العقلاء والحكماء فيها

فهذه العقيدة أعظم صارف للانسان عن مضارعة الحمر الوحشية فى معيشتها والثيران البرية فى حالتها ومضاربة البهائم السائمة والدواب الهاملة والهوام الراشمة لا تستطيع دفع مضرة ولا التقية من عادية ولا تهتدى طريقا لحفظ حياتها وتقضى أجلها فى دهشة الفزع ووحشية الانفراد

هذه العقيدة أشد زاجر لأبناء الانسان عن التقاطع المؤدى لافتراس بعضهم بعضا كما يقع بين الأسود الكاسرة والوحوش الضاربة والكلاب العاقرة وأشد مانع يدفع صاحبها عن مشاكلة الحيوانات فى خسائس الصفات وهـذه العقيدة أحجى حاد للفكر فى حركاته وانجح داع للعقل فى استعمال قوته وأقوى

فاعل فى تهذيب النفوس وتطهيرها من الرذائل

ان شئت فارم بنظر العقل إلى قوم لايعتقدون هذا الاعتقاد بل يظنون أن الانسان حيوان كسائر الحيوانات ثم تبصر ماذا يصدر عنهم من ضروب الدنايا والرذائل والى أى حد تصل بهم الشرور وبأى منزلة من الدناءة تكون نفوسهم وكيف أن السقوط الى الحيوانية يقف بعقولهم عن الحركات الفكرية

ومن خواص يقين الأمة بأنها أشرف الأمم وجميع من يخالفها على الباطل أن ينهض آحادها لمكاثرة الأمم فى مفاخرها ومساماتها فى مجدها ومسابقتها فى شرائف الأمور وفضائل الصفات ، وأن تتفق جميعها على الرغبة فى فوت جميع الأمم والتقدم عليها فى المزايا الانسانية عقلية كانت أو نفسية ومعاشية كانت أو معادية وتأبى نفس كل واحد عن اعطاء الدنية والرضى بالضيم لنفسه أو لأحد من بنى أمته ولا يسره أن يرى شيئا من العزة أو مقاما من الشرف لقوم من لأقوام حتى يطلب لأمته أفضله وأعلاه ذلك انه بهذا الاعتقاد يرى أبناء قومه أليق وأجدر بكل مايعد شرفا انسانيا

فان جازت صروف الدهر على قومه فأضرعتهم أو ثلمت مجدهم او سلبتهم مزية من مزايا الفضل لم تستقر له واحة ولم تنشأ له حمية ولم يسكن له جيشان فهو يمضى حيانه فى علاج ما ألم بقومه حتى يأسوه أو يموت فى أساه

فهذه العقيدة أقوى دافع للأمم الى التسابق لغايات المدنية وأمضى الاسباب بها إلى طلب العلوم والتوسع فى الفنون والابداع فى الصنائع وانها لأبلغ فى سوق الأمم الى منازل العلاء ومقام الشرف من غالب قاسر ومستبد قاهر عادل وان أردت فالمح بعقلك حال قوم فقدوا هذا اليقين ماذا تجد من فتور فى حركات آحادهم نحو المعالى وماذا ترى من قصور فى هممهم عن درك الفضائل وماذ ينزل بقواهم من الضعف وماذا يحل بديارهم من الفقر والمسكنة والى أية هوة يسقطون من الذلة والهوان خصوصا اذا بغى عليهم لجهل فظنوا أنهم أدنى من سائر الملل كطائفة (الدهير) و (مانك)

ومن مقتضيات الجزم بأن الانسان ماورد هذا العالم الا ليتزود منه كمالا

يعرج به الى عالم أرفع ويرتحل به الى دار أوسع وجناب أمرع أن من أشربت هـــذه العقيدة قلبه ينبعث بحكمها وينساق بحاديها لاضاءة عقله بالعلوم الحقة والمعارف الصافية خشية أن يهبط به الجهل الى نقص يحول دون مطلبه ثم ينصرف همه لابراز ما أودع فيه من القوة السامية والمدارك العقلية والحواس الجليلة باستعجالها فيما خلقت له فينجلى كماله من عالم الكون الى عالم الظهور ويرتقى من درجة القوة إلى مكانة الفعل فهو ينفق ساعاته فى تهذيب نفسه وتطهيرها من دنس الرذائل ولا يناله التقصير فى تقويم ملكاته النفسية وينزع لكسب المال من الوجوه المشروعه متنكبا عن طرق الخيانه ووسائل الكذب والحيلة معرضا عن ابواب الرشوة مترفعا عن الملق الكلبى والخداع الثعلبى ثم ينفق ماكسب فى الوجه الذى يليق وعلى الوجه الذى ينبغى وبالقدر الذى ينبغى لا يأتى فيه باطلا ولا يغفل حقا عاما أو خاصا

فهذه العقيدة أحكم مرشد وأهدى قائد للانسان الى المدنية الثابتة المؤسسة على المعارف الحقة والأخلاق الفاضلة وهذا الاعتقاد أشد ركن لقوام الهيئة الاجتماعية التى لاعمادلها الا معرفة كل واحد حقوقه وحقوق غيره عليه والقيام على صراط العدل المستقيم هذا الاعتقاد أنجح الذرائع لتوثيق الروابط بين الأمم اذ لاعقد لها الا مراعاة الصدق والخضوع لسلطان العدل فى الوقوف عند حدود المعاملات هذا الاعتقاد نفحة من روح الرحمه الأزلية تهب على القلوب ببرد الهدون والمسالمه فان المسالمة ثمرة العدل والمحبة والعدل والمحبة زهر الاخلاق والسجايا الحسنة وهى غراس تلك العقيدة التى تحيد بصاحبها عن مضارب الشرور وتنجبه عن متائه الشقاء وتعاسة الحد وترفعه الى غرف المدنية الفاضلة وتجلسه على كرسى السعاده

وقد يسهل عليك ان تتخيل جيلا من الناس حرم هذه العقيدة فكم يبدو لك فيه من شقاق وكذب ونفاق وحيل وخداع ورشوة واختلاس وكم يغشى نظرك من مشاهد الحرص والشره والغدر والاغتيال وهضم الحقوق والجدال والجلاد وكم تحس فيه من جفاء للعلم وعشوة عن نور المعرفه » انتهى

وهكذا وجدتنى مضطرا لأن أنقل لك هذا الفصل بأجمعه لأنه متصل بعضه ببعض اتصالا وثيقا ولأنه صادر من مفكر شرقى عظيم يعتبر الباعث الأول لنهضتنا الحديثة والذى تتلمذ على يديه زعماء الفكر والسياسة والدين فى مصر والشرق جميعا

واذا كان لنا أن نكتب بعد ذلك شيئا عن مزايا الدين وضرورته للبشر وان عقيدته هى أفضل العقائد وأقواها وأسماها بعد أن قررنا فيما سبق من الكتاب بأدلة مادية قاطعة بأنه ليس للانسان مفر من عقيدة فى نفسه لأنها من طبيعة تكوينه ولأنها من لوازم تطوره ووجوده كانسان متحضر فى هذه الحياة

إذا كان لنا أن نكتب بعد كل ماقدمناه من دلائل واثباتات واستشهادات أقول إذا كان لنا أن نكتب شيئا عن عقيدة الدين بعد هذا كله فإننا سنتكلم عن مرجد هذه العقيدة والداعى اليها والآمر بها بواسطة رسله وكتبه المنزلة من السماء

سنتكلم على حقيقة الوجود ، أو على حقيقة الإله خالق الكون وباسط الأرض ورافع السماء ومنظم العمران بعينى خبير قدير

وكما قلنا نحن سابقا من أننا لم نقم بهذا البحث حبا للترف العقلى والنزهة الفكرية وكثرة المناقشة والجدل فيما لاينفع ولا يفيد الانسانية فى حالتها الراهنه وفيما تستقبله من الأيام وانما نحن فى دراستنا هذه لانتشد الا الخير والفائدة الملموسة والمحسوسة للانسانية فى حاضرها ومستقبلها فمن أجل ذلك لن نناقش علماء «الميتافيزيقيا» فى آرائهم الكثيرة المتناقضة وفى تفسيراتهم المتباينة لمختلفة لحقيقة الوجود وماهية الكون ولكننا نكتفى رغم اختلافهم فى ذلك باعترافهم جميعا بأن وراء الطبيعة قوة قاهرة قادرة تفرع منها الوجود وتسبب عنها حدوث الكون فاذا جاءت الاديان لترشدنا وتدلل لنا على أن هذه القوى القاهرة القادرة هى الإله خالق الكون ورب الجميع الذى لا أول له ولا آخر ولا بداية له ولانهاية والذى بيده الملك ، وبيده الامر والنهى والذى سيحاسب الانسان على ماقدمت يداه واكتسبه من خير أو شر «فمن عمل صالحا فلنفسه

ومن أساء فعليها وما ربك بظلام للعبيد »

اذا جاءت الديانات لتدعونا بأن نؤمن بهذا الإله بعد أن أظهر العقل عجزه عن معرفته وتصويره . واكتشاف حقيقته وبعد أن وجدنا فليسوفا عبقريا مثل (عما نوئيل كانت) المفكر الالمانى الذى سادت فلسفته أوربا فى القرن التاسع عشر والتى مازالت فلسفته تؤثر فى الفكر البشرى حتى الان يقرر فى قوة ومن غير تحفظ «بأن لا سبيل للعقل فى معرفة حقيقة الله أو حقيقة الروح لأنه لاتتوفر فيه القدرة على ذلك . ولانه يعجز عن أن يصل الى شىء أضخم وأعظم منه ولان مجاله لايتأتى الا فى الأشياء المادية الملموسة المحسوسة والله منزه عن المادة ، وعن أن يكون شيئا ملموسا محسوساً »

فالعقل هنا يثبت تقصيره وعجزه أمام القوى الازلية غير المشخصة أو المستحدثة أو المدينة فى وجودها لعلة من العلل أو لسبب من الأسباب ولكن العقل اذا كان لا يملك ادراك الذات الإلهية فليس له من سبب وجيه لانكارها وعلى ذلك فإنه يكون من الجحود لأنفسنا أن لا نؤمن بوجود الاله

وإن الباحث إذا رجع بنظره وفكره إلى الكيفية التى آمن بها الانسان الأول - وان كنا نقرر هنا بأن ايمانه لم يكن صحيحا - الا أن ذلك لايمنعنا من أن نعرف الأدوات التى استعملها فى البحث عن ماهية الكون وحقيقة الاله وأول شىء يبرز لنا من ذلك أن العقل لم يستأثر وحده بالبحث ولم يكن وحده هو الأداة التى حملت الانسان على الايمان بالروح بل كان القلب وكانت الاحساسات هى التى تحملت النصيب الأوفر فى ذلك .

لقد قررنا نحن فيما مضى بأن ما اكتسبه العقل من انارة ونضوج كان بسبب الاحساسات الانسانية التى استشفت للعقل المادة التى يتدبر فيها ويتحكم ويحكم وغاية مانقوله فى هذا الموضوع هو أن العقل الذى طبيعته القصور والعجز دائما فلا سبيل له الى الكمال أبد الآبدين من العبث أن نحكمه فى الكمال المطلق ليلم به ويحكم عليه . وانما نحكمه فيما يرتاح اليه القلب وترتاح اليه الاحساسات ، نحكمه فى الفوائد الملموسة التى يجنيها المجتمع فى ايمانه بالله . أو فى الشرور التى

ينغمس فيها بالكفر به

قال الفيلسوف الانجليزى هكسلى فى حقيقة الإله :

(هناك طريقة إلى الحقيقة الإلهية من داخل النفس وطريقة اليها من داخل العالم وجواهره واعراضه . ومشكوك فيه أن تغنينا واحدة من الطريقتين عن الأخرى كل الغنى فأما اذا اتفقتا معا فذلك هو النهج السديد)

ويقول العقاد فى صفحة (٢٩٣) من كتابه (الله)

(نحن قد جهلنا أحكام البساطة وصفاتها فى المادة المحسوسة قرونا بعد قرون ولا نزال نعلم أننا واهمون فيما نتصف به من الحركة والسكون . فمن أين لنا أن ندرك أحكام البساطة الالهية قياسا على وصف لا تحيط به العقول من أين لنا ان ارادة الله من قبيل ارادتنا . وأن علم الله من قبيل علمنا وكيف يكون الوجود إن لم يكن وجوداً يفعل ويخالف العدم ؟ وكيف يخالف العدم اذا كان سلبا لا أثر له على سبيل الثبوت هنا نعلم أن الدين لم يكن أصدق عقيدة وكفى بل كان كذلك أصدق فلسفة حين علمنا ان الله جل وعلا (ليس كمثله شىء)

فكل ما نعلمه أنه جل وعلا (كمال مطلق) وان العقل المحدود لا يحيط بالكمال المطلق الذى ليست له حـــدود . وليس لهذا العقل أن يقول للكمال المطلق كيف يكون وكيف يفعل وكيف يريد .

ويفضى بنا الكلام فى طاقة العقل الى نتيجة رابعة وهى الصلة بين العقل والايمان فكيف نؤمن اذاً اذا كان العقل الانسانى قاصراً عن ادراك الذات الالهية وكيف تأتى الصلة بين الكمال المطلق وبين الانسان

وقد نمهد للجواب على هذا السؤال بسؤال آخر يرد البحث الى نصابه فنسأل : أيراد بالعقل اذا أن يكف عن الايمان حتى يكون عقلا كاملا مطلق الكمال أم يراد بالعقل أن يؤمن بإله دون مرتبه الكمال ؟

لا هذا ولا ذاك مما يقع فى حسبان فالكائن الذى يستحق الايمان به هو الكائن الذى يتصف بالكمال المطلق فى جميع الصفات وغير معقول أن يكون سبب الايمان هو السبب المبطل للإيمان . وغير معقول أن يستحيل الايمان مع وجود الاله الذى يتصف بأكمل الصفات فالمخرج الوحيد من هذا التناقض أن الصلة بين

الخالق وخلقه لا تتوقف على العقل وحده : وأى عجب فى ذلك إن الانسان كله لفى الوجود وليس العقل وحده هو قوام وجود الانسان . فلماذا تنقطع الصلة بين الخلق والخالق إذا حسرت العقول دون ذلك المقام أفمعنى هذا أن العقل الانسانى لا عمل له فى مسألة الايمان ؟ كلا بل له عمل كبير ولكنه ليس بالعمل الوحيد وفرق بين أن يعرف العقل حدوده وبين أن يبطل عمله فان العقل ليستطيع التفرقة بين عقيدة الشرك وعقيدة التوحيد ويستطيع التفرقة بين أدلة الايمان وأدلة التعطيل ويستطيع التفرقة بين ضمير مؤمن وضمير عطل من الايمان . ويستطيع أن يبلغ غاية حدوده ثم لا ينكر حدودها لانه وراء تلك الحدود يستطيع أن يسأل نفسه : أيمكن أن يمتنع على الايمان بالله لا لشىء الا لأنه متصف بأكمل الصفات التى يتعلق بها إيمان المؤمنين فان لم يكن ذلك ممكنا فليعترف (بالوعى الدينى) لأنه ضرورة لا محيص عنها ولأنه واقع ملازم للانسان فى محاولاته الأولى ، ولن يزال ملازماً له فى مقبل عصوره أبد الآبدين) انتهى

ومع ذلك فاننا لا نحب أن نترك هذا البحث دون أن نجد للعقل ونجد المنطق مجالا فى معرفة آثار الذات الالهية وفى معرفة ما تجنيه الانسانية من الايمان بها من خير أو شر : نعم هنا مجال العقل ، وهنا مقارعة المنطق وهو هل الايمان بالله وإطاعة أوامره والابتعاد عن نواهيه خير وإصلاح وتهذيب للأنسانية أم جرم وفساد وشر ووبال عليها :

ان النفس الانسانية أمارة بالسوء ، وإن الغريزة البشرية ركب فيها من عوامل الاثرة والوحشية والاعتداء مالو تركت وشأنها لقضت على الانسانية والعمران شر قضاء فلو لم يستشعر الانسان ويؤمن بأن هناك قوة قادرة عليمة بصيرة تقف له بالمرصاد وتسجل عليه ما يكتسبه من الأعمال وستحاسبه على ما قدمت يداه من خير أو شر حساباً عسيراً فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره

اذا لم يؤمن الانسان بذلك لما كان هناك فرق بينه وبين الذئاب المتوحشة والنمور الكاسرة ، وذلك فضلا عما يجده القلب فى ايمانه بالله وما تجده الاحساسات البشرية من معين للتغذية ومن مجال للرفعة والتسامى والايثار والحب

إن التعاليم والمبادىء التى نزلت بها الديانات من قبل الله من تكرار القول التحدث عن نفعها وخيرها للإنسانية لأنها من البدائه التى لا يتطاول إلى انكارها إنسان كائنا من كان والتى يقف أمامها العقل البشرى منحنيا فى تقديس وإكبار وإجلال .

يقول أحد الفلاسفة الغربيين (لو لم يكن للبشر إله لكان من الخير لهم أن يصطنعوا لأنفسهم إلها)

ويقول الأستاذ جمال الدين الأفغانى فى كتابه سالف الذكر « إن الإيمان بأن للعالم صانعاً عالما بمضمرات القلوب ومطويات الأنفس سامى القدرة واسع الحول والقوة مع الإعتقاد بأنه قدر للخير والشر جزاء بوفاة مستحقيه فى حياة بعد هذه الحياة . وفى الحق ان هاتين العقيدتين وازعان قويان يكبحان النفس عن الشهوات ويمنعانها عن العدوان ظاهره وخفيه وحاسمان صارمان يمحوان أثر الغدر ويستأصلان حتى مادة التدليس وهما أفضل وسيلة لاحقاق الحق والتوقيف عند الحد وهما مجلبة الأمن ومتنسم الراحة وبدون هذين الاعتقادين لا تقرر هيئة للإجتماع الإنسانى ولا تلبس المدنية سربال الحياة ولا يستقيم نظام المعاملات ولا تصفو صلات البشر من شائبات الغل وكدورات الغش

فلو خويت القلوب من هاتين العقيدتين لسكنتها شياطين الرذائل وسدت عليها طرق الفضائل ومن أين لمنكر الجزاء أن يكف نفسه عن خيانة أو يترفع بها عن كذب وغدر وتملق ونفاق وقد تقرر أن العلة الغائية لأعمال الإنسان إنما هى نفسه كما سبق فإن لم يؤمن بثواب وعقاب وحساب وعتاب فى يوم بعد يومه فما الذى يمنعه عن ذمائم الفعال خصوصا إذا تمكن من إخفاء عمله وآمن من سوء عاقبته فى الدنيا أو رأى منفعته الحاضرة فى ركوب طريق الرذيلة والعدول عن سنن الفضيلة وأى حامل يحمله على المعاونة والمرادفة والرحمة والمروءة وعلو الهمة وما يشبه ذلك من الأخلاق التى لا غنى للهيئة الاجتماعية عنها (ولئن وجد فى أحد الجاحدين شىء من مكارم الأخلاق بمقتضى الغريزة لكان عرضة للفساد أو كان أبتر ناقصا لفقد ما يمده من سائر صفات الكمال)

وقد تبين أن أول تعاليم الدهريين ابطال هذين الاعتقادين (الاعتقاد بالله والاعتقاد بالحياة الأبدية) وهما أساس كل دين وآخر تعاليمهم الاباحة

والاشتراك فهؤلاء القوم هم الساعون فى نسف بناء الانسانية وتذريته فى ذيول السافيات يطلبون ضعضعة أركان المدنية وفساد الأخلاق البشرية ويقوضون بذلك ما رفعه العلم وشادته المعرفة يهلكون الأمم باطفاء حرارة الغيرة واخماد ريح الحمية . هؤلاء جراثيم اللؤم والخيانة وأرومات الرذالة والدناءة واحلاس الخسة والنذالة وأعلام الكذب والافتراء ودعاة الحيوانية العجماء محبتهم كيد وصحبتهم صيد وتوددهم مكر ومواصلتهم غدر وصداقتهم خيانة ودعواهم للإنسانية خيالة ودعوتهم للعلوم شرك ومكيدة يخونون الأمانة ولا يحفظون السر ويبيعون الصق الناس بهم بأوفى مشتهياتهم عبيد البطون وأسراء الشهوات لا يستنكفون من الدنية اذا اعقبتها عطية ولا يخجلون من الفضيحة اذا اتبعتها رضيخة لا علم عندهم بالوفاء ولا احساس لهم بالعار ولم يبلغهم عن شرف النفس خبر مخبر ولا وصل اليهم عن الهمة عبارة معبر أو تفسير مفسر الابن فيهم لا يأمن أباه والبنت لا أمان لها من كليهما . نعم أى حد تقف دونه حركات طبع الطبعيين ،،

الى أن قال « فتبين مما قررناه أن الدين وأن انحطت درجته بين الاديان ووهى أساسه فهو أفضل من طريقة الدهريين وأمس بالمدنية ونظام الجمعية الانسانية وأجمل أثراً فى عقد روابط المعاملات بل فى كل شأن يفيد المجتمع الانسانى وفى كل ترق بشرى الى أية درجة من درجات السعادة فى هذه الحياة وختم هذا الفصل بقوله « فلم تبق ريبة أن الدين هو السبب الفرد لسعادة الانسان فلو قام الدين على قواعد الأمر الالهى الحق ولم يخالطه شىء من أباطيل من يزعمونه ولا يعرفونه فلا ريب أنه يكون سببا فى السعادة التامة والنعيم الكامل ويذهب بمعتقديه فى جواد الكمال الصورى والمعنوى . ويصعد بهم الى ذروة الفضل الظاهرى والباطنى ويرفع أعلام المدنية لطلابها بل يفيض على المتمدنين من ديم الكمال الفعلى والنفسى ما يظفرهم بسعادة الدارين والله يهدى من يشاء الى صراط مستقيم »

ويقول (أجوست سباتييه) فى كتابه فلسفة الدين (لماذا أنا متدين؟ انى لم أحرك شفتى بهذا السؤال مرة إلا وأرانى مشوقاً للاجابة عنه بهذا الجواب ،؟ وهو

أنا متدين لأنى لا أستطيع غير ذلك فالتدين لازم معنوى من لوازم ذاتى يقولون ذلك أثر من آثار الوراثة أو التربية أو المزاج فأقول لهم قد اعترضت على نفسى كثيراً بهذا الاعتراض نفسه ولكنى وجدته يقهقر المسألة ولا يحلها وأن ضرورة التدين أشاهدها بأكثر قوة فى الحياة الاجتماعية البشرية. فهى ليست أقل تشبثاً منى بأهداب الدين) إلى أن قال :

(وإذاً فالدين باق وغير قابل للزوال وهو فضلا عن عدم نضوب ينبوعه بتمادى الزمن نرى ذلك الينبوع يتزايد اتساعاً وعمقا تحت المؤثر المزدوج من الفكر الفلسفى والتجاريب الحيوية المؤلمة)

ويقول الفيلسوف (أرنست رينان) فى كتابه تاريخ الأديان « من الممكن أن يضمحل ويتلاشى كل شىء نحبه وكل شىء نعده من ملاذ الحياة ونعيمها . ومن الممكن أن تبطل حرية استعمال القوة العقلية والصناعية ولكن يستحيل أن ينمحى التدين أو يتلاشى . بل سيبقى أبد الآبدين حجة ناطقة على بطلان المذهب المادى الذى يود أن يحصر الفكر الإنسانى فى المضائق الدنيئة للحياة الأرضية »

ويقول الدوس هكسلى : « إن الحضارة الأوربية قامت على التفوق الذهنى وحده وخلقت نهضة صناعية لم تحقق للإنسانية إلا القوى المادية والترف ولكنها أهملت تربية عواطفه واخلاقه وفضائله الروحية »

ويقول الفيلسوف الفرنسى (شارل) فى كتابه الوحى الجديد (لما فقد الناس التصديق بوجود الروح صارت منابع الأخلاق مهددة بالنضوب وأحست الإنسانية من نفسها بأنها قد دخلت دور الفتن والإنحلال الذى يعقبه عادة التلاشى والفناء)

وقال الأستاذ أحمد أمين بك فى مقال له فى مجلة الكتاب : اجتمع جماعة من أشهر رجال العلم يمثلون علم الفلك والكيماء . والإقتصاد والتاريخ والأدب والفلسفة والدين ووضعوا تقريراً جاء فيه :

« الديمقراطية الصحيحة والثقافة الحقة يجب أن لا تعتمد على أن الإنسان جزء من الطبيعة فقط بل هو أيضا كائن روحى . وأن الحياة الروحية لا يمكن

أن تفسر بالقوانين الطبيعية التى يشرحها علماء الطبيعة . وأن الروح الانسانى مستقل عن الجسم وبيئته . وأن اتصال الروح بالمنبع الأبدى مسألة أساسية فى فهم الروح الانسانى وأن انكار الطبيعيين لعلاقة الانسان بالروح الأعلى التى تسيطر على العالم أجمع حرمه من قوة الخالق وأبعده عن الصراط المستقيم »

والخلاصة التى يمكن أن نخرج بها من هذا الفصل هى أن الدين لازم للبشر لزوم الماء والهواء للإنسان والحيوان والنبات ضرورى لرقى الانسانية ضرورة لا محيص منها ولا محيد عنها . وأن الباحث لا يملك نفسه من أن يتنبأ بأن الانسانية فى تطورها هذا القوى العنيف سينتهى بها المطاف الى أن ترتمى فى أحضان الدين ، وأن تكيف نفسها به ، وأن تستمد حياتها بوحى من هديه فعلى الدين بعد ذلك أن يكون مرنا صافيا خالصا مما ألم به من الشوائب والاباطيل والترهات التى ألمت به فى عصوره الماضية وهو منها براء .

ولقد أخذنا على أنفسنا عهداً بأن نقوم بهذا العمل الضخم الجبار فنستظهر ديننا الاسلامى ونقدمه للانسانية نظيفاً مما علق به لترى فيه بغيتها وهداها وتستنقذ نفسها به مما هى فيه من حيرة وضلال وظلوع عن الطريق المستقيم .

إن الاسلام هو آخر الاديان السماوية وأقواها وأصلحها وأعظمها مرونة وها نحن أولاء نقدمه لا للمسلمين فقط وإنما للانسانية جمعاء لترى فيه رشادها وتستمد منه سعادتها فى حاضرها ومايستقبلها بعد ذلك من عظمة وتفوق وامتياز

حالة الانسانية قبل الاسلام

من الملاحظ فى نزول الديانات والدعـوات الالهية أنهـا كانت تتفق جميعها ومطالب الانسانية وحاجتها القصوى إلى استحداث مبادىء ونظم تكيف بهـا حياتها وتنمى بها وجودها :

ولقد كانت الديانات فى صميم مبادئهـا ودعـواتها كأنها تترجم عما يكن فى ضمير الانسانية من حب للتقدم والتطور ومن محـاولة لاستنقاذ نفسها مما هى فيـه من تأخر وانحطاط . ومن سعى واستعـداد لتحطيم قيودهـا التى غلتها بها التقاليد والرجعيات فكانت الديانات تتنزل على بنى البشر مؤرخـة فى الحقيقـة لنهضاتها وتقدمها وبلوغها مرحلة تستطيع بها أن تهضم وتعى ما تدعوها اليه من آراء ومبادىء وما تفرضها عليها من قوانين ونظم .

والدارس لكل لديانات فى مجموعها تبرز له روعتها ولباقتها فى ذلك لأنها كانت تتنزل متمشية مع تطور الانسانية فى حاضرها ولـكنها قاصرة عن الاهتداء اليه والاسترشاد له.

والديانات فى مجملها متفقة على وجود إله يجب أن تدين له الانسانية بالطاعة والانقياد ومتفقة على الدعـوة إلى الفعل الصـالح وعلى وجود جزاء وعقـاب وحياة أخرى سيعاقب فيها المذنب ويجازى المحسن ولـكنها مختلفة فى التفاصيل اختلافا بينا عظيما

ومن هنا تدرك شدة حرصها واتفاقهـا مع مقدار ما استوعبته الانسانية من رصيد المعرفة والادراك . وما تحتاج إليه من اصلاح وتهذيب تهضمه وتعيه وتعمل به وتدرك مقدار خيره ونفعه وصلاحه لها . وعلى ضوء ذلك سندرس حالة الانسانية قبل نزل الاسلام

واذا كانت الديانة الاسلامية - وهى آخر الأديان المنزلة - قد أتت عامة لأبناء الجنس البشرى جميعا وقد حملت فى جوهرها ومبادئها العناصر التى تتفق مع تطور الانسانية جميعها وتعاونها وائتلافها فإنه لا معدى لنا من أن نكشف النقاب عن حالة الأمم التى كانت ظاهرة وسائدة قبل ظهور الاسلام . والتى كانت تؤثر فى غيرها من بنى البشر وتفرض عليهم نظمها وقوانينها وتكيف لهم حياتهم لنرى ان كان التشريع الاسلامى فى جملته وتفاصيله مما تحتاج إليه الانسانية ومما يمكن أن يستخدمه بنو البشر جميعا لا فرق بين أمة أخرى ولا بين جيل ومن يأتى بعده من أجيال لا فرق بين هؤلاء جميعا فى أن يسموبهم هذا التشريع الاسلامى وأن ينظم حياتهم ويحضرها ويجعلها تتسق وتتمشى مع تجدد العمران وتطور الاجيال

وأول ما يتراءى لنا عندما نأخذ فى دراسة البيئة الانسانية قبل ظهور الاسلام أن نتجه فى دراستنا الى دولتى الفرس والروم بجانب دراستنا للأمة العربية التى أنزل فيها هذا التشريع لأن هاتين الدولتين كانتا فى الواقع مؤثرتين فى غيرهما من الأمم والشعوب فارضتين عليهما ماشاءتا من نظم وقوانين

وأول شىء يعن لنا ونحن تجاه دراسة هاتين الدولتين وتجاه ما اكتسبته كل منهما من علوم وقوانين وما برعتا فيه من اختراعات وفنون أن نذكر فضل اليونان عليهما . وفضل الفلسفة اليونانية القديمة التى نعتبرها بحق أصل التفكير البشرى المنظم وجرثومة الفكر الحر المجدد .

هذه الفلسفة القوية الجبارة التى نستطيع أن نتمثلها فى مرحلتين بعيدتين كل منهما عن الأخرى : المرحلة الاولى وكانت فى القرون الخمسة الاولى قبل الميلاد وهى التى فرضت الفلسفة فيها نفسها على الامم فرضاً فكانت تمشى جنبا الى جنب مع غزوات الاسكندر المقدونى البطل اليونانى الشهير وانتصاراته المتوالية حتى أخضع ملوك العالم جميعا وحتى أصبحت الدول جميعها تدين له بالطاعة والانقياد . فكان علماء اليونان فى هذه المرحلة هم أساتذة العالم جميعا دون نزاع . وكانت كل ألوان التفكير البشرى مستمدة فى الحقيقة من فلسفة

هؤلاء العلماء الذين اعتزوا وتميزوا وفرضوا آراءهم فى كنف قائدهم العظيم الذى كان هدفه الأوحد فى كل حروبه وغزواته نشر العلم والفلسفة اليونانية وسيطرتها على العقل الانسانى وحسبك على ذلك مكتبة الأسكندية وما كانت تحويه من كتب كثيرة هائلة فى مختلف العلوم والفنون

هذه المرحلة الأولى للفلسفة اليونانية وهى التى سيطرت فيها على العقول بحد السيف وبالغزو الحربى هى التى كانت تؤثر فى حياة الفرس والروم وفى حياة غيرهما من الشعوب التى أخذت بقسط من التحضر كل التأثير .

أما فلسفة اليونان فى مرحلتها الثانية فكانت فى النصف الثانى من القرن السادس عشر عندما ذهب مفكروا أوربا وأدباؤها مختارين طائعين نهمين إلى هذه الفلسفة فعبوا منها عبا واعتنقوها وأسرفوا فى اعتناقهم لها غاية الاسراف مما حدثتك عنه فى مقدمة هذا الكتاب .

ولا يعنينا فى هذا الفصل من الكتاب دراسة هذه المرحلة الثانية بقدر ما تعنينا دراسة المرحلة الأولى التى كما قلت كانت مؤثرة فى حياة الفرس والروم وما كان يتبعهما من أمم وشعوب .

ولعل من الواجب علينا قبل أن يمضى بنا القلم أن نلم المامة خاطفة بتاريخ هاتين الدولتين العظيمتين وما تعرضتا له من غزوات سواء أكانت هذه الغزوات حربية أم فكرية . وما كانتا تتخذانه من عقيدة وتؤمنان به من دين .

وإذا ما رجعنا إلى الوراء وولينا وجوهنا شطر هاتين الدولتين العظيمتين اللتين كانتا تسيطران على غيرهما من الأمم والشعوب . أقول إذا ما وجهنا وجوهنا اليهما فى القرن الرابع قبل الميلاد نجدهما كانتا كما قلت متأثرتين غاية التأثر بالفلسفة اليونانية التى غزت العالم كله وسيطرت على العقول سيطرة طاغية وكانت تعززها الانتصارات الحربية التى حمل لواءها الاسكندر المقدونى تلميذ الفيلسوف اليونانى أرسطاطاليس .

وما دمنا سنلم بحالة كل من الفرس والروم قبل ظهور الاسلام فليس لنا مفر من التبسط بعض الشىء فى دراسة التاريخ القديم لكل منهما .

فأما الفرس فالتاريخ يحدثنا عنها أنها دولة عريقة فى الحكم لم تستطع أى دولة من الدول أن تحكمها مدى ثلاثة آلاف سنة قبل ظهور الاسلام اللهم الا بطل اليونان الاسكندر المقدونى الذى ذهب إلى مليكها دارا الثالث فى القرن الرابع قبل الميلاد فثل عرشه وقضى على حكمه قضاء تاما .

هذه الدولة لم يعرف عنها إلا أنها كانت من عبدة الأوثان حتى ظهر فيها زرادشت أثناء العشرة قرون الأولى قبل الميلاد والتى لم يستطع المؤرخون أن يعينوا أى قرن ظهر فيه بالضبط ودعا إلى ديانة جديدة هى المجوسية فاعتنق دينه أفراد كثيرون من الشعب كان منهم ابن الملك وبقى الآخرون من الشعب على دينهم القديم وكان من الطبيعى أن يتصارع الفريقان . وأن يحاول كل منهما الغلبة على الآخر ولكن كان النصر لأتباع زرادشت وذلك بسبب تأييد الملك لهم فانتصروا وتغلبوا على الوثنيين وظلت الفرس مجوسية إلى أن ابتدأ العرب غزواتها فى عهد الخليفة الثانى عمر بن الخطاب ثم القضاء والسيطرة على بلادها كلها فى عهد الخليفة الثالث عثمان بن عفان ودخل الاسلام من بنيها رهط عظيم خدمه بإخلاص فاجتهد وجدد وكون له مذاهب وآراء غاية فى الروعة والخطورة مثل الامام أبى حنيفة وابن سينا والبخارى والغزالى

هذه الدولة التى اشتهر أهلها وملوكها بالذكاء الحاد والترف المعرف والتى نبغ فيها من الأطباء ومن علماء الفلك ما لم تزاحمها فيه دولة أخرى .

هذه الدولة عندما ندرس حالتها قبيل ظهور الاسلام نجد أن عوامل كثيرة كانت تنخر فى نظامها الاجتماعى وكان تهيأ للقضاء على كيانها الدولى قضاء تاما لأنها كانت آخذة بنظام الملكية المستبد الاستغلالى الرديب الذى كون طبقة غنية مترفة لها من الحقوق والامتيازات الطائلة الكثيرة مالا سبيل إلى غيرها للتطلع إليه والذى كون طبقة أخرى فقيرة معدمة كانت دوغرة الصدر شديدة المقت الملك وحاشيته ورجال الحكومة وحواريها من الأشراف .

يقول الأستاذ عبد الحميد العبادى فى كتابه صور من التاريخ الاسلامى (ونعود فنقول إن أعمال الناس مزاج من الخير والشر فإذا كانت سياسة

الأكاسرة تنطوى على خير كثير فإنها للأسف كانت تحمل فى ثناياها العناصر التى أدت فى النهاية إلى انتقاض أمرهم وضياع ملكهم فإن حملهم الشعب على اعتقاد أنهم يحكمون بتفويض من الله على حسب تصورهم له كان لا بأس به إبان قوة الأسرة الساسانية فلما اضمحلت وعراها الوهن والهرم من بعد كسرى أنوشروان لم يكن ممكنا أن يقوم رجل قوى فينتزع منهم السلطان وينقله إلى أسرة أخرى فتية ناهضة فإذا حدث أن رجلا قويا حدثته نفسه بذلك لقى الخذلان من الشعب على نحو ما حدث لبهرام جوبين فى أواخر القرن السادس ثم ان اتصال الدولة الزرادشتية والمبالغة فى رفع أقدار رجالها قد أدى فى نهاية الأمر إلى قيام طبقة كهنوتية متعصبة مستبدة لا تعرف الرفق بالناس فى مسائل الدين ولا التسامح نحو أهل الديانات الأخرى الذين كان منهم بإيران خلق كثير .

ثم إن التمسك بنظام الأسرة والملكية على النحو الذى كان عليه دون تعديل يطابق الظروف أدى إلى قيام طبقة أرستقراطية قليلة العدد واسعة الثروة كثيرة الامتيازات كما قسم الشعب طبقات متحاجزة تحاجزاً تاما أوغر قلوب الناس بعضهم على بعض . والواقع أن شيوعية مزدك إنما كانت احتجاجاً صارخا على ذلك النظام بصورته التى أصبح عليها فى القرن السادس الميلادى .

وكان اجتماع هذه العوامل فى نهاية القرن السادس مما أوقع الدولة فى الفوضى والارتباك وهى فوضى يكفى للتدليل عليها أن اثنى عشر ملكا جلسوا على سرير الملك فيما بين عامى ٦٢٨ ، ٦٣٢ أى فى نحو أربع سنوات ومن الاتفاقات العجيبة أنه فى تلك السنوات عينها أخذ العرب يخرجون من جزيرتهم غزاة فاتحين فلم يقو صرح الأكاسرة المتداعى على صدماتهم العنيفة فى ميادين القادسية وجولاء ونهاوند . وقضى آخر الأكاسرة وهو يزدجرد بن شهريار بقية أيامه شريداً مطروداً إلى أن اغتيل على يد رجل من أحقر رعيته عند مدينة مرو عام ٣١ هـ (٦٥١ م) فذهب بمصرعه على هذه الصورة المؤلمة مثلا واضحاً لجحود العامة وغرور الحياة .

أما الدولة الثانية وهى الدولة الرومانية فقد تأثرت أيضا فى تاريخها القديم بالفلسفة اليونانية التى حملها الأسكندر المقدونى فى كل حروبه وغزواته التى لم يكن الغرض منها استعباد الشعوب والسيطرة عليها بقدر ما كان يهدف اليه من نشر الفلسفة اليونانية وفرضها على الناس لتثقيفهم وتحضيرهم . ولقد تجلت روعة الفلسفة اليونانية فى روما فازدهرت ايما إزدهار وتأثر منها بنوها وأثروا فيها غاية التأثير ، وبفضلها قويت روما ونهضت وكونت امبراطورية ضخمة حتى قضت على استقلال اليونان وأدمجتها فى امبراطوريتها ادماجاً إلى أن أغارت عليها الأمم المتبربرة من ناحية . وغزاها المسيحيون من ناحية أخرى فكان ذلك إيذانا بأفول نجم هذه الحضارة الرومانية اليونانية الأصل لما فيها من وثنية ومن نظم كثيرة كنظام الطبقات ونظام الاستغلال الرخيص غير المشروع وكنظام الرق الذى كان عماد الاقتصاد الرومانى مما يتنافى ذلك كله ومبادىء المسيحية التى جاءت تدعو إلى المساواة والمحبة والسلام .

والتاريخ القديم لروما ينبئنا بأنها أسست دولتها فى القرن الثامن قبل الميلاد وكانت ديانتها الصابئة وظلت محافظة على هذه الديانة إلى أن ظهرت المسيحية واعتنقها أفراد من بنى إسرائيل وتسربت منهم إلى روما فآمن بها أول الأمر أفراد قليلون كانت تضطهدهم الحكومة وتكيل لهم العذاب ألوانا ولكن ذلك لم يصرفهم عن عقيدتهم حتى إذا جاء القرن الرابع الميلادى وكثر اتباع المسيحية كثرة ساحقة حملت (قسطنطين) امبراطور روما فى ذلك الحين على أن يتبع هذه الكثرة الساحقة ويعلن المسيحية دينا رسمياً للدولة ثم جاء بعده الأمبراطور (ثيودوسيوس) فحمل الشعب على اعتناقها بالحديد والنار وكانت قد أصبحت كل من الإمم المجاورة لروما مسيحية كمصر والشام وروسيا وغيرهم . وبذلك عادت روما إلى مجدها القديم وأصبحت هى العالم كله يحكمها قياصرة ذوو قوة وبأس وفخامة.

والمهم هو أن نعرف أن الدولة الرومانية ظلت مخلصة للفلسفة اليونانية متأثرة بها مؤثرة فيها محافظة عليها إلى أن أخذها منها العرب وأنقذوها من غارات

الأمم المنبوذة من ناحية ومن انتصار المسيحية عليها من ناحية أخرى .

هذا هو تاريخ روما القديم فى اختصار حتى سيادة المسيحية عليها فى القرن الرابع الميلادى .

وإذا كانت روما فى تاريخها القديم قد فاقت غيرها من الأمم فى الحنكة السياسية وقد برعت أيما براعة فى نظم الحكم وفى وضع القوانين حتى أثر عنها القانون الرومانى الذى ما زال مؤثراً حتى الآن فى حضارة العالم أجمع فإنها فى عهدها المسيحى قد حاولت أن تلون القانون بهذا الدين الجديد الذى اعتنقته ، وقد نجحت فى ذلك إلى حد ما بفضل عبقرية بنيها وبفضل عدم تدخل الكنيسة فى أمور الدولة حتى ذلك الوقت . ولكن بعد أن قويت الكنيسة ووطدت مكانها استغل رجالها ضعف الأمبراطوريات المتعاقبة فكانوا يتدخلون فى كل شىء ويرسمون القواعد للناس والحكومات فى كل شأن من شئون الحياة وأصبح البابا يلقب نفسه بخليفة الله فى الأرض وأن الأمبراطور وحكومته والناس جميعـــا هم رعاياه .

يقول الدكتور محمود سامى جنينه فى كتابه (القانون الدولى العام) صفحة ٥٦ - ٥٧ (على أن الواقع أن الدين المسيحى كان من طريق آخر عقبة فى سبيل نمو قواعد القانون الدولى العام) (أولا) لأن الرابطة التى كان يخلقها هذا القانون دينية قاصرة على الدول المسيحية ويخرج بذلك شطر كبير من أعضاء العائلة الدولية وهم الدول غير المسيحية (ثانيا) لأن روح السيادة العالمية كانت متسلطة على الكنيسة فكانت تتدخل فى شئون الدول الخارجية منها والداخلية ومثل هذه السيادة العالمية تتنافى مع استقلال الدول ومساواتها وإذن تتنافى مع وجود القانون الدولى العام فى شكله الحديث .

ويقول على ماهر بك (باشا الآن) فى كتابه القانون الدولى العام صفحة ٥٩ - ٦٠ (استخدم البابا نشاطه الدينى العظيم للتحكم فى تيجان الملوك والأمراء حتى أن هنرى الرابع ملك الرومانيين الذى توج أمبراطوراً وهو أقوى ملوك المسيحيين بأساً ذهب ذليلا خاضعاً إلى (كانوسا) سنة ١٠٧٧ م لاستعطاف البابا

(جريجوار) السابع واسترضائه لما أنذره البابا بأنه إذا لم يحضر إلى روما للتوبة عن خطاياه وعن سوء حكمه خلعه .

هذا الاذلال الذى بقى فيه هنرى الرابع فى الثلوج عارى القدمين فى فناء محكمة (الكونتس ما تلدا) بالقرب من ريجيو فى جبال أنبان منتظراً إذن القسيس بالدخول إليه ليغفر له ذنوبه لم يبق بعده هيبة للتاج ولم يتسن بعده للامبراطور أن يدعى أنه الرئيس الأعلى فى العالم ولا أنه غير مسئول إلا أمام الله وعلى الضد من ذلك أدعى البابا النيابة عن الله فى الأرض وافرد السلطة الروحية بالسلطان كما ادعى أن الجنس الإنسانى رعاياه ، وأن الملوك مسئولون أمامه، وأن له خلعهم لأنه هو الذى يوجههم» انتهى

وان الدارس لهذه الفترة من سيادة المسيحية وهى التى ابتدأت من القرون الوسطى إلى نهايتها ليتملكه العجب وتملأه الدهشة لأن رجال الكنيسة كانوا يفرضون سلطانهم الأوتقراطى على الشعوب والأمم وكانوا يتخذون لذلك من ألوان العذاب و لاضطهاد والطغيان ما لم يحدث فى تاريخ البشر على الاطلاق فكانوا يفرضون رقابة شديدة على حياة الناس وعلى أفكارهم وعقولهم وحسبك على ذلك أن تقرأ التاريخ الاسود لمحاكم التفتيش هذا التاريخ الذى يحمل لك بطش الكنيسة وبشاعتها وتعنتها وأنها كانت حجر عثرة فى سبيل التقدم الانسانى وفى القضاء على كل نزعة حرة تجديدية من غير ترو ولا شفقة وبوسائل غاية فى الوحشية والجهالة والظلم حتى كان من ضحاياها العالم الفلكى (جوليليو) الذى حكمت عليه محكمة التفتيش بأن تحرق جثته وهو حى لما نادى بدوران الأرض وكان ذلك كله باسم الديانة المسيحية التى من أول مبادئها الصفح والرحمة والمغفرة والإيثار (وإذا ضربك أخوك على خدك الأيمن فأدر له خدك الأيسر).

هذا الاضطهاد المروع الذى كان يلاقيه البشر ويلاقيه بنوع خاص العلماء والفلاسفة الأحرار مما يتنافى مع المسيحية الحقة ومع أى دين سماوى آخر هو الذى كان من العوامل التى أخرت المعرفة الأنسانية وكادت تقضى على المدنية البشرية وكان العالم كقطيع من الأغنام يساق سوقاً دون اعتراض ولا إدراك . وظهرت

الكهنوتية المسيحية بشكلها الاستغلالى الجبار وأصبح كل قسيس من رجال الكنيسة ينادى بأنه ممثل الله فى الأرض بيده السلطة للتوبة وغفران الذنوب وبيده منح الثواب والسعادة فى الآخرة واضحت هذه السلطة فى يده كتجارة رابحة يستكثر بها الأموال ويقتنى القصور والضياع ويعيش فى ترف ولذة واشباع لشهواته النهمة الجامحة رغم ماكان يقاسيه رعاياه من ظلم وفقر وجهالة وماكان يسود حياتهم وعقولهم من انحطاط وظلام .

وإذا ما تعمق الباحث فى الأسباب التى كونت هذه السلطة فى أيدى رجال الكنيسة وفى خضوع الحكام لهم وموافقتهم على كل ما يتلون من أوامر وما يصدرون من أحكام إذا ما فكر الباحث وتعمق فى ذلك يجد أن الدين المسيحى لم يتعرض لا فى جملته ولا تفاصيله لرسم نظم ولا قوانين ولا حدود لشئون الناس يقننون عندها ويحكمونها فيما ينشأ بينهم من اختلافات ثم شىء آخر وهو هذا النظام الكهنوتى الذى اصطنعته المسيحية وهو الواسطة بين الله وبين مخلوقاته

من ذلك نشأ استبداد رجال الكنيسة ونشأ معه اضمحلال المعرفة الانسانية فى شتى فروعها .

هذه هى حالة الفرس وحالة الروم قبيل ظهور الاسلام بل هذه هى حالة الانسانية كلها لأن هاتين الدولتين كانتا فى الواقع الممثلتين للعالم الانسانى جميعه بحكم ماكونته كل منهما من تراث مجيد وما اكتسبته من حضاره تأثر بها غيرهما من الأمم والشعوب .

والذى يعنينا الآن أن ننظر اليهما فى هذه المرحلة التى ذكرناها والتى سبقت ظهور الاسلام .

أن ننظر اليهما فاحصين متدبرين سائلين : هل ماكان يسود الدولة الأولى من فقر فى الاخلاق ومن انعدام للعدالة الاجتماعية والعدالة القانونية مما يتفق ومصلحة الانسان وهل ماكان يسود الدولة الأخرى من هذا النظام الكهنوتى الذى يخلق الطبقات خلقا ويشجعها وينميها ويجعل بين الانسان وبين خالقه واسطة . يجب أن يعترف لها بالخطايا وأن يطلب منها هى العفو والتوبة

والمغفرة ... ! هـذا النظـام الـكهنوتى الذى فهمته الدولة الرومانية أسـوأ فهم . والذى استخدمته الـكنيسة أشنع استخدام حتى كان وسيـلة كما قلت للتجارة وللربح الرخيص .

هل هذا أيضا مما كان يتفق مع تحضر الانسان وتطوره وأخذه بحظ يذكر من نضوج العقل وتفتح البصيرة وقوة الإدراك .

اللهم لا . واللهم إن الانسانية كانت فى أمس الحاجة إلى هذه المبادىء والنظم وقواعد الأخلاق التى حملهـا الاسلام للعـالم فقومت من أخلاقه وقوت من بذور التقدم والتحضر فيه .

إننا عندما نذهب فى دراستنا إلى الجزيرة العربية ونعلم أى حياة كان يعيشها العـرب من جهـالة وكسـل وخمـول لا دولة تربطهم ولا قانون ينظم حياتهم ويخضعون له فى معاملة بعضهم بعضا اللهم إلا تقاليد قبائلهم المتنافرة المتنابذة المتخاصمة لأوهى سبب من الأسباب

هؤلاء القوم الضاربون فى هذه الصحراء القاحلة الجدباء والذين كانوا ذا نعرة جاهليـة وذا عصبية متعصبة لتقـاليدهم وما كانوا عليه من بداوة وتأخر وانحطاط كيف استطاع الإسلام أن يغزو قلوبهم ويسيطر عليها . وأن يجعل منهم هداة ومرشدين ومحضرين للعالم أجمع ومرتفعين به إلى أسمى مراتب التقدم والتمدين ان لم تكن فيه عناصر قوة وعناصر حق وعناصر تقدم وصلاح .

يقول الفيلسوف الأنجليزى توماس كارليل .

« إن فى الإسـلام خلة أراها من أشرف الخلال وأحبها وهى المساواة بين الناس أمام الدين .

والإسلام لا يكتفى بجعل الصدقة سنة محبوبة بل يجعلها فرضا على كل مسلم وقاعدة من قواعد الإسلام ويقدرها بالنسبة إلى ثروة الرجل فتكون جزءا من أربعين من الثروة تعطى للفقراء والمنكوبين والمساكين .

وما هذا إلا صوت الانسانية . صوت الرحمة والاخاء يصدر من فؤاد ذلك الرجل ابن الصحراء »

ويتحدث فى موضع آخر عن أثر الإسلام فى حياة العرب .

« لقد أخرج الله العرب بالإسلام من الظلمات إلى النور فقد كانت فئة من جرالة الأعراب تجوب الفلاة منذ بدء العالم لا يسمع لها صوت ولا تحس منها حركة فأرسل الله هذا النبي برسالة من عنده فإذا الخمول قد استحال شهرة . والغموض نباهة . والضعف قوة وما هو إلا قرن بعد هذ الحادث حتى اصبحت لدولة العرب قدم فى الهند وقدم فى الأندلس وأشرقت دولة الاسلام قرونا طويلة على نصف المعمورة » انتهى

وهكذا نحب أن نتعرض هنا بعض الشىء لدراسة مبادىء الاسلام مما يحتاجه هذا الفصل من الكتاب لنبرهن على أن الانسانية كانت مفتقرة الى هذه المبادىء وكانت فى حاجة شديدة ملحة الى من يحملها اليها ويرشدها عنها .

وأول شىء يبرز لنا من هذه المبادىء التى كانت الانسانية متلهفة عليها المساواه بين الناس كافة فى الحقوق والواجبات والتقارب والتآلف بين أفراد الانسانية جميعا . يقول القرآن الكريم (يأيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا ان أكرمكم عند الله أتقاكم) ويقول رسول الاسلام (لا فضل لعربى على عجمى ولا لأبيض على أسود الا بالتقوى) ثم يقول مرة أخرى (لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه)

أنظر معى الى هذا المبدأ الذى نادى به الاسلام ثم أنظر الى ما كان يكتنف الانسانية ولا أقول فى عهود انحطاطها وجهالتها . وانما فى العهود التى بلغت فيها شأوا كبيرا فى المعرفة والادراك . أنظر الى ما كان يسودها من حب للسيطرة وللإستعباد . والتسخير لأفراد من البشر بدعوى أن ذلك مما يقره الله ويدعوهم اليه .

يقول على ماهر فى كتابه سالف الذكر (القانون لدولى العام) صفحة ٥٥ (كان ارسطو يرى أن الخالق أوجد البرابرة لأن يكونوا أرقاء ويعد من

الأعمال الشريفة محاربتهم لسلب ثروتهم واسترقاقهم فغير اليونانيين اعداء خوارج على القانون . اخضاعهم واجب سياسى على اليونان لذلك كانوا فى حروبهم معهم غاية فى الخشونة والوحشية فإذا انتصروا قتلوا الجنود المهزومة وضربوا المدن واسترقوا سكانها)

ثم يقول فى صفحة ٥٧

(كان القانون الرومانى هو الذى يحدد حقوق الأمم المغلوبة وواجباتها وكانت سياسة مجلس الشيوخ نحو الدول الأخرى قاسية وكانت الحروب كلها للإستعباد والفتح لبسط السيادة على العالم ولما كانت سياسة المملكة الرومانية لا تلائمها علاقات دولية سلمية كان عدم وجود قانون دولى مسببا عن الوجهة السياسية الرومانية لا عن عجز النظريات العلمية فان فقهاء الرومان الخالدين أمثال (بابينيان . وأولبيان . وأفريكان) الذين وضعوا القانون المدنى المستمدة منه الشرائع الحديثة لم يكن من المتعذر عليهم أن يضعوا قواعد القانون الدولى العام اذا كان ذلك لا يتنافى مع فكرتهم فى سيادة العالم المعروف كله) انتهى

نقابل ذلك بما حمله الاسلام للعالم من المساواة المطلقة بينه وبين بنيه فكان المسلمون اذا ما فتحوا بلداً خيروا أبناءه بين أن يعبدوا الله ويتبعوا رسوله الكريم ويسيروا على تعاليمه السامية وما رسمه لهم من مثل عليا فمن نطق بالشهادتين وأسلم واتبع الهدى فله كل الحقوق التى للمسلم وعليه كل الواجبات أما من تخلف فليس عليه الا أن يدفع الجزية لبيت مال المسلمين وهو آمن على ماله مطمئن على حياته وزوجه وأولاده فى كنف الحكومة الاسلامية .

ولعل أبلغ مثل لما كان يلقاه غير المسلمين من رعاية لحقوقهم ومن عدل لقضاياهم ما حدث فى عهد الخليفه الثانى عمر بن الخطاب فلقد تسابق ابن والى مصر عمرو بن العاص مع ابن قبطى من أهل مصر فسبقه ابن القبطى فاغتاظ ابن عمرو وضرب ابن القبطى بالسوط وقال له أنا ابن الأكرمين فنمى الخبر الى عمر بن الخطاب فأرسل فى طلب عمرو وابنه ثم أتى بالسوط وأعطاه لابن القبطى وقال اضرب به ابن الأكرمين ثم التفت الى عمرو وقال كلمته المأثورة

(متى استعبدتم الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحراراً)

ثم انتظر معى قليلا أزيدك شيئا من هذه السماحة ومن هذه الروعة والقوة في المساواة التى حملها الاسلام للناس.

شكا يهودى على بن أبى طالب إلى عمر فى خلافته فلما مثلا بين يدى أمير المؤمنين نظر إلى على وقال له : أجلس يا أبا الحسن . فظهرت آثار الغضب على أسارير وجه على فقال له عمر : أكرهت ياعلى أن يكون خصمك يهوديا وأن تمثل وإياه أمام القضاء فقال على : لا ولكنى غضبت لأنك لم تسو بينى وبينه بأن كنيتنى فقلت يا أبا الحسن (والتكنية التعظيم)

وانتظر معى مرة أخرى أروى لك هذا الحدث الفذ .

تقاول أبو ذر الغفارى وعبد زنجى فى حضرة النبى صلى الله عليه وسلم فاحتد عليه أبو ذر وقال له: يابن السوداء . فغضب رسول الله صلى عليه وسلم وقال «طف الصاع طف الصاع ليس لابن البيضاء على ابن السوداء فضل الا بالتقوى أو بعمل صالح » فوضع عند ذاك أبو ذر خده على الأرض وقال للأسود قم فطأ على خدى وذلك تكفيراً عن ذنبه .

ليحدثنا أحد هل هناك مثل عليا للمساواة والعدالة الانسانية أبلغ وأنبل وأروع من ذلك ، وهل هذه الصفات من الفضائل والأخلاق التى أكسبها الاسلام لأبنائه وحملوها هم ليبثوها فى كل مصر من الأمصار أو قطر من الأقطار يفتحونه مما كانت تحتاجه الانسانية وتحتضنه وترتمى عليه أم تنكره وتفر منه

ثم أنظر الى ماكان يسود المجتمع الانسانى من هذا النظام الذى حملته الديانة المسيحية والذى كان آخذاً بخناق الانسانية يكاد يقتلها ويجعلها تلفظ نفسها الأخير وهو نظام الكهنوتية الذى يخول للقسس والرهبان السلطة فى فرض الأوامر والنواهى لأنهم الممثلون لله فى الأرض أنظر الى هذا النظام الذى كان ينكر ويقتل روح الاباء والشمم والقدرة والامل فى الانسان وما يقابل ذلك فى الاسلام من أن يقول الله فى كتابه الكريم « لا اكراه فى الدين قد تبين الرشد من الغى» ثم يخاطب نبيه المرسل وحامل رسالته الى البشر بقوله « إنك لا تهدى من أحببت ولكن الله يهدى من يشاء » ويقول فى موضع آخر

« فذكر إنما أنت مذكر لست عليهم بمسيطر » ثم يأمره بقوله « خذ العفو وأمر بالعرف وأعرض عن الجاهلين » — « أدع إلى سبيل ربك بالحكمه والموعظه الحسنة وجادلهم بالتى هى أحسن »

وعن أبى هريرة قال :-

« قام رسول الله صلى الله عليه وسلم حين أنزل الله « وأنذر عشيرتك الأقربين » قال يا معشر قريش اشتروا أنفسكم لا أغنى عنكم من الله شيئاً . يا بنى عبد مناف لا أغنى عنكم من الله شيئا يا عباس بن عبد المطلب لا أغنى عنك من الله شيئا ويا فاطمة بنت محمد سلينى ما شئت من مالى لا أغنى عنك من الله شيئا »

ومع ذلك فلن نكتفى بهذا وانما سننقل لك فصلا كاملا يصور حالة الانسانية قبل ظهور الاسلام كتبه فليسوف فرنسى هو المسيو جول لا بوم لترى الى أى حد كيف كانت الانسانية متعطشة الى مبادى الاسلام ونظمه وتعاليمه ولترى الى أى حد كيف كان الاسلام عاملا من عوامل التقدم والارتقاء للأمم التى استظلت به أو استمدت منه أعظم عناصر قوتها ونهوضها .

قال المسيو جول لا بوم :-

«١» حوالى ميلاد محمد فى القرن السادس الميلادى كان جو العالم ملبدا بغيوم الاضطرابات والفتن فكان شعب « الويزيغو » الآريين فى أسبانيا وفرنسا يصاولون الملك « كلوفيس » وأولاده الكاثوليكيين فكانوا من أجل ذلك يطلبون مساعدة امبراطور مملكة الرومان الشرقية المدعو « جوستنيان » ثم اجبروا الى الدخول معه فى حرب جديدة تخلصا من سلطة القواد الذين جاءوهم بتلك المساعدة . فقد كانوا يزعمون أن لهم حق الفاتحين لا مجرد ولاء المساعدين المأجورين .

« أما فى فرنسا نفسها فكان أولاد كلوفيس هذا متغادرين متسافكين . كانت الحروب التى شبت بين المملكة الويزيغوتية (برنهو) والمملكة الفرنكية

---

(١) ترجمة الكاتب الفيلسوف الأستاذ محمد فريد وجدى .

(فريد يجوند) تهيء للتاريخ أشد الصحائف اثارة للأسى والكمد .

« أما فى انجلترا فكان الانجلو ينازعون الساكسونيين الأرض التى احتلوها واستعبدوا فيها ذرية (كيميريس) وهم أقدم المغيريد على تلك الجزيرة التى تتطلع اليوم للوقوف فى مقدمة الأمم علما وصناعة وقوة . وهى التى كانت فى ذلك العهد مجالا للقوة الوحشيه السائدة فى تلك الغياهب الحالكة »

« أما فى ايطاليا فكان اسم الرومان . وهو ذاك الاسم الشامخ قد فقد قيمته القديمة وكانت رومية وهى الشطية الأخيرة أو رأس ذلك التمثال الكبير المتهشم (يعنى مملكة الرومان) فى حالة تململها من استحالة أمرها الى مركز دينى بسيط ترتج وتضطرب كلما ألم بها طائف من ذكر عظمتها القديمة أيام كانت مركزاً دينيا أصليا . فكانت تهيء نفسها لأن تكون مركز البابوية وهى تلك السلطة الزمنية كما اقتضت سياسة « شرلمانى » أن يجعلها كذلك بعد قرنين من الزمان ولكنها مع ذلك لم يسعها الا حمل نير « الهير وليين » و « الاستروغوتيين » وبراطرة المملكة الرومانية واللومبارديين الذين تداولوا السلطة عليها تداولا .

« أما المملكة اليونانية فكانت قد نسيت مجدها القديم فصارت تابعة لمملكة الرومانيين الشرقية . مثلها منها كمثل الزينة ذات الضوضاء . وكان شرق أوربا مقلقا جنوبها من أول مصاب نهر الرين من جهة الشرق فكان الأسكنديناڤيون والنورفيجيون والدانيما ركيون يتزاحمون فى الطريق الذى سلكه الغويتون والهوينون الذين احتلوا تراقيا ومقدونيا ولومبارديا وإيطاليا سواء بالقوة أو بالخديعة .

« فى ذلك الوقت بدأ ظهور الأتراك من أعماق آسيا الصغرى وهى تلك الأمة التى قصرت فيما بعد مملكة اليونان على أسوار القسطنطينية »

التصوير البديع الذى جادت به قريحة المسيو رينان لبيان عن مركز الامبراطورية الرومانية فى القرن الأول من التاريخ المسيحى لا علاقة له بالتصوير الممكن عمله لتجلية حال أوربا فى القرن السادس . تلك كانت مفاسد قيصرية مختمرة أما هذه فوحشية حربية تلعب بالأرواح وتتمرغ فى الأوحال .

« أما آسيا فلم تكن أهدأ بالا من أوربا فى شىء فمملكة تيبت والهند التى اقتبست منها الأمم السائدة فى أوربا الآن قرائحها وأفكارها العامة ولغاتها . والصين التى تعد مسألتها أغرب المسائل السياسية والفلسفية وبالاختصار أغرب المسائل الاجتماعية كانت هذه الممالك كلها متمزقة الاحشاء بالحروب الداخلية والخارجية المتضاعفة بالمنازعات الدينية .

« أما السفح الشمالى من الهضبة الاسيوية العالية التى هى فى حوزة الروسيا الآن فكانت غير معروفة على الاطلاق »

« أما مملكة الفرس التى كانت أحوالها مرتبطة بأحوال الغرب وبخاصة من لدن تجريدة الاسكندر المقدونى فكانت مشتبكة فى حرب مع اليونان الرومانيين فى القسطنطينية الذين كانوا أصحاب السلطة على آسيا الغربية »

« أما فى أفريقيا فكان دخلاء اليونان الرومانيين أنفسهم وهم أخلاط من جنود وتجار وحكام مجموعون من آفاق مختلفة دائبين على امتصاص دم مصر وعاملين على جعل مصر العلمية ذات المجد القديم كالجثة المصبرة عادمة الحس والحراك . وكان هذا شأنهم أيضا فى الأقاليم الخصبة وقتئذ الواقعة فى الجهات الشمالية من أفريقيا التى انتزعوها من أيدى الفنداليين »

« الخلاصة كان جو العالم الأرضى متلبداً بسحب الاضطرابات الوحشية فى كل مكان . وكان اعتماد الناس على وسائل الشر أكثر من اعتمادهم على وسائل الخير وكان أجمع الرؤساء للثقة والطاعة أشدهم صيحة فى إصلاء نيران الحروب والمعارك ولم يكن يأخذ بعواطف القلوب ولا يؤثر عليها تأثيراً حاداً وإن كان وقتيا الا شىء واحد هو الغنيمة وسلب الأمم والشعوب والمدائن والأعيان ورجال الحروب وفقراء الحراثين بسطاء والمتسولين ولولا شعاع ضئيل من الحكمة كان يتألق فى بعض صوامع الكهنة ، وبعض الجراثيم الفلسفية التى كانت بمعزل عن أعاصير تلك المشاغب وانتقلت من روح إلى روح أخرى بوساطة بعض أصحاب الجرأة من رسل الرقى فى المستقبل لكانت البربرية أسرعت فى خطاها مقودة بغطرسة زعماء الهمجية واستحالت الى وحشية مضة

« مع هذا كله كان هنالك ركن من أركان الأرض لم تصبه لفحة من هذه الحركة . ولكن لم يكن ذلك لحكمة أهله ورجاحة عقولهم وإنما كان بسبب موقعهم الجغرافى البعيد عن مضطرب الأمم التى كان يقال أنها متمدينه .

ذاك الركن هو شبه جزيرة العرب التى ما كانت تسمع إنفجار أعاصير تلك الفتن الهائلة فى أوربا إلا من بعد وما كان يصلها ذلك اللغط إلا غاية فى الضعف والضئولة . وكانت تجهل وجود الهند والصين فلم تك تتعدى علاقاتها مع آسيا حدود بلاد الفرس ولم تعرف لديها الفرس إلا من أخبار الإنتصارات والهزائم التى كان من ورائها رد بعض الوديان الغربية القريبة من روسيا إلى تبعية امبراطرة القسطنطينية تبعية إسمية أو رفع نير تلك التبعية الإسمية عنها . على أن ذلك الوادى الأخير كان يهم بلاد العرب جداً لأن أبناءها كانوا يذهبون إليه للتجارة ، وكان لها فيه أبناء استعمروا الشـــاطىء الغربى من نهر الفرات وصعدوا يسيراً يسيراً إلى بحر قزوين ومما يشبه المساتير الدينية أنها بقيت منفصلة عن مصر التى أغار على جنوبها العرب الرعاة ولم ينجلوا عنها تماما إلا بعـــد أن انجلى عنها بعض إخوانهم المتأخرين وهم الاسرائيليون تحت قيادة موسى حينما استرد المصريون السلطة وعاملوهم معاملة البهائم »

« أما المملكة الوحيدة التى كان بينها وبين العرب صلة وعلاقة فهى بلاد الحبشة . أما الجهة الشمالية من أفريقيا التى أغاروا عليها مرتين والتى كانت بجانبهم نقطة النزاع بين الرومانيين والقرطاجنيين وبين يونان القسطنطينية والفنداليين . فكانوا لا يحلمون بوجودها »

ثم قال المسيو (كوسان دوبرسو) قال فى كتابه تاريخ العرب :-

« إن المتحضرين من عرب البحرين والعراق كانوا خاضعين للفارسيين أما المبتدون منهم فكانوا فى الواقع أحراراً لا سلطة لأحد عليهم وكان عرب سورية دائنين للرومان . أما قبائل العرب الوسطى والحجاز الذين ساد عليهم التبابعة وهم ملوك بنى حمير سيادة وقتية فكانت تعتبر أنها تحت سيادة ملوك الفرس ولكنها فى الواقع كانت متمتعة بالاستقلال الكامل »

ثم تابع المسيو جول لابوم القول فقال : (ولم يكن العرب أحسن استعداداً من غيرهم لقبول أى دين من الأديان قال المسيو (دوزى) فى كتابه تاريخ عرب أسبانيا : « كان يوجد على عهد محمد فى بلاد العرب ثلاث ديانات : الموسوية . والعيسوية . والوثنية . فكان اليهود من بين أتباع هذه الأديان أشد تمسكا بدينهم وأكثرهم حقداً على مخالفى ملتهم. نعم يندر أن تصادف اضطهادات دينية فى تاريخ العرب الأقدمين وما وجد منه فمنسوب إلى اليهود وحدهم . أما النصرانية فلم يكن لها أتباع كثيرون . وكان المتمذهبون بها لا يعرفونها إلا معرفة سطحية . وكانت هذه الديانة تحتوى على كثير من الخوارق والأسرار بحيث يعز أن تسود على شعب حى كثير الاستهزاء . أما الوثنيون الذين كانوا هم السواد الأعظم من الأمة فكان لكل قبيلة بل وأسرة منهم آلهة خاصة والذين كانوا يصدقون بوجود الله تعالى ويعتبرون تلك الآلهة شفعاء فقد كانوا يحترمون كهانهم وأصنامهم بعض الاحترام ولكنهم مع ذلك كانوا يقتلون الكهان إذا لم يتحقق أخبارهم بالمغيبات أولو عولوا على فضحهم عند لأصنام قربوا لها ظبية بعد أن ندروا لها نعجة وكانوا يسبون أصنامهم إذا لم تنلهم مطالبهم ولم تسعفهم بآمالهم »

وقال المسيو (كوسان دوبرسو) قال : « من العرب من كانوا يعبدون الكواكب وبخاصة الشمس فكنانة كانت تدين للقمر والدبران وبنو لخم وجرهم كانوا يسجدون للمشترى وكان الأطفال من بنى عقد يدينون لعطارد وبنو طىء ألهوا سهيلا وكان بنو قيس عيلان يتوجهون للشعرى اليمانية وكان علمهم بما وراء الطبيعة على نسبة آرائهم الدينية »

وقال المسيو كوسان المذكور أيضاً « كان من العرب من يعتقد بفناء الانسان إذا خلعته المنون من هذا العالم . ومنهم من كان يعتقد بالنشور فى حياة بعد هذه الحياة . فكان هؤلاء الأخيرون إذا مات أحد أقربائهم يذبحون على قبره ناقة أو يربطونها ثم يدعونها تموت جوعا معتقدين أن الروح لما تنفصل من الجسد تتشكل بصورة طير يسمونه الهامة أو الصدى وهو نوع من البوم لا

تبرح ترفرف بجانب قبر الميت نائحة ساجعة تاتيه بأخبار أولاده . فإذا كان الفقيد قتيلا تصيح صداه قائلة (اسقونى) . ولا تزال تردد هذه الكلمة حتى ينتقم له أهله من قاتله بسفك دمه »

قال المسيو لا بوم بعد إراده هاتين العبارتين عن الأستاذين المذكورين « وكانت طباع العرب وأخلاقهم لا تدل الناظر إليها إلا على أنهم شعب لا يكادون يجوزون العقبة الأولى من عقبات الإجتماع . لو لم تكن الأسرة عندهم بل والقبيلة تهتم إهتماماً عظيما بحفظ سلسلة نسبها ولو لم يكن إدراكهم للقوانين وسعة لغتهم داعياً إلى الإلتفات بنوع خاص »

ثم قال :- قال المؤلف المحقق الذى اقتبسنا منه أكثر هذه التفصيلات المتقدمة « كان العرب مغرمين بشرب الخمر ويوجد من الشعر ما يدل على أنهم كانوا يفخرون ويعجبون به و بلعب الميسر وكان من عوائدهم أن الرجل له أن يتزوج ما تسمح له به وسائله المعيشية . وكان له أن يطلقهن متى شاء هواه . وكانت الأرملة تعتبر من ضمن ميراث زوجها . ومن هنا نشأت تلك الإرتباطات الزوجية بين أولاد الزوج ونساء الأب وقد حرم ذلك الإسلام وعده زواجاً ممقوتاً . وكان لديهم عادة أفظع من كل ما مر وأشد معارضة للطبيعة وهى وأد الأهل لبناتهم أى دفنهم أحياء »

« هذا كله لا يشير إلى أن العرب لم يكن فيهم أى جرثومة خلقية صالحة يمكن تقويمها وتهذيبها فقد كانوا يحبون الحرية حباً جما ويمارسون فعائل الكرم و بذل القرى »

« الأفراد الذين كانوا تابعين لأمم أرقى من الأمة العربية والذين كانوا مبعثرين هنا وهناك من جزيرة العرب كانوا قليلى العدد جداً ولا يظهر أنهم كلفوا أنفسهم الدعوة إلى مللهم فاليهود الذين كانوا متشبعين بالأثرة على مثال الصينيين واليابانيين والمصريين لا يرى منهم إلى اليوم خاصة التأثير على غيرهم إلا بالخضوع لقوانين الأمة التى يشتغلون تحت ظل حمايتها بالأمور المالية ولئن شوهد أنهم أدخلوا إلى ملتهم بعض العرب فلم يك ذلك إلا نتيجة بسيطة لاشتراكهم فى

الأساطير التاريخية وهو إشتراك يدل على قرابة قريبة بين الأمتين تلك القرابة يستدل عليها أيضا بتساويهم فى حب الكسب وتآزيهم فى الاستعداد لعدم الأنفة من سلوك أى طريق من الحيل والمكر لنيل كسب أو حطام ولا ينتظر أن يكون من نتيجة الاجتماع بهذه الاعتبارات أدنى ترق أدبى أما المسيحيون فكانوا يغدون شيئا فشيئا إلى بلاد العرب هربا من الاضطهادات الدينية التى كانت فى المملكة الرومانية . ولكن لم يكن فى حالهم نور يلفت البصر تألقه وفى حالة مسيحى الحبشة اليوم نموذج لذلك . فإنه لا يمكن أن يتحلى الانسان بمدركات العقائد السامية من دين بمجرد التسليم بنص تلك العقائد .

« فى عهد هذه الأحوال الحالكة . وفى وسط هذا الجيل الشديد الوطأة ولد محمد بن عبد الله فى ٢٩ أغسطس سنة ٥٧٠ م » إنتهى

وهكذا يرجع الباحث إلى التاريخ . وإلى مراحل التطور البشرى فيجد شهادة صادقة على معجزة هذا الدين وعبقريته وما كان يحمله من بذور التقدم وعناصر الحيوية والتحضر والارتقاء .

بل هكذا يرجع الباحث إلى المنطق وإلى العقل فيجد أن هذا الدين كان من ألزم اللوازم للإنسانية بعد ما بلغته من وعى وإدراك . وأنه فى مبادئه وقواعده وتشاريعه كان يخاطب العقل والمنطق . وكان يحتفل بحياة الانسان فيقرر له النظم ، ويرسم له القواعد ويخطو به فى حياته التى يحياها إلى أفق سامية من مجالى الرقى والتحضر .

هذا الدين الذى آمن بالانسان وما كمن فيه من خير وامتياز فكان يخاطبه بالعقل والمنطق . ولم يجعل بينه وبين خالقه واسطة أو حاجزاً أو حائلا .

هذا الدين عندما يقف أمامه الفكر الحر . وعندما يحاول إدراك مغزاه الباحث النزيه وما كان يهدف له من مبادىء ويرمى إلى تحقيقه من مثل عليا لا يتمالك نفسه من أن يقرر فى غير تحفظ بأن هذا الدين كان مكملا فى الحقيقة لما سبقه من أديان سماوية وأن نزوله على بنى البشر كان من دلائل العبقرية والاعجاز للدعوات الالهية .

فالديانة اليهودية لم تحتفل بالإنسانية فى مجموعها ولم تنشد التعاون أو العدل بين بنيها وغيرهم من الناس وإنما جعلت قومها هم شعب الله المختار لهم إمتيازات لا حق لغيرهم فى التطلع إليها .

أما الديانة المسيحية فلم تحفل إلا بالناحية الروحية فى الانسان وكان من أخص خصائصها هـذا النظام الكهنوتى الذى استخدم هذا لاستخدام المسف البغيض فلم يعترف بالفرد ولا بالجماعة ولم يؤمن بالعقل ولا بالانسان من حيث هو كائن ممتاز .

أما الاسلام فلن نفسره بأكثر مما قاله مستشرق انجليزى يدين بالمسيحية قال (الاسلام مدنية كاملة لو وجدنا مقابلا له قلنا العالم المسيحى ولم نقل المسيحية)

أو مما قاله جيته الشاعر الألمانى بعد أن ألم بمبادىء الاسلام قال (إذا كان هذا هو الاسلام أفلسنا كلنا ندين بالاسلام)

هذا الدين الذى اعترف بما سبقه من أديان سماوية وجاء جامعاً شاملا مليئا بما تترقبه الانسانية ويتفق مع مقدار ما بلغته من نضج وإدراك من الأنصاف والعدل أن تعترف بأنها كانت فى أشد الحاجة إلى مبادئه وما دعاها إليه من رفعة وسمو وامتياز ؟

الاسلام بين الديانات

من الأمور السهلة اليسيرة على الكاتب الذى يبحث عن مكانة الاسلام بين الأديان أن يقف عنـــد هذه المكانة دون لف ودوران . ودون تأويلات وتخريجات ودون أن يحمل نفسه ويحمل قراءه معه مشقة الجدل وعسر الاستقصاءات لأن مكانة الاسلام بين الديانات المنزلة والديانات غير المنزلة ظاهرة ساطعة غاية فى الوضوح والجلاء .

وإذا كان علماء مقارنة الأديان يقررون أن الأديان جميعها يجمعها رباط واحد وتستمد وجودها وحياتها من نبع واحد وتتفق وما تدعو إليه من حب وإيثار ورحمة للإنسان حتى أن الدوس هكسلى الفيلسوف الأنجليزى المتصوف يقرر فى كتابه الفلسفة الدائمة أن الأديان جميعهـــا تهدف إلى تحقيق هذه الرحمة والايثار للناس جميعا لأن الاسلام يقول (لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه) والمسيحية تقول (عامل الناس كما تحب أن يعاملوك) واليهودية تقـول (لا توقع ما يؤذيك بالنـاس ذلك هو لب التـوراة وبقيته تعليقات) والبوذية تقـول (لا تفرض على النـاس ما يؤلمك) والكونفشية تقول (لا تنزل بالناس مالا تحب أن ينزلوه بك) والهندوسية تقول (لاتحدث بالناس ما قد يسبب لك الألم إذا حدث لك) إنتهى

ولـكن ذلك كله لن يحملنا على أن نصدق أن الأديان جميعها صور مكررة فى جوهرها ومبادئها ومناهجها ودعواتها لشىء واحد لأن ذلك يقتضينا أن نلغى التاريخ وأن نلغى سنة التطور البشرى بل نلغى عقولنا فلا نستطيع أن نحكمها فيما كانت تستسيغه البشرية وتهضمه فى طـور من حيـاتهـا بعد طور آخر ومن تطور فى الوعى والادراك إلى تطور نحو المعرفة والنضوج العقلى .

وأصدق ما نقوله فى هذا الموضوع أننا لا نستطيع أن نغفل عن مراحل

التطور البشرى إذا أردنا أن ندرس تاريخ تطور الأديان وما تحمله من مبادىء ونظم وعقائد وآراء لأن هذه الأديان وصفاتها تسير جنبا إلى جنب مع المراحل التى كان يجتازها البشر فى طريق تعقلهم وتحضرهم .

ولقد اصطنعنا نحن هذا الأسلوب العلمى المعتمد على التاريخ فى بحثنا عن كيفية تطور العقيدة فى الانسان فى فصل سابق فى هذا الكتاب وهو (هل الدين لازم للبشر) واستنتجنا معتمدين فى ذلك على الأساطير وعلى التاريخ : إستنتجنا أن العقيدة كانت تتشكل فى الانسان وتتميز فيه مع مقدار ما بلغه من وعى ورقى وإدراك . وإذاً فلا مفر لنا عندما نبحث عن مكانة الاسلام بين الأديان من أن نتعرض لدراسة البيئات التى أنزلت فيها هذه الديانات وأن نتخلل صفوفها ونتعمق إلى أغوارها لنستظهر ما كان يسودها من تقاليد وعادات وأخلاق وما كان يختمر فيها من جراثيم التقدم والرقى ، والتعطش إلى إدراك نواح جديدة من المعرفة الانسان .

وإذا كنا سنتكلم فى هذا الفصل عن مكانة الاسلام بين الأديان فليس علينا من حرج فى أن نختصر الكلام على الديانة اليهودية والمسيحية فقط وذلك لسببين وجيهين (أولا) لوفرة الديانات الوضعية وتشعبها وكثرتها كثرة ساحقة وعدم حصرها والالمام بها جميعها لضياع أكثر أصولها ومعالمها ولأن واحدة من هذه الديانات لم يعترف بها كدين عالمى مثل الأديان الكتابية (ثانيا) لأن الاسلام دين سماوى ومقتضيات البحث تفرض علينا أن نقارنه بأديان سماوية حيث يتوفر التشابه والتكافؤ والعدل فى ميزان المقارنة .

وعلى ضوء ذلك سنتعرض أولا لدراسة الديانة اليهودية ثم الديانة المسيحية ثم نقارنها بعد ذلك بالاسلام .

وأول شىء ينبغى أن نلاحظه عند دراسة الديانة اليهودية أنها أول ديانة كتابية نادت بالتوحيد الصحيح . ولكنها كانت مصطبغة بما كان يطغى على ضمير العالم حينذاك من حب للتعصب والسيطرة ومن إشادة بمبدأ الاثرة والانانية والقوة وحب الانتقام .

وإذا كانت الديانة اليهودية تنتمى إلى إبراهيم عليه السلام ومن بعده اسحاق ويعقوب ويوسف ومن دعوة هؤلاء جميعا عبادة الله الواحد الأحد فإن ذلك لم يعصم اليهود من أن تتغلب عليهم نزعة عبادة الأوثان فعبدوا عجل الذهب فى صحراء سينا بعد أن استقدمهم يوسف إلى مصر وتكتل الوطنيون المصريون ضدهم واضطهدوهم حتى خرج بهم موسى عليه السلام إلى أرض سيناء وأرسله الله إليهم وأنزل عليه ألواح الوصايا العشر التى تعتبر زبدة التوراة .

والظاهرة العجيبة التى يراها الباحث فى الديانة اليهودية أنها ديانة محلية قاصرة على بنى إسرائيل وحدهم باعتبارهم كما يزعمون (شعب الله المختار) وأنها يسودها وتتغلب عليها روح الحرب والبطش وسفك الدماء حتى وصفو إلهم بما كان ينطبع فى نفوسهم ويتحكم فى عقولهم وأخلاقهم ونظرتهم للحياة من أنه غيور شديد المقت سريع الغضب متعطش إلى سفك الدماء .

وهذا يثبت لنا بوضوح ماذهبنا إليه من أن الديانات تفسر على ضوء مابلغته الأمة من وعى وتطور وإدراك .

وغاية ما نقوله فى موضع دراسة الديانة اليهودية وفى البيئة التى بعثت فيها أن تشريعها ونظمها وتعاليمها التى دعت إلى الأخذ بها والعمل بمقتضاها لم تكن عامة للإنسانية جميعاً ليراعى فيها تعدد البيئات والجنسيات وسنة التطور والوعى العام وإنما كانت هذه التشريعات والتعاليم والنظم خاصة ببنى إسرائيل وحدهم وهى صريحة فى ذلك كل الصراحة متعصبة من أجل ذلك كل التعصب .

والذى نلاحظه أيضا أنها كانت بمثابة ارهاص لغيرها من الديانات الآتية لمعرفة التوحيد الصحيح وأنها كانت بمثابة فلسفة تقريرية تلون اتباعها بلون جديد وتوجههم نمو طريق مرسوم يحتاج إلى تكملة وإلى امتداد واتصال ولذلك ظل بنو إسرائيل ينتظرون ديانة أخرى تكمل ما بدءوه وتوضح ما آمنوا به .

بل لذلك نرى أن هذه الديانة لم تنطبع فى نفوسهم بطابعها الصحيح وإنما هم

قد عبدوا الأوثان بعد دعوة أنبيائهم لهم بالتوحيد الصحيح ولم يخلصوا من عبادتها إلا حين بعث الله فيهم موسى عليه السلام وان كانت عبادتهم لله الواحد الأحد لم تستقم على وجهها الصحيح الذى دعاهم إليه موسى عليه السلام لأنهم وصفوا الله بأوصاف ليست من دعوة نبيهم فى شىء ولا تتفق مع وحدانيته سبحانه وتعالى فلقد وصفوه بما كان يتفق وإدراكهم ونظرتهم للحياة وما طبع فى نفوسهم من حب للحرب والصراع والغيرة والأنانية .

والذى هو جدير بالملاحظة بعد ذلك أن بنى إسرائيل بعد أن استولت عليهم فكرة دخول أرض الميعاد والسيطرة على العالم لم يلبثو أن دخلوا أرض الميعاد حتى نازع بعضهم بعضاً السلطان وحتى كاد بعضهم لبعض وقام بينهم صراع نبه إليهم المراطنين من الأمم الأخرى الذين يعمرون هذه الأرض فاتحدوا ضدهم وقامت بينهم حرب شديدة حتى استطاع طيطس فى النهاية أن يغلبهم على أمرهم وأن ينتقم منهم انتقاماً مراً قاسياً فعمل على تشتيتهم فى جميع أنحاء الأرض ومنذ ذلك الوقت لم تقم لهم دولة أبداً .

وقد جاء فى مقدمة ابن خلدون مايلى :-

« بقى بنو إسرائيل من بعد موسى ويوشع صلوات الله عليهما نحو أربعمائة سنة لا يعتنون بشىء من أمر الملك إنما همهم إقامة دينهم فقط وكان القائم به بينهم يسمى الكوهن كأنه خليفة موسى صلوات الله عليه يقيم لهم أمر الصلاة والقربان ويشترطون فيه أن يكون من ذرية هارون صلوات الله عليه لأن موسى لم يعقب ثم اختاروا لإقامة السياسة التى هى للبشر بالطبع سبعين شيخاً كانوا يتلون أحكامهم العامة والكوهن أعظم منهم رتبه فى الدين وأبعد عن شغب الأحكام واتصل ذلك فيهم إلى أن استحكمت طبيعة العصبية وتمحضت الشوكة للملك فغلبوا الكنعانيين على الأرض التى أورثهم الله بيت المقدس وما جاورها كما بين لهم على لسان موسى صلوات الله عليه فحاربتهم أمم الفلسطين والكنعانيين والأرمن وأردن وعمان ومارب ورئاستهم فى ذلك راجعة إلى شيوخهم وأقاموا على ذلك نحوا من أربعمائة سنة ولم تكن بهم صولة الملك

وضجر بنو طالوت وغلب الأمم وقتل جالوت ملك الفلسطين ثم ملك بعده داود ثم سليمان صلوات الله عليهما واستفحل ملكه وامتد إلى الحجاز ثم أطراف اليمن ثم إلى أطراف بلاد الروم ثم افترق الأسباط من بعد سليمان صلوات الله عليه بمقتضى العصبية فى الدول كما قدمناه إلى دولتين كانت إحداهما بالجزيرة والموصل للأسباط العشرة الأخرى بالقدس والشام لبنى يهوذا وبنيامين ثم غلبهم بخت نصر ملك بابل على ما كان بأيديهم من الملك أولا الأسباط العشرة ثم ثانيا بنى يهوذا وبيت المقدس بعد اتصال ملكهم نحو ألف سنة وخرب مسجدهم وأحرق توراتهم وأمات دينهم ونقلهم إلى أصبهان وبلاد العراق إلى أن ردهم بعض ملوك الكيانية من الفرس إلى بيت المقدس من بعد سبعين سنة من خروجهم فبنوا المسجد وأقاموا أمر دينهم على الرسم الأول للكهنة فقط والملك للفرس ثم غلب الإسكندر وبنو يونان على الفرس وصار اليهود فى مملكتهم ثم فشل أمر اليونانيين فاعتز اليهود عليهم بالعصبية الطبيعية ودفعوهم عن الاستيلاء عليهم وقام بملكهم الكهنة الذين كانوا فيهم من بنى حشمناى وقاتلوا يونان حتى انقرض أمرهم وغلبهم الروم فصاروا تحت أمرهم ثم رجعوا إلى بيت المقدس وفيها بنو هيردوس أصهار بنى خشمناى وبقيت دولتهم فحاصروهم مدة ثم افتتحوها عنوة وأفحشوا فى القتل والهدم والتحريق وخربوا بيت المقدس وأجلوهم عنها إلى رومة وما وراءها وهو الخراب الثانى للمسجد ويسميه اليهود بالجلوة الكبرى فلم يقم لهم بعدها ملك لفقدان العصبية منهم وبقوا بعد ذلك فى مملكة الروم من بعدهم يقيم لهم أمر دينهم الرئيس عليهم المسمى بالكوهن »

ولقد تكلم الأستاذ محمد غلاب فى كتابه (الفلسفة الشرقية) عن الديانة اليهودية متعرضاً لدراستها مسهبا فى شرح أغراضها وما كونته من فلسفة مقارناً ذلك بما سبقها من فلسفات شرقية أخرى وبما أتى بعدها من ديانات سماوية كالدين الإسلامى مثلا قال الأستاذ غلاب :-

« إن الأسفار الخمسة المنسوبة إلى موسى عليه السلام والتى اصطلح المسيحيون على تسميتها بالعهد القديم وهى : سفر التكوين - وسفر الخروج - وسفر

اللاويين - وسفر العدد - وسفر التثنية .

ولقد أجمع المؤرخون على أن موسى لم يكتب هذه الأسفار وإنما كتبت بعد موته بعدة قرون، لا تعرف بالضبط كما لا يعرف كاتبها الحقيقى وقد ذهب بعضهم إلى أنه بدى فيها حوالى القرن الثامن أو السابع وأنها لم تتم إلا فى القرن الخامس وأن بعضها لهذا قد أصابه التأثير البابلى لأنه كتب بعد المنفى »

ثم تابع الأستاذ غلاب كلامه فقال :-

« إذا تصفحنا الأسفار الموسوية الخمسة لم نجد فيها أثراً لخلود النفس ولا للحياة الأخرى على النحو الذى نجده مثلا فى القرآن يصور لنا (أن كل نفس بما كسبت رهينة وأن لها ما كسبت وعليها ما اكتسبت) فإن تعمل فى الدنيا مثقال ذرة من خير أو شر تره فى الآخرة مماثلا لما عملته تماما وإنما نرى جميع الموتى عند العبرانيين تكدس أشباحهم فى مكان مظلم سحيق يطلق عليه إسم شؤول على نحو الجحيم العام الذى أشرنا إليه حين عرضنا للديانة الكلدانية وأدهى من ذلك أننا إذا تصفحنا الدعاء الذى وجهه الملك (إزيكياس) وهو مريض إلى إلهه وجدناه يقول له فيه (اشفنى) لأنه ليس « شؤول » هو الذى يمدحك ولا الموتى هم الذين يثنون عليك فإن الذين ينزلون فى الحفرة لا يعتمدون على وفائك وإنما الأحياء هم وحدهم الذى يمدحونك كما أفعل أنا اليوم .

ولا ريب أن هذا مصير ساذج لا يتعلق مع تقدير الفرق بين الأخيار والشريرين ولا مع العدالة الإلهية التى ينبغى أن تثيب الأولين وتعاقب الآخرين على أفعالهم وهو - فوق ذلك - جانب نقص هام فى الفلسفة العبرانية يفقدها ناحية من أخطر نواحيها وينزلها إلى مصاف الفلسفات الأولية الساذجة .

ولقد جاء فى كتاب (الملل والنحل) للشهرستانى وصف لليهود وتحقيق لما كانوا عليه ونحن نثبته فيما يلى (اليهود خلاصة هاد الرجل أى رجع وتاب وإنما لزمهم هذا الاسم لقول موسى عليه السلام (إنا هدنا إليك) أى رجعنا وتضرعنا وهم أمة موسى وكتابهم التوراة وهو أول كتاب نزل من السماء أعنى أن ما كان نزل على إبراهيم وغيره من الأنبياء ما كان يسمى كتاباً بل صحفا وقد

ورد فى الخبر عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال « ان الله تعالى خلق آدم بيده وخلق جنة عدن بيده وكتب التوراة بيده » فأثبت لها اختصاصاً آخر سوى سائر الكتب وقد اشتمل ذلك على أسفار فيذكر مبتدأ الخلق فى السفر الأول ثم يذكر الأحكام والحدود والأحوال والقصص والمواعظ والاذكار فى سفر سفر وأنزل عليه أيضاً الألواح على شبه مختصر ما فى التوراة يشتمل على الأقسام العلمية والعملية قال عز ذكره (وكتبنا له فى الألواح من كل شيء موعظة) إشارة إلى تمام القسم العلمى وتفصيلا لكل شيء إشارة إلى تمام القسم العملى .

قالوا كان موسى قد أفضى بأسرار التوراة والألواح إلى يوشع بن نون وصيه من بعده ليفضى إلى أولاد هارون لأن الأمر كان مشتركان بينه وبين أخيه هارون إذ قال (واشركه فى أمرى) وكان هو الوصى فلما مات هارون فى حياته انتقلت الوصاية إلى يوشع بن نون وديعة فليوصلها إلى شبير وشبر ابنى هارون قراراً وذلك أن الوصية والامامة بعضها مستقر وبعضها مستودع .

واليهود تدعى أن الشريعة لا تكون إلا واحدة وهى ابتدأت بموسى وتمت به فلم يكن قبله شريعة إلا حدود عقلية وأحكام مصلحية ولم يجيزوا النسخ أصلا قالوا فلا يكون بعده شريعة أخرى لأن النسخ فى الأوامر بداء ولا يجوز البداء على الله ومسائلهم تدور على جواز النسخ ومنعه وعلى التشبيه ونفيه والقول بالقدر والجبر وتجويز الرجعة وإحالتها أما النسخ فكما ذكرنا وأما التشبيه فلأنهم وجدوا التوراة ملئ من المتشابهات مثل الصورة والمشافهة والتكلم جهرا والنزول عندطور سيناء انتقالا والاستواء على العرش استقراراً وجواز الرؤية فرقاً وغير ذلك وأما القول بالقدر فهم مختلفون فيه حسب اختلاف الفريقين فى الاسلام فالربانيون فيهم كالمعتزلة فينا والقراءون كالمجبرة والمشبهة وأما جواز الرجعة فإنما وقع لهم من أمرين أحدهما حديث عزير إذ أماته الله مائة عام ثم بعثه والثانى حديث هارون عليه السلام إذ مات فى القبة وقد نسبوا إلى موسى قتله . . . قالوا حسده لأن اليهود كانت إليه أميل منهم إلى موسى

واختلفوا فى حال موته فمنهم من قال مات وسيرجع ومنهم من قال غاب وسيرجع واعلم أن التوراة قد اشتملت بأسرها على دلالات وآيات تدل على كون شريعة المصطفى عليه السلام حقا وكون صاحب الشريعة صادقا بله ما حرفوه وغيروه وبدلوه إما تحريفاً من حيث الكتابة والصورة وإما تحريفاً من حيث التفسير والتأويل وأظهرها ذكره إبراهيم عليه السلام وابنه اسماعيل ودعاؤه فى حقه وفى ذريته وإجابة الرب تعالى إياه « أنى باركت على اسماعيل وأولاده وجعلت فيهم الخير كله وسأظهرهم على الأمم كلها وسأبعث فيهم رسولا منهم يتلو عليهم آياتى »

واليهود يعترفون بهذه القصة إلا أنهم يقولون أجابه بالملك دون النبوة والرسالة . وقد الزمتهم أن الملك الذى سلمتم أهو ملك بعدل وحق أم لا . فإن لم يكن بعدل وحق فكيف يمن على إبراهيم بملك فى أولاده هو جور وظلم وان سلمتم العدل والصدق من حيث الملك فالملك يجب أن يكون صادقاً على الله تعالى فيما يدعيه ويقوله وكيف يكون الكاذب على الله تعالى صاحب عدل وحق إذ لا ظلم أشد من الكذب على الله تعالى فنى تكذيبه تجويزه وفى التجويز رفع المنة بالنعمة وذلك خلف .

ومن العجب أن فى التوراة أن الأسباط من بنى اسرائيل كانوا يراجعون القبائل من بنى اسماعيل ويعلمون أن فى ذلك الشعب علما لدنيا لم تشتمل التوراة عليه وورد فى التواريخ أن أولاد اسماعيل كانوا يسمون آل الله وأهل الله وأولاد اسرائيل آل يعقوب وآل موسى وآل هارون وذلك كسر عظيم .

وقد ورد فى التوراة أن الله تعالى جاء من طور سيناء وظهر بساعير وعلن بفاران وساعير جبال بيت المقدس الذى كان مظهر عيسى عليه السلام وفاران جبال مكة التى كانت مظهر المصطفى صلى الله عليه وسلم ولما كانت الأسرار الإلهية والأنوار الربانية فى الوحى والتنزيل والمجيء أشبه بالمبدأ والظهور بالوسط والاعلان بالكمال عبرت التوراة عن طلوع صبح الشريعة والتنزيل بالمجيء على ظهور سيناء وعن طلوع الشمس بالظهور على ساعير وعن البلاغ إلى درجة

الكمال والاستواء بالاعلان على فاران وفى هذه الكلمة اثبات نبوة المسيح والمصطفى عليه السلام وقد قال المسيح فى الانجيل (ما جئت لأبطل التوراة بل جئت لأكملها قال صاحب التوراة النفس بالنفس والعين بالعين والأنف بالأنف والأذن بالأذن والجروح قصاص وأقول إذا لطمك أخوك على خدك الأيمن فأدرله خدك الايسر)

والشريعة الاخيرة (يعنى شريعة الاسلام) وردت بالأمرين جميعاً أما القصاص ففى قوله تعالى (كتب عليكم القصاص) وأما العفو ففى قوله (وأن تعفوا أقرب للتقوى) ففى التوراة أحكام السياسة الظاهرة العامة وفى الانجيل أحكام السياسة الباطنة الخاصة وفى القرآن أحكام السياستين جميعا « ولكم فى القصاص حياة » إشارة إلى تحقيق السياسة الظاهرة « خذ العفو وأمر بالمعروف واعرض عن الجاهلين » إشارة إلى تحقيق السياسة الباطنة الخاصة وقد قال عليه السلام « هو أن تعفو عمن ظلمك وتعطى من حرمك وتصل من قطعك » انتهى

ولعلنا بعد ذلك نكون قد وفقنا إلى أن نعطيك صورة صحيحة عن الديانة اليهودية وعن الظروف التى أحاطت بها وعن البيئة التى نبتت فيها وعما اكتنفها بعد ذلك من عقائد ومبادىء فى هذا القدر الضيق الذى سمح به الموضوع والذى سمحت به عدد صفحات الكتاب وليس يعنينا شيء بقدر ما يعنينا أن نعرف مكانة الإسلام من هذه الديانة . وأن نحاول أن نوجد مقارنة صحيحة لما بينها من تشابه ولما بينها من فروق واختلافات ولكنا سنرجىء هذه المقارنة إلى أن نتحدث عن الديانة المسيحية وأن نلم بالبيئة التى احتضنتها وبالتطورات التى أتت نتيجة لها .

ظهرت المسيحية فى أول أمرها ضعيفة مضطهدة ضئيلة الشأن وإن كان قد سبق ظهورها وجود فلسفة حية قوية اصطنعها فلاسفة من اليهود تبحث فى الروحانيات وتؤمن بحقيقتها ووجودها إلا أن وجود هذه الفلسفة لم تكن من العوامل التى ساعدت على نشر دعوة المسيح الروحانية ولم تحل دون اضطهاده وتشتيت أتباعه وذلك لأن المسيح جاء يدعو بنى إسرائيل إلى ديانة جديدة تخالف ديانتهم

العبرانية فى الجوهر والمظهر والروح وإن كانت لم تعمل على بطلانها قال المسيح لليهود (ما جئت لأبطل التوراة بل جئت لأكملها قال صاحب التوراة النفس بالنفس والعين بالعين والأنف بالأنف والأذن بالأذن والجروح قصاص وأنا أقول إذا لطمك أخوك على خدك الأيمن فأدر له خدك الأيسر) وقال لهم أيضاً (أليست الحياة أفضل من الطعام والجسد أفضل من اللباس أنظروا إلى طيور السماء إنها لا تزرع ولا تحصد ولا تخزن وأبوكم السماوى يقوتها ألستم أنتم أحرى بالتفضيل عليها . من منكم إذا أهتم يستطيع أن يزيد على ما قدر ذراعاً واحدة. تأملوا زنابق الحقل كيف تنمو وهى لا تتعب ولا تغزل وسليمان فى كل مجده لا يلبس كواحدة منها فإن كان عشب الحقل الذى يوجد اليوم ويطرح غداً فى التنور يلبسه الله ذلك اللبـــاس أفليس أحرى أن يلبسكم أنتم يا قليلى الايمان)

وعلى هذا النمط من الايثار ومن الروحانية الصافية الخالصة كان المسيح يخاطب بنى إسرائيل وكان يحاول أن يلغى من نفوسهم الأثرة والأنانية وحب الذات وهذا التعصب الأعمى حتى فى العبادة وحتى فى وصفهم للإله لانهم كانوا كما قال الاستاذ العقاد فى كتابه الله (كانت للشعوب آلهة يؤمن الاسرائيليون بوجودها ولكنهم يحرمون عبادتها كتحريم الانتساب إلى دولة أجنبية فرب الشعب أحق بولائه وعبادته من الأرباب الأخرى)

وكما قال أيضاً :-

« وظلوا إلى ما بعد أيام موسى عليه السلام ينسبون إلى الإله أعمال الانسان وحركاته فذكروا أنه كان يتمشى فى الجنة وأنه يصارع ويأكل ويشرب ويغشى مركبات الجبال وأنه دفن حينما مات فى موآب »

وكما قلنا فى أول هذا الفصل وفى الفصل الذى قبله من أنه ينبغى لمن يتعرض لدراسة الديانات ومراحل تطـــورها أن لا يغفل البته عن مراحل التطور البشرى كذلك . لان التطور فى الاثنين يسير جنبا لجنب فلا يكادان ينفصلان ولا يختلفان . . . ويصح لنا أن نقول هنا ان هذه الظاهرة فى وجود

الدعوة المسيحية محققة من غير شك لأنها جاءت عامة مصححة للدعوة اليهودية عاملة على ايجاد نوع من الارتباط والتعاون الانسانى ونكران الذات وحب الائتلاف . فلقد قامت الأخلاق اليهودية والفلسفة العبرية على أسس من الانانية . ومن المصالح الشخصية ومن حب المادة والتكالب عليها بكافة الوسائل وبشتى السبل وكان العالم فى طريقه نحو الرقى بل كان علماء اليهود أنفسهم يحسون بأنهم فى حاجة شديدة إلى دعوة أخرى ترشدهم الى طريق الحق والى سواء السبيل .

ونزلت الديانة المسيحية بقوانين أخلاقية جديدة مخالفة كل المخالفة لأخلاق اليهود ونزعاتهم وتفكيرهم فآمن بها أول الأمر أقلية منهم شأن كل دعوة جديدة تخالف ما ألفه الناس من تقاليد وعادات وأخلاق ورثوها عن آبائهم وأجدادهم وإن كانت تحس فى قرارة نفسها بأن الدعوة الجديدة حق وخير وصدق إلا أن الطبيعة البشرية من العسير عليها أن تنفض عن نفسها أثر العادات والتقاليد التى ورثتها عن آبائها وأجدادها ونشئت عليها من طفولتها وانطبعت فى نفوسها وترعرعت وهى ترعاها وتعمل بمقتضاها .

نعم من العسير على الطبيعة البشرية أن تلغى كل ذلك طفرة واحدة وفى غمضة عين وانتباهتها وبمجرد وصول الدعوة إليها ومخاطبتها لها عن طريق العاطفة أو العقل وعندنا أكبر شاهد على ذلك وهو موقف عمر بن الخطاب من الاسلام فى أول الأمر ومخاصمته له خصاماً عنيفاً شديداً وثورته عليه ثورة طاغية كان يخشاها كثير من المسلمين ثم موقفه منه بعد أن فهم الاسلام على حقيقته وآمن به واتبع هداه وكان أكبر سند له وأعظم مجتهد فيه وثانى الخلفاء الراشدين بعد النبى عليه السلام .

ولو تعمقنا فى البحث فى أصول هذه الديانة المسيحية الهادئة فى المظهر والمسالمة فى الطبيعة لوجدناها كانت ثورة عنيفة خطيرة هزت الانسانية من أساسها وعملت على تحطيم قوانينها التربوية والأخلاقية التى اصطلحت عليها أجيالا بعد أجيال وتهادنت على العمل بها من أزمان غابرة سحيقة فى البعد .

والمنصف فى الحكم على الأشياء والنفسيات والحوادث لا يتوانى لحظة عن أن يقرر فى ثقة وقوة بأن هذه الديانة بمبـــادئها الروحية الخالصة كانت من ألزم اللوازم للإنسانية فى مرحلتها تلك . وكانت تتفق مع طريق تطورها وسيرها نحو الرقى والنهـــوض لأن المسيحية جاءت وقد سبق مجيئها مذاهب عديدة للفلسفة ، وتشريعات قانونية فى غاية من الاجتهاد تنظم حقوق الأفراد والجماعات وواجباتهم نحو أنفسهم ونحو الدولة ثم ما بينهم بعد ذلك من علاقات .

نعم جاءت المسيحية فوجدت العالم لا تنقصه تنظيم وسائله المادية التى برع فيها واجتهد وجدد مثل ما تنقصه بواعث الروحانية التى كان ضاربا بينه وبينها سدا منيعا وحائلا لا يمكن أن يقتحم وإن كان يلوح له أنه فى حاجة شديدة ملحة إليها فاتجهت بكل قواها إلى إحياء المبادىء الروحية فى الانسان، وحاولت بكل ما تستطيع من وسائل أن تقيم دعائم الناموس وأسس الدعوة الإلهية على قواعد صحيحة ، وأن تكيف ذلك كله بما كان يتفق وطبيعة الأشياء لأن. التغالى والاسراف فى المادية يستتبع حتما التغـالى والاسراف فى الروحية ليتلاقيا فى النهاية مع بعض ويسيرا نحو الغاية جنبا إلى جنب .

وهكذا جاءت الديانة المسيحية لتعالج المشكلة الانسانية من ناحيتها الطبيعية فكانت كما قلت ثورة على قوانينها الأخلاقية وما اصطنعته لنفسها من تقاليد وعادات كلها ترمى إلى تحبيذ شريعة الغابة حيث كل شىء للقوى ولا شىء للضعيف حتى أننا نجد القانون الرومانى وإن كان من غير شك قد أخذ بيد الانسانية إلى الأمام وقد عمل على وجود شىء من العدالة وتنظيم الحقـوق والواجبات بين الناس بعضهم بعضا إلا أنه كان يحتفظ بحقوق خاصة لطبقة من الناس دون طبقة أخرى وكان يشرع الاستعمار والاستعباد ولم يكن يؤمن بالتساوى بين الدولة الرومانية وغيرها من الأمم الأخرى .

فلما جاءت المسيحيـة لا تقر هذا الوضع وتؤمن بالتسـاوى فى الحقـوق والواجبـــات وفى كل شىء آخر حدث بينهـــا وبين هذا القانون اصطدام أدى إلى انـكماشـــه .

والخلاصة التى نخرج بها من دراستنا للديانة المسيحية أنها نشأت فى أول أمرها ضئيلة نحيلة اعتنقها أفراد معدودون من اليهود ولما توالت عليهم الاضطهادات فى ديارهم هاجر فريق منهم إلى الأسكندرية حيث اتصلوا بمدرستها الشهيرة فتأثروا بها وأخذوا عنها وكونوا لهم فلسفة خاصة وذهب بعضهم الآخر إلى روما حيث أخذوا يعملون على نشر الدعوة التى كانت قاصرة على اليهود فى أول الأمر حتى دعا القديس بولس الرسول غيرهم من الناس إلى دخولها بنفس الامتيازات والحقوق التى لليهود وقد اعتنقها من الرومانيين أناس معدودون أيضا كانت تتوالى عليهم الاضطهادات المروعة والتعذيب الوحشى كأبشع ما يتصور الانسان ولكن ذلك لم يمنع هذه الديانة من الانتشار ولم يفت فى عضد المؤمنين بها فظلوا على عقيدتهم متمسكين بها داعين غيرهم من الناس إلى الايمان بها حتى أضحت الكثرة الساحقة من الرومانيين من المؤمنين بها العاملين لها مما حمل الأمبراطور « اغسطنطين » إلى أن يعلن المسيحية دينا رسميا للدولة وحمل الناس على الإعتقاد والإيمان بها بالحديد والنار وبوسائل غاية فى الوحشية والقسوة .

ومن هنا تلونت المسيحية بلون جديد ، وأخذت تنطبع فيها كل ظاهرة من ظواهر الاجتماع والتفكير الرومانى وحاولت أن تلون أصول القانون الرومانى بلونها وقد نجحت فى ذلك بعض الشىء ولكنها اصطدمت به آخر الأمر وقضت عليه قضاء لا تسامح فيه .

وإذا كانت الديانة اليهودية بل حتى الديانات الوضعية لم تخل من النظام « الكهنوتى » إلا أن المسيحية قد أخذت بهذا النظام وأسرفت فى الأخذ به غاية الاسراف حتى أن البابا كان يلقب نفسه بأنه ممثل الله على الأرض وكان بيده منح الثواب والعقاب وأعطى لنفسه السلطة على كل شىء لا يختص بالدين وحده وإنما يختص بكل الأمور الدنيوية أيضا واضحت الديانة المسيحية التى كانت مسالمة بطبيعتها رحيمة فى نفسها . أضحت كنظام دكتاتورى قاس لا يعرف هوادة ولا رحمة ولا رفقا ، وأصبح البابا وحاشيته أشبه بالقياصرة فى ترفهم وتكالبهم الشديد على اقتناء القصور والضياع وارتجاع المال من أى سبيل وذلك

لاشباع شهواتهم النهمة الجائعة مخالفين فى ذلك قول المسيح عليه السلام « الحق أقول لكم إنه يعسر أن يدخل غنى ملكوت السموات . وأقول لكم أيضا إن مرور جمل من ثقب إبرة أيسر من أن يدخل غنى إلى ملكوت الله »

وظل الحال على ذلك ولم تستطع المسيحية أن تخفف بعض الشىء من تعنت البابا وقسيسيه إلا بعد أن طالب « البروتستانت » بابطال السلطة على غفران الذنوب والتجارة ببيع الثواب والسعادة الأخروية وإبطال عبادة الصور .

ونحب قبل أن نترك موضوع الديانة المسيحية لننتقل بك الى دراسة الاسلام أن نقرئك ما قاله « الشهر ستانى » فى كتابه الملل والنحل عنها قال :-

« النصارى أمة المسيح عيسى بن مريم عليه السلام وهو المبعوث حقا بعد موسى عليه السلام المبشر به فى التوراة وكانت له آيات ظاهرة وبينات زاهرة مثل إحياء الموتى وإبراء الأكمه والأبرص ونفس وجوده وفطرته آية كاملة على صدقه وذلك حصوله من غير نطفة سابقة ونطقه من غير تعليم سالف وجميع الأنبياء بلاغ وحيهم أربعون سنة وقد أوحى اليه انطاقا فى المهد وأوحى اليه ابلاغا عند الثلاثين وكانت مدة دعوته ثلاث سنين وثلاثة أشهر وثلاثة أيام ولما رفع إلى السماء اختلف الحواريون وغيرهم فيه وإنما اختلافاتهم تعود إلى أمرين أحدهما كيفية نزوله واتصاله بأمه وتجسد الكلمة والثانى كيفية صعوده واتصاله بالملائكة وتوحد الكلمة أما الأول فقضوا بتجسد الكلمة وفهم فى كيفية الاتحاد والتجسد كلام ، فمنهم من قال : أشرق على الجسد اشراق النور على الجسم المشف ، ومنهم من قال : انطبع فيه انطباع النقش فى الشمعة ، ومنهم من قال : ظهر به ظهور الروحانى بالجسمانى ، ومنهم من قال : تضرع اللاهوت بالناسوت ، ومنهم من قال : مازجت الكلمة جسد المسيح مما زجة اللبن الماء وأثبتوا الله تعالى أقانيم ثلاثة : قالوا البارى تعالى جوهر واحد يعنون به القائم بالنفس لا التحيز والجسمية فهو واحد بالجوهرية ثلاثة بالاقنومية ويعنون بالأقانيم الصفات كالوجود والحياء والعلم والادب والابن وروح القدس وإنما العلم تضرع وتجسد دون سائر الأقانيم وقالوا فى الصعود أنه قتل وصلب . قتله

اليهود حسداً وبغياً وانكاراً لنبوته ودرجته . ولكن القتل ما ورد على الجزء اللاهوتى وإنما ورد على الجزء الناسوتى : قالوا وكمال الشخص الإنسانى فى ثلاثة أشياء نبوة وإمامة وملكة ، وغيره من الأنبياء كانوا موصوفين بهذه الخصال الثلاث أو ببعضها والمسيح عليه السلام درجته فوق ذلك لأنه الإبن الوحيدفلا نظير له ولا قياس له إلى غيره من الأنبياء وهو الذى به غفر زلة آدم عليه السلام وهو الذى يحاسب الخلق. ولهم فى النزول خلاف فمنهم من يقول ينزل قبل يوم القيامة . كما قال أهل الاسلام ، ومنهم من يقول لا نزول له إلا يوم الحساب . وهو بعد أن قتل وصلب نزل ورأى شخصه شمعون الصفا فكلمه وأوصى إليه ثم فارق الدنيا وصعد إلى السماء وكان وصية شمعون الصفا وهو أفضل الحواريين علما وزهدا وأدبا غير أن (فولوس شوش) أمره وصير نفسه شريكا له وغير أوضاع علمه وخلطه بكلام الفلاسفة ووسوس خاطره . ورأيت رسالة « لفولوس » كتبها إلى اليونانيين : إنكم تظنون أن مكان عيسى عليه السلام كمكان سائر الأنبياء وليس كذلك بل إنما مثله مثل « ملكيز داق » وهو ملك السلام الذى كان إبراهيم عليه السلام يعطى إليه العشور فكان يبارك على ابراهيم ويمسح رأسه ، ومن العجب أنه نقل فى الأناجيل أن الرب تعالى قال إنك أنت الوحيد ومن كان وحيداً كيف يمثل بواحد من البشر ثم إن أربعة من الحواريين اجتمعوا وجمع كل واحد منهم جمعاً للإنجيل وهم « متى. ولوقا . ومارقوس . ويوحنا » وخاتمه انجيل متى أنه قال « إنى أرسلكم إلى الأمم كما أرسلنى أبى اليكم فاذهبوا وأدعوا الأمم باسم الرب والابن وروح القدس » وفاتحة انجيل يوحنا « على القديم الأزلى قد كانت الكلمة وهو ذا الكلمة . كانت عند الله والله هو كان الكلمة . وكل كان بيده » انتهى

وكتب ابن خلدون فى مقدمته وصفا للمسيحيين نعتقد أن فى قراءته وفى الالمام به بعض الفائدة ونحن نثبته لك فيما يلى :-

جاء المسيح صلوات الله وسلامه عليه بما جاءهم به « أى اليهود » من

الدين والنسخ لبعض أحكام التوراة وظهرت على يديه الخوارق العجيبة من إبراء الأكمه والأبرص وإحياء الموتى واجتمع عليه كثير من الناس وآمنوا به وأكثرهم الحواريون من أصحابه وكانوا اثنى عشر وبعث منهم رسلا إلى الآفاق داعين إلى ملته وذلك أيام أوغسطس أول ملوك القياصرة وفى مدة هيرودس ملك اليهود الذى انتزع الملك من بنى حشمناى أصهاره فحسده اليهود وكذبوه وكاتب هيرودس ملكهم ملك القياصرة أوغسطس يغريه به فأذن لهم فى قتله ووقع ما تلاه القرآن من أمره وافترق الحواريون شيعا ودخل أكثرهم بلاد الروم داعين إلى دين النصرانية وكان بطرس كبيرهم فنزل برومة دار ملك القياصرة ثم كتبوا الانجيل الذى أنزل على عيسى صلوات الله عليه فى نسخ أربع على اختلاف رواياتهم فكتب متى إنجيله فى بيت المقدس بالعبرانية ونقله يوحنا بن زبدى منهم إلى اللسان اللاتينى وكتب لوقا منهم إنجيله باللاتينى إلى بعض أكابر الروم وكتب يوحنا بن زبدى منهم إنجيله برومة وكتب بطرس إنجيله باللاتينى ونسبه إلى مرقاص تلميذه واختلفت هذه النسخ الأربع من الانجيل مع أنها ليست كلها وحيا صرفا بل مشوبة بكلام عيسى عليه السلام وبكلام الحواريين وكلها مواعظ وقصص والأحكام فيها قليلة جدا واجتمع الحواريين الرسل لذلك العهد برومة ووضعوا قوانين الملة النصرانية وصيروها بيد أقليمنطس تلميذ بطرس وكتبوا فيها عدد الكتب التى يجب قبولها والعمل بها فمن شريعة اليهود القديمة التوراة وهى خمسة أسفار وكتاب يوشع وكتاب القضاة وكتاب راعوث وكتاب يهوذا وأسفار الملوك أربعة وسفر بنيامين وكتب المقابيين لابن كريون ثلاثة وكتاب عزرا الامام وكتاب أوشير وقصة هامان وكتاب أيوب الصديق وبزامير داود عليه السلام كتب ابنه سليمان عليه السلام خمسة ونبوءات الأنبياء الكبار والصغار ستة عشر وكتاب يشوع بن شارخ وزير سليمان ومن شريعة عيسى صلوات الله عليه والمتلقاه من الحواريين نسخ الانجيل الأربع وكتب القتاليقون سبع رسائل وثامنها الابريكسيس فى قصص الرسل وكتاب بولس أربع عشرة رسالة وكتاب أقليمنطس وفيه الأحكام وكتاب أبوغالمسيس

وفيه رؤيا يوحنا بن زبدى واختلف شأن القياصرة فى الأخذ بهذه الشريعة تارة وتعظيم أهلها ثم تركها أخرى والتسلط عليهم بالقتل والبغى إلى أن جاء قسطنطين وأخذ بها واستمروا عليها وكان صاحب هذا الدين والمقيم لمراسيمه يسمونه البطرك وهو رئيس الملة عندهم وخليفة المسيح فيهم يبعث نوابه وخلفاءه إلى ما بعدعنه من أمم النصرانية ويسمونه الأسقف أى نائب البطرك ويسمون الإمام الذى يقيم الصلوات ويفتيهم فى الدين بالقسيس ويسمون المنقطع الذى حبس نفسه فى الخلوة للعبـــادة بالراهب وأكثر خلواتهم فى الصوامع وكان بطرس الرسول رأس الحواريين وكبير التلاميذ برومه يقيم بها دين النصرانية إلى أن قتله نيرون خامس القيـاصرة فيمن قتل من البطارقة والأسـاقفة ثم قام بخلافتـه فى كرسى رومة آريوس وكان مرقاس الانجيلى بالاسـكندرية ومصر والمغرب داعياً سبع سنين فقام بعده حنانيا وتسمى بالبطرك وهو أول البطاركة فيها وجعل معه اثنى عشر قسا على أنه إذا مات البطرك يكون واحد من الاثنى عشر مكانه ويختار من المؤمنين واحدا مكان ذلك الثانى عشر فكان أمر البطاركة إلى القسوس ثم لما وقع الاختلاف بينهم فى قواعد دينهم وعقائده واجتمعوا بنيقية أيام قسطنطين لتحرير الحق فى الدين واتفق ثلاثمائة وثمانيـة عشر من أسـاقفتهم على رأى واحد فى الدين فكتبوه وسموه الامام وصيروه أصلا يرجعون إليه وكان فيما كتبوه أن البطرك القائم بالدين لا يرجع فى تعيينه إلى اجتهاد الأقسة كما قرره حنانيا تلميذ مرقاص وأبطلوا ذلك الرأى وإنما يقدم عن بلاء واختبار من أئمة المؤمنين ورؤسـائهم فبقى الأمر كذلك ثم اختلفوا بعد ذلك فى تقرير قواعد الدين وكانت لهم مجتمعات فى تقريره ولم يختلفوا فى هذه القاعدة فبقى الأمر فيها على ذلك واتصل فيهم نيابة الأساقفة عن البطاركة وكان الأساقفة يدعون البطرك بالأب أيضاً تعظيما له فاشتبه الاسم فى أعصار متطاولة يقال آخرها بطركية هرقل بإسكندرية فأرادوا أن يميزوا البطرك عن الأسقف فى التعظيم فدعوه البابا ومعناه أبو الآباء وظهر هذا الإسم أول ظهوره بمصر على زعم جرجيس بن العميد فى تأريخه ثم نقلوه إلى صاحب الكرسى الأعظم

عندهم وهو كرسى بطرس الرسـول كما قدمناه فلم يزل سمة عليه حتى الآن ثم اختلفت النصارى فى دينهم بعد ذلك وفيما يعتقدونه فى المسيح وصاروا طوائف وفرقا واستظهروا بملوك النصرانية كل على صاحبه فاختلفت الحال فى العصور فى ظهور فرقة دون فرقة إلى أن استقرت لهم ثلاث طوائف هى فرقهم ولا يلتفتون إلى غيرها وهم الملكية واليعقوبية والنسطورية ثم اختصت كل فرقة منهم ببطرك فبطرك رومة اليوم المسمى بالبابا على رأى الملكية ورومة الإفرنجة وملكهم قائم بتلك الناحية وبطرك المعاهدين بمصر على رأى اليعقوبية وهو ساكن بين ظهرانيهم والحبشة يدينون بدينهم ولبطرك مصر فيهم أساقفة ينوبون عنه فى إقامة دينهم هنالك وأختص اسم البابا ببطرك رومة لهذا العهد ولا تسمى اليعاقبة بطركهم بهذا الاسم وضبط هذه اللفظة بباءين موحدتين من أسفل والنطق بها مفخمة والثانية مشددة ومن مذاهب البابا عند الافرنجة أنه يحضهم على الانقياد لملك واحد يرجعون إليه فى اختلافهم واجتماعهم تحرجاً من افتراق الكلمة ويتحرى به العصبية التى لا فوقها منهم لتكون يده عالية على جميعهم ويسمونه الانبرذور (أى الأمبراطور) انتهى

هذا الذى قدمناه لك دراسة خفيفة عن الديانتين اليهودية والمسيحية نعترف أننا لم نسهب فى دراستها كل الاسهاب وإن كنا قد أبرزنا لك مشخصاتها والظروف التى أحاطت بها. والبواعث التى كمنت فيها وما اكتنفها من عوامل الانحراف والفسوق عن طريقها الطبيعى ولم يبق إلا أن نأخذ فى دراسة الديانة الاسلامية.

والاسلام دين عام وتشريع سماوى اعتمد على المنطق وعلى مخاطبة العقل وكان فى حقيقته عبقريا ولبقاً لأنه لم يقتصر على التشريع فقط لأمة محدودة كالديانة اليهودية، ولم يحفل إلا بالناحية الروحية فقط ولم يخاطب العاطفة والقلب والضمير وحدهم كالديانة المسيحية وإنما جمع بين الناحيتين جميعا وأراد أن يتمشى مع المرحلة التى بلغتها الانسانية: فكانت أهم ظاهرة فيه أنه من أول أمره جاء داعيا الانسانية جمعاء إليه وإلى الانضواء تحت لوائه. وأنه جاء عاملا

على التعاون والائتلاف الانسانى بطريقة عملية غاية فى الروعة والكمال فالتساوى بين الناس جميعا أهم عنصر فيه وأعظم أساس ابتنت عليه مبادئه يقول القرآن الكريم (يأيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم) ويقول رسول الاسلام « لا فضل لعربى على عجمى ولا لأبيض على أسود إلا بالتقوى »

وفى الواقع إن الدين الاسلامى لو قارناه مقارنة دقيقة بالديانتين السابقتين غير غاضين النظر عن مراحل التطور البشرى لكان ذلك كافيا وحده على صدقه واعجازه واحتياج الانسانية إليه فالدين المسيحى قد أوجد نوعا من التعاون الانسانى ولكنه كان ضئيلا وغير عملى ؛ ولا يتفق مع الادراك والوعى الانسانى لوجود النظام الكهنوتى فيه والدين المسيحى قد جاء منكرا المادة داعيا إلى الروح عاملا على الزهد والقناعة وعدم الاخذ بأى سبب من الاسباب التى فيها حرص على الدنيا وعمل لها وتنعم بها - وإن كنا قد عللنا ذلك بأنه كان علاجا طبيعيا لما كان يسيطر على طبيعة العالم حينذاك من حب للمادة وتكالب عليها واسراف فيها - غير أن الاسلام جاء منكرا لهذا النظام الكهنوتى كل الانكار فالقرآن الكريم يخاطب النبى بقوله (انك لا تهدى من احببت ولكن الله يهدى من يشاء) والرسول الكريم يخاطب أهله وذويه بقوله (يا معشر قريش اشتروا أنفسكم لا أغنى عنكم من الله شيئا . يابنى عبد مناف لا أغنى عنكم من الله شيئا . ياعباس بن عبد المطلب لا أغنى عنك من الله شيئا . ويافاطمة بنت محمد سلينى ما شئت من مالى لا أغنى عنك من الله شيئا)

ثم إن الإسلام لم يدع إلى الزهد والقناعة وانكار الحياة الدنيا كما كان الشأن فى المسيحية فقد قال القرآن الكريم (قل من حرم زينة الله التى أخرج لعباده والطيبات من الرزق) (واتبع فيما آتاك الله الدار الآخرة ولا تنس نصيبك من الدنيا) (ومن يهاجر فى سبيل الله يجد فى الأرض مغارم كثيرة وسعة) (فإذا قضيت الصلاة فانتشروا فى الأرض وابتغوا من فضل الله) وقال الرسول عليه السلام «اعمل لدنياك كأنك تعيش أبداً واعمل لآخرتك كأنك تموت غداً»

وعن أنس رضى الله عنه قال :-

جاء ثلاثة رهط إلى بيوت النبي صلى الله عليه وسلم فلما أخبروا كأنهم تقالوها « أى عدوها قليلة » فقالوا : وأين نحن من النبي صلى الله عليه وسلم قد غفر الله له ما تقدم من ذنبه وما تأخر فقال أحدهم أما أنا فإنى أصلى الليل أبداً . وقال آخر : أنا أصوم الدهر ولا أفطر . وقال آخر : أنا اعتزل النساء فلا أتزوج أبداً . فجاء إليهم رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال « أنتم الذين قلتم كذا وكذا أما والله إنى لأخشاكم لله وأتقاكم له لكنى أصوم وأفطر وأصلى وأرقد وأتزوج النساء فمن رغب عن سنتى فليس منى »

ثم إن الطبيعة التى اتسمت بها الديانة اليهودية كانت الاشادة بمبدأ القوة والقسوة والأثرة والأخذ بأساليب ذلك والاسراف والتغالى فيه بينما جاءت الديانة المسيحية على عكس ذلك فقد دعت إلى المسالمة والرحمة والتسامح والسعى لا للدنيا وإنما للآخرة. وترك الحقوق متى كان فى الحصول عليها قوة وشدة وخصاما

أما الاسلام فقد جاء وسطاً معتدلا متفقا مع طبيعة النفوس ، ومع طبيعة الأشياء والحوادث فلم يستعمل القوة إلا فى المواضع التى تحتاج إلى القوة. ولم يكن شديداً صارماً إلا فى كل ما هو حق وواجب فقانونه الأخلاقى قائم على ما يتفق وسيكولوجية النفوس وسيكولوجية الحوادث . وظروف الزمان والمكان . فقد أشاد بمبدأ القوة فى الأشياء والحوادث التى تحتاج فى علاجها إلى شدة وصرامة وقد حبب الرفق والتسامح والصفح فى الظروف التى توجب ذلك، أحياناً خير الانسان بين أن يأخذ بحقه أو يعفو إذا لم يكن فى ضياع حقه مضرة لنفسه أو للمجتمع . بل انه وقف أحيانا بين الانسان وبين أن يفرط فى ماله حتى ولو كان للصدقة إذا كان غير فائض عليه ومما يحتاجه لنفسه أو لأولاده فلقد روى أنه حينما كان سعد بن أبى وقاص مريضاً عاده النبى صلى الله عليه وسلم وكان عازماً على الصدقة بثلثى ماله . أو بماله كله تقرباً إلى الله فسأله النبي عما ترك لولده فقال سعد هم أغنياء فلم يقبل النبي أن يتصدق بغير

العشر وما زال يراجعه حتى رضى صلى الله عليه وسلم بالثلث وحرم الزيادة فوق ذلك وقال (الثلث والثلث كثير إنك إن وتذر ورثتك أغنياء خير من أن تدعهم عالة يتكففون الناس)

وهكذا كما ترى جاء الاسلام بعد أن ظهرت له ضرورة عاجلة فى تصحيح العقيدة الالهية وفى تكييف التعاليم السماوية ، وفيما ينبغى أن يتفق مع التطور الانسانى والتقدم البشرى فأخذ يعمل فى غير هوادة على لم شمل الانسانية وتقاربها وتآلفها وتعاونها ولم يجعل حوائل أو شروطاً تحول بين انسان - كائنا من كان - وبين أن يكون مسلما إلا أن يؤمن بالله ورسوله ويعمل صالحاً بل إنه شجع غير المسلمين على الدخول فيه وحببه إليهم فجعل لهم نصيبا فى الزكاة حيث قال الله تعالى « والمؤلفة قلوبهم »

بينما نرى الديانة اليهودية جاءت خاصة ببنى إسرائيل وحدهم والمسيحية فى أول أمرها نزلت لليهود فقط ولم يكن يسمح بالدخول فيها لغير اليهود حتى دعا بولس الرسول غيرهم من كافة الناس للإنضواء تحتها بنفس الحقوق والامتيازات التى لهم كما ذكرنا ذلك قبلا .

والشىء الذى نحب أن يسترعى اهتمامك بعد ذلك وأن تخرج به من موضوع هذه المقارنة هو أن الاسلام جاء فوجد العالم تسيطر عليه حالة من الفوضى والتفكك لا مثيل لها ، وأنه فى حاجة إلى موقظ يوقظه مما هو سادر فيه من حيرة وضلال ، ومن وجود نظام الطبقات الذى كان آخذاً بخناقه عاملا على تقويض كل القيم الانسانية فيه .

ولقد رأينا أن المسيحية لم تأت بتشريعات سماوية تكون قانونا للناس يسيرون على ضوئه ؛ وإنما انتهى بها الأمر إلى أن تحارب التشريعات اليونانية والرومانية التى ورثتها عن روما بعد سيادة المسيحية عليها وأن تقف فى النهاية حجر عثرة فى سبيل تطورها ونضوجها لذلك كان العالم فى مسيس الحاجة إلى ديانة جديدة تصحح هذا الوضع وتتمشى مع الناموس الطبيعى للحياة حيث المادية وحدها غير قادرة على السير وحيث الروحانية بمفردها بغير مستطيعة

العيش. وإنما لابد أن يجتمع الاثنان ويمتزجا ويكيفا بعضها بعضا لأن هذا نظام الكون وقانون حياة الكائنات ! ...

ولقد نزل الاسلام على محمد بن عبد الله وهو أمى لا يقرأ ولا يكتب فكان أعظم دستور للبشرية جمع فأوعى وسما بها فى فترة قصيرة إلى مكانة ممتازة من الرقى والسمو لم تكن تحلم ببلوغها فى عدة قرون وكون أعظم امبراطورية ضخمة لم يعرف التاريخ لها مثيلا فى سرعة نموها وائتلافها وارتباطها وما سادها من عدل ومساواة وما كمن فيها من حيوية وازدهار.

جاء الاسلام خاتماً للدعوات الالهية فكان لابد أن تتوفر فى طبيعته المرونة التى تتفق والتطور الزمنى والرقى البشرى فعول فى نشر دعوته وهضمها والايمان بها على العقل فكان يخاطبه فى كل أمر من أموره ويحكمه فى كل شأن من شئونه حتى أن الرسول عليه السلام يقول (الدين هو العقل ولا دين لمن لا عقل له) وأمر بأنه إذا تعارض العقل والنقل أخذ بما يتفق مع العقل وفى هذا أكبر دليل على تقديره للعقل، وعدم مخاصمته للفلسفة أو العلم اللذين هما أثر من آثار الاجتهاد العقلى. بل إن فى هذا لأكبر دليل على أنه ترك للعقل أن يؤول أحكامه وأوامره ونواهيه، وأن يلونها حسب ما يتفق وطبيعة الأشياء وظروف الزمان والمكان.

قال الأستاذ الامام محمد عبده

«أجمع أهل الملة الاسلامية إلا قليلا ممن لا ينظر إليه أنه إذا تعارض العقل والنقل أخذ بما دل عليه العقل، وبقى فى النقل طريقان طريق التسليم بصحة المنقول مع الاعتراف بالعجز عن فهمه، وتفويض الأمر إلى الله فى علمه، والطريقة الثانية تأويل النقل مع المحافظة على قوانين اللغة حتى يتفق معناه مع ما أثبته العقل»

وفى الواقع اننا لو تعمقنا فى البحث فى أحكام القرآن وفيما أتى به من أوامر ونواهى نجد أنه فى كل ذلك كان يرمى إلى تكوين قانون أخلاقى غاية فى الرقى والكمال. لأن العالم من ناحية الرصيد الخلقى كان مفلساً كل الافلاس، ولم يكن

تنقصه الفلسفة التى برع فيها سقراط وتلميذيه افلاطون وارسطاليس، ولم يكن تنقصه نظريات القانون المادى وتنظيم العلاقات وسن الحقوق والواجبات التى اصطنعها علماء القانون الرومانى ، وإنما كانت هذه الفلسفة وهذا القانون فى احتياج شديد إلى تطعيم قوى بالنواحى الخلقية فأرسطو الذى وضع كتاب (الأخلاق) كان يبرر الاغارة على الأمم المتبربرة واستعبادها لأن الله لم يخلق الناس سواسية وإنما خلق بعضهم أسياداً (كاليونانيين فى رأى أرسطاليس) وبعضهم الآخر عبيداً كغير اليونانيين من الأمم والشعوب وكان القانون الرومانى أيضاً يشجع نظام الطبقات ويشرع الاستعمار لا للنهوض بالأمم المستعمرة ، وإنما للتسلط عليها واستنزاف اقتصادياتها .

فالعالم إذاً كان فى حاجة ملحة إلى نظم وقوانين تسيطر عليها الناحية الخلقية فجاء الدين الإسلامى حاملا إليه هذه الرسالة مؤديا له تلك الأهداف فيما رسمه ونادى به القرآن من قواعد ومبادىء وفيما تمثل به الرسول وصحابته من أخلاق وقاموا به من أعمال فالقرآن الكريم يخاطب النبي بقوله (وإنك لعلى خلق عظيم) والرسول الكريم يقول (الناس سواسية كأسنان المشط)

ولو درسنا حياته وتتبعنا أعماله كلها فإننا نجدها صفحة رائعة للخلق النبيل القويم من الوفاء والصدق والحب والإيثار التى تطفح بها كتب السيرة النبويه فلم يعرف عنه صلى الله عليه وسلم أنه أعطى لنفسه امتيازاً أو سلطة فى أى شىء بل إنه كان يشاور الصحابة فى كل ما يطرأ عليهم من أمور الدنيا حيث يقول له الله (وشاورهم فى الأمر) وكثيراً ما كان رأى غيره مخالفاً رأيه فينزل على رأيهم فالبساطة والتساوى والإيثار كانت من أظهر صفات النبى عليه السلام .

يقول المفكر الأنجليزى (بوسورث سميث) فى كتابه « محمد والدين المحمدى » ترجمة الأستاذ عز الدين فراج

« إن أعجب الأمور فى حياة محمد أنه لم يدع قط القدرة على اتيان المعجزات فأيما شىء قال إنه يستطيع أن يفعله رآه أتباعه وهو يفعله ولم ينسب أحد منهم إليه معجزة من المعجزات بل إن محمداً نفسه حرص دائما على أن ينكر قدرته

على اتيانها أى دليل إذاً أقوى من ذلك على الاخلاص يمكن أن يسوقه إنسان لقد ظل محمد طيلة حياته وليس له لقب يفخر به إلا أنه نبي مرسل من عند الله . وإذا كان لأى فرد أن يدعى الحق فى تلقى الوحى من السماء فهو محمد لقد كانت له كل السلطات دون أن يكون لديه أداتها .. كذلك كانت علاقته بعثمان وعمر مشبعة بروح المودة والولاء وكان محمد عليه الصلاة والسلام عادلا مقتصداً فلم يكن يعوزه الرفق بأعدائه إذا ما دانوا له بالطاعة وقد كان دفاع مكة العتيد الطويل المدى ضد دعوته يحمل على البطش بهم بعد فتحها ولكنه أصدر عفواً عاما ملقيا بذكريات الماضى بما فيها من سخرية وإهانة واضطهاد فى زوايا النسيان وعامل أحد الأعداء له بالاكرام والسخاء ولم تكن السماحة التى أبداها لعبد الله ابن أبى وأهل مكة الخارجين عليه بأقل من ذلك ظهـــوراً وهم الذين ناصبوه العداء سنين طوالا وامتنعوا عن الدخول فى طاعته .

وتحدث الكاتب الأمريكى (واشنجطون أرفنج) عن أخلاق النبى فقال :

« لقد احتفظ محمد وهو فى أوج سلطانه ببساطة الخلق التى عرفت عنه فى كل أدوار حياته وكان يكره إذا دخل مكاناً أن تؤدى له تحية غير عادية وكان لا ملجأ له فى أوقات شدته غير الصلاة والثقة بالله وعندما وقف على سرير ابنه إبراهيم ساعة احتضاره كان التسليم لارادة الله واضحا فى سلوكه بينما كان يعانى أقصى ألوان الحزن وكان عزاؤه أنه سيلتقى به ثانية يوما من الأيام فى جنة الخلد وعندما حانت ساعة وفاة محمد كان يردد صلاته ويتحدث عن دعوته وكانت كلماته التى جاءت على شفتيه تمنيه من أن يدخل ملكوت الله مع من سبقه من الأنبياء »

ولقد ذكر الأستاذ عبد المتعال الصعيدى فى كتابه (القضايا الكبرى فى الاسلام) أن عمر بن الخطاب خطب الناس يوما فنصحهم ثم قال لهم (ألا إنى والله ما أرسلت عمالى إليكم ليضربوا أبشاركم ولا ليأخذوا أموالكم ولكن أرسلتهم إليكم ليعلموكم دينكم وسننكم فمن فعل به سوى ذلك فليرفعه إلى فوالذى نفسى بيده إذاً لأقصنه !

فوثب عمرو بن العاص فقال :-
يا أمير المؤمنين : أفرأيت إن كان رجل من المسلمين على رعيته فأدب بعض رعيته إنك لمقصه ؟

فقال عمر : أى والذى نفسى عمر بيده . إذن لأقصنه منه ، أنى لا أقص منه وقد رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقص من نفسه . ألا لا تضربوا المسلمين فتذلوهم ولا تمنعوهم حقوقهم فتكفروهم . ولا تنزلوهم الغياض فتضيعوهم .

ثم تحدث الأستاذ الصعيدى عن قضية قائد مع جنده فترجم فيها عن روح الإسلام وعدله وبين ما اتصف به من مثل عليا فى المساواة بهذا الحكم وبهذا المثل الذى ضربه عمر بن الخطاب للناس ، والذى لم ير العالم له مثيلا فى تاريخ التحضر البشرى ولن يرى له مثيلا فى المدنيات الكبرى التى تزعم الرقى بالانسانية والارتفاع بها إلى مكانة من السمو والامتياز .

قال الأستاذ عبد المتعال الصعيدى (كان مع أبى موسى الأشعرى فى بعض الفتوح رجل ذو صوت ونكاية فى العدو فغنموا مغنما ، فأعطاه أبو موسى بعض سهمه فأبى أن يقبله إلا جميعا فغضب منه أبو موسى وجلده عشرين سوطا وحلق شعره .

فجمع الرجل شعره ثم ترحل إلى عمر بن الخطاب حتى قدم عليه ثم دخل عليه فأدخل يده فاستخرج شعره . ثم ضرب به صدر عمر ، فقال : أما والله لولا . . فقال عمر : صدق ، لولا النار . .

ثم ذكر الرجل قصته مع أبى موسى فقال : يا أمير المؤمنين . إنى كنت ذا صوت ونكاية فى العدو ، وقد أعطانى أبو موسى بعض سهمى ، فأبيت إلا أن آخذه جميعا فضربنى عشرين سوطا ، وحلق رأسى وهو يرى ألا يقتص منه .

فقال عمر : لأن يكون الناس كلهم على صرامة هذا أحب إلى من جميع ما أفاء الله على .

ثم كتب عمر إلى أبى موسى :

سلام عليكم ـ أما بعد ـ فإن فلانا أخبرنى بما كان منك فإن كنت فعلت ذلك فى ملإ من الناس فعزمت عليك لما قعدت له فى ملإ من الناس حتى يقتص منك وإن كنت فعلت ذلك فى خلاء من الناس فاقعد له فى خلاء من الناس حتى يقتص منك

ثم قدم الرجل على أبى موسى ، فقال له الناس . اعف عنه فقال الرجل . لا والله ، لا أدعه لأحد من الناس .

فلما قعد أبو موسى ليقتص الرجل منه ، رفع الرجل رأسه إلى السماء ثم قال اللهم قد عفوت عنه) انتهى

ثم شىء آخر من عدالة الاسلام أحب أن أعرضه عليك وهو أن جبلة ابن الأيهم ملك غسان بعد أن أسلم كان يطوف بالكعبة فى موسم الحج فوطىء رجل من فزارة طرف إزاره فانحل الازار فرفع جبلة يده وهشم أنف الفزارى فشكاه إلى عمر ولما لم يقبل العفو عنه أراد عمر أن يهشم أنف جبلة تنفيذاً للقانون الاسلامى (ولكم فى القصاص حياة) فقال جبلة كيف ذلك وهو سوقة وأنا ملك ؟ فأجاب عمر :

إن الاسلام جمعك وإياه وساوى بينكما فلست تفضله بشىء إلا بالتقوى فلم يحتمل ذلك جبلة واستنصر .

ولا أحب أن أترك دون أن أقدم لك شيئاً آخر عن سماحة عمر وتواضعه مع نفسه ، وعمله على ما فيه خير الاسلام وصالح المسلمين . وهذه الأخلاق النبيلة الرفيعة التى أخذها عن محمد ، والتى أكسبها الاسلام إياه .

فقد نقل الأستاذ العبادى فى كتابه (صور من التاريخ الاسلامى) عن الطبرى (أنه لما أتى عمر بن الخطاب نزول رستم القادسية كان يستخبر الركبان عن أهل القادسية من حين يصبح إلى حين انتصاف النهار ثم يرجع إلى أهله ومنزله . قال فلما لقى البشير سأله من أين فأخبره . قال ياعبد الله ! حدثنى . قال : هزم الله العدو ! وعمر يخب معه ويستخبره والآخر يسير على ناقته ولا يعرفه حتى دخل المدينة فإذا الناس يسلمون عليه بإمرة المؤمنين . فقال الرجل : فهلا أخبرتنى رحمك الله أنك أمير المؤمنين ؟ وجعل عمر

يقـــول : لا عليك يا أخى !)

ثم تابع الأستاذ العبادى كلامه فقال :-

« ويمكن القارىء أن يدرك الدور الذى قام به عمر فى تلك الواقعة الفاصلة فهو مدير رحاها وبطلها على الحقيقة . وقد أدرك الفرس ذلك من فورهم . فيروى أن رستم لما ضرسته الحرب بنابها ووطئته بمنسمها نادى فقال بالفارسية ما تعريبه : « أتانى صوت عند الغداة ، وإنما هو عمر الذى يكلم الكلاب فيعلمهم العقل أكل عمر كبدى أحرق الله كبده »

أرأيت إذاً ما صنعه الاسلام بهؤلاء الناس البدو الرعاة . كيف جعلهم سادة العالم وقادته ، ومثله الأعلى فى الأخلاق ، والعدل ، والمساواة وفى كل صفة من صفات التحضر البشرى ، والرقى الانسانى .

أرأيت إذاً أن العالم وهو سادر فى فقره الأخلاقى ، وفى امتهانه للكرامة البشرية كان فى حاجة قصوى إلى رسالة الاسلام الذى جاء بأعظم قانون أخلاقى لم يتخيل أحد من الفلاسفة والمفكرين ما يفوقه فى السمو والارتفاع حتى الآن ، وأنه رد للإنسان كرامته وشعره بعزته بتساوى أفراده صغيرهم وكبيرهم فى الحقوق والواجبات ، وفى أمور دينهم ودنياهم حتى أن النبى وصحابته كانوا يعاملون موالیهم معهم على قدم المساواة ، بل كانوا يميزونهم عن أنفسهم فى أكثرهم الأحايين .

فأسامة بن زيد لم يرغب أن يترك النبى ليذهب مع أبيه إلى مكة لما خيره النبى بالذهاب مع أبيه أو العيش معه فآثر العيش مع النبى وذلك لما لقيه منه من معاملة حسنة ، ومن رعاية تفوق عاطفة الأبوة ومن مساواة له مع نفسه ، ومع صحابته حتى أنه قلده قيادة الجيش الذاهب لمحاربة الشام وفيه من عظماء قريش ، ومن أكابر الصحابة العدد الوفير .

وعمر بن الخطاب لما ذهب ليعقد معاهدة مع أهل الشام استصحب معه رقيقا له فكان يركب هو مرحلة ثم ينزل ويأمر رقيقه بالركوب ويمشى خلفه

ولما وصل إلى دمشق كان الدور فى الركوب لغلامه فدخل دمشق على هذه الصورة ولم يرفى ذلك عيبا ولا غضاضه .

وعلى بن أبى طالب رضى الله عنه اشترى ثوبين أحدهما أكثر ثمنا من الآخر فأعطى لرقيقه الأثمن وأخذ لنفسه الآخر فقال له رقيقة (أنت يامولاى أحق بهذا الثوب) فقال له (كلا إنك شاب وأما أنا فقد هرمت)

وربما يسألنا سائل : مابال الاسلام وهذه أخلاقه ومبادئه فى المساواة والايثار لم يلغ الرق ، ولم يحرمه بل أقره ؟

وجوابنا : أنه لا يعاب على الاسلام عدم إلغائه للرق صراحة وذلك لأنه جاء فوجده عنصراً طبيعيا من مقومات حياة العالم ودعامة قوية من دعائم اقتصادياته ، ولان الديانتين اللتين سبقته وهى اليهودية والمسيحية لم تتعرض إحداهما للحد منه بله الغائه صراحة أو تنويها .

بل إنه جاء فوجد الفلسفة الأغريقية، والحضارة الرومانية وهى التى استمد منها علماء أوربا ومفكروها عناصر نهضتهم وتحضرهم الحالى قد أقرته ووضعت له قواعد باعتباره أساسا من أسس الاقتصاد ، ومن أسس الاجتماع

ولكننا نجد الاسلام - هذا الدين الذى كما قلنا جاء يقرر الأخلاق ويعمل على النهوض بالكرامة البشرية - يسوى بين العبد وسيده أمام الدين ، وفى كثير من الحقوق والواجبات بل إن القرآن قد جعل منزلة الرقيق بالنسبة لنظرة الانسان كمنزلة والديه وذوى قرباه فقال تعالى (وبالوالدين إحسانا وبذى القربى واليتامى والمساكين وما ملكت أيمانكم)

وقال عليه الصلاة والسلام (إخوانكم خولكم جعلهم الله تحت أيديكم فمن كان أخوه تحت يده فليطعمه مما يأكل وليلبسه مما يلبس)

ثم إن الاسلام سعى إلى التخفيف منه ، والعمل على زواله شيئا فشيئا بخلق أبواب كثيرة يتلاشى فيها كالتكفير عن سيئة بعتق رقبة مؤمنة وبمساعدة من يسعى لفك رقبته بإعطائه حصة وحقا فى الزكاة التى أوجبها على المسلمين وبالاثابة والجزاء الحسن لكل من يعمل على إطلاق حرية عبد رقيق وكالحض

على الزواج بالإماء وبمجرد ولادتهن يصبحن أحراراً ... فهو حقيقة لم يلغ الرق صراحة ، لأن العقول سواء أكانت عقول السادة أو الرقيق لم تكن تهضم هذه الدعوة ؛ ولأن نفوس الرقيق وهى التى استمرأت حياة الرق واستعذبتها وألفتها وأصبحت غريزة فيها ورثتها عن أجيال بعد أجيال ومن قرون تلو قرون . . ! هذه النفوس لم تكن قد تهيأت لتذوق حياة تخالف ما ألفته من حياة ، ولم يكن قد توفر عندها التكافؤ للعمل فى حرية واستقلال ولذلك نرى الاسلام قد حرم الرق الذى يأتى عن طريق النخاسين بالقنص والتصيد والاختطاف .

والخلاصة التى نستطيع أن نخرج بها من موضوع دراستنا لمكانة الاسلام بين الديانات أنه الدين الذى جاء متمشيا مع العقل فى تطوره ونهضاته ، وأنه الدين الذى جاء يقرر الأخلاق ويعمل للكرامة البشرية التى تلتزمها الحضارات والمدنيات الكبرى .

الاسلام كتشريع للبشر

تكلمنا فى الفصل السابق عن الطبيعة التى لازمت الإسلام . من أنه جاء عاماً للناس جميعا ، وأنه ساير سنة التطور والتدرج الإنسانى ، وأنه لم يكتف بإصدار تشريعات خاصة لأمته وللبيئة التى ترعرع فيها ، وإنما كان فى كل ما شرعه مراعياً الإنسانية فى مجموعها ، مدركا حقيقة نموها ، وسرعة اضطرادها فى الرقى والتقدم .

ثم إنه لم يأت ليحيي المبادىء الروحية فى نفس الإنسان فقط ، وإنما قام هو والدولة جنبا إلى جنب ، بل إنه سخر كل ما دعا إلى القيام به من مختلف العبادات إلى تغذية هذه الدولة وإقامتها على أسس سليمة غاية فى القوة والنضوج والمثالية الكاملة ...! وعلى ضوء ذلك سندرس الاسلام كتشريع للبشر

وأول شيء نلاحظه : أن مصادر التشريع الاسلامى أربعة :-

(أولا) الكتاب وهو القرآن الكريم فى كل ما تلاه من أوامر ونواهى سواء فهم ذلك من صريح صيغته ، أو عن طريق الاشارة أو الدلالة ، أو الاقتضاء .

(ثانيا) السنة وهى كل حديث صحيح قاله رسول الله صلى الله عليه وسلم يوضح مبهما . أو يفسر مجملا . أو يستهدى تفصيلات سكت عنها القرآن بشرط أن تكون هذه الأحاديث مما يتفق وروح القرآن ومما يهضمه العقل الناضج البصير لنخرج بذلك الأحاديث الموضوعة والمدسوسة على رسول الله

(ثالثاً) الاجماع : وهو اتفاق أغلبية أهل الحل والعقد ، والثقاة من مجتهدى المسلمين على رأى من الآراء دينيا كان أو دنيويا . فيصبح بذلك قانونا شرعيا ، من الواجب الانصياع له والأخذ به شرعا .

(رابعاً) القياس . وهو إلحاق فرع بأصل : ويتأتى فى الأشياء التى لم يرد فيها نص

فيجب على الانسان أن يحكم عقله مستهديا روح الكتاب والسنة ، ويقيس ما يعرض له على ضوء الغاية من التشريع ، وعلى ضوء العلة فى الأوامر والنواهى

هذه هى المصادر الأربعة التى تعتبر منبعا للتشريع الاسلامى وقد وجدت على هذا الترتيب المنسلسل ، فالقرآن فى المقدمة لأنه الأصل فى التشريع قال تعالى (ما فرطنا فى الكتاب من شىء) (لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد) ولأنه جاء عاما جامعا ملما بكل التشاريع الالهية التى سبقته فالله يقول (شرع لكم من الدين ما وصى به نوحاً والذى أوحينا إليك وما وصينا به إبرهيم وموسى وعيسى) ولكنه كان مراعياً ظروف كل أمة ، مقدراً سنة التطور ، وعامل البيئة وظروف الزمان والمكان فلقد دعا مرة إلى أشياء للفعل أو الترك محدداً حدودها مفصلا أغراضها ولقد دعا مرة أخرى إلى أمور مجملة ليس فيها شىء من التحديد والتفصيل مثل ، إقامة الصلاة ، وإيتاء الزكاة وحج البيت وصوم رمضان وبعض العبادات الأخرى والمعاملات فلقد ترك تفصيلاتها لأقوال رسول الله وأفعاله أو للمصدرين الأخيرين من المصادر التشريعية وهما الاجماع ، والقياس .

ثم إنه قد ترك أشياء غير غافل عنها لأنه كما قلت جاء مرناً مسايراً حاجيات الناس ، واختلافهم فى ظروف الحياة ، ومقتضيات القوانين التشريعية فى طور من حياتهم بعد طور وفى جيل بعد جيل فلم يشأ أن يقيدهم فى دائرة محكمة من القوانين التى لا تساير مصالحهم ولا تنهض بمطالبهم .

قال الأستاذ عبد الوهاب خلاف فى كتابه علم أصول الفقه وتاريخ التشريع الاسلامى من الأمور التى روعيت فى التشريع « التقليل من التقنين وهذا يتجلى فى أن الأحكام التى شرعها الله ورسوله لم تشرع إلا على قدر الحاجة التى دعت إليها والأقضية والحوادث التى اقتضتها ، ولم تشرع منها أحكام لحل مسائل فرضية أو الفصل فى خصومات محتملة ، ويتجلى أيضاً مما ورد فى القرآن والسنة من النهى عن الاكثار من الأسئلة التى تقتضى تشريعا فقد قال تعالى « ياأيها الذين آمنوا لا تسألوا عن أشياء أن تبدلكم تسؤكم ، وان تسألوا عنها

حين ينزل القرآن تبدلكم » ونهى رسول الله عن قيل وقال وكثرة السؤال وإضاعة المال فقال « أعظم المسلمين جرما من سأل عن شيء لم يحرم على المسلمين فحرم عليهم من أجل مسألة » وقال « ان الله فرض فرائض فلا تضيعوها ، وحد حدوداً فلا تعتدوها ، وحرم أشياء فلا تنتهكوها ، وسكت عن أشياء رحمة بكم غير نسيان فلا تبحثوا عنها »

والحكمة فى هذا أن التشريع إنما هو لدفع حاجات الناس . وتحقيق مصالحهم فينبغى أن يقتصر فى كل عصر على تشريع ما اقتضته حاجاته وتحقيق مصالحه حتى لا يجد اللاحقون من تشريع السابقين عقبات تحول دون تشريع ما يدفع حاجاتهم ، ويحقق مصالحهم » انتهى

ثم يلى المصدر الأول فى الأهمية المصدر الثانى وهو السنة وهى أقوال النبى صلى الله عليه وسلم وأفعاله بما روى عنه من أحاديث موثوق بصحتها وما قام به من أعمال ، وما حكم فيه من أقضية ، سواء فهم ذلك من صريح الصيغة أو الدلالة أو الاقتضاء .

وتحاشيا من الأحاديث الموضوعة يجب أن لا يؤخذ بأى حديث لا يتفق مع روح القرآن وما يرمى إليه من أهداف .

ثم بعد ذلك يأتى الاجماع ، ويكون من الشورى ؛ ومن اتفاق أهل الحل والعقد والثقاة من مجتهدى المسلمين وعلمائهم على رأى من الآراء ، وشأن من شئون الدين أو الدنيا بحيث يكونون مبرئين من المعايب الأخلاقية والنزعات الشهوانية معروفين بالصلاح والتقوى والجرأة فى الحق وعدم الخضوع لتأثيرات خارجية من سياسية أو غير ذلك من الأمور الدنيوية وقد أشار إلى ذلك القرآن فى قوله « وأمرهم شورى بينهم » ثم فى أمره للنبى عليه السلام بقوله « وشاورهم فى الأمر » فجعل لصحابته رأيا له قوته وصلاحه ونضوجه لذى يعتد به فلا مانع عقلا من أن يكون اتفاق علماء المسلمين وإجماعهم على رأى بشرط أن يكونوا متصفين بالصفات السالفة . . . أقول لا مانع يمنع من أن يكون اجماعهم واجب الاطاعة ملزم التنفيذ ...! وهذا ما نستطيع أن نلمس

صورة منه وإن كانت تختلف فى المظهر إلى أنها تتفق فى الجوهر . وذلك فى النظم الديمقراطية الحديثة حيث يعرض الرأى فى المجالس البرلمانية الممثلة للشعب ثم يصبح قانونا واجب التنفيذ اذا ما حصل على أغلبية الأصوات ومن جهة أخرى نرى علماء الاجتماع يقررون فى صراحة وثقة بأن رأى الجماعة يحترم ويعاقب من يخالفه ولو تبين بعدئذ أنه خطأ ورأى الفرد لا يعتد به مادام مخالفا لاجماع أهل البصر ، والنظر والمعرفة ولو ظهر فيما بعد أنه كان مصيباً

ثم يأتى بعد ذلك القياس : ويراعى فيه أن يكون متفقا مع روح الاسلام متمشيا مع ما ينشده من إصلاح ومايسعى إلى تحقيقه من أهداف كلها عدل ورقى بالإنسان وقد وضعناه فى مؤخرة المصادر التشريعية الأربعة لأنه إذا لم يتحقق رأى الجماعة القادرة على الإجتهاد والتى سبق أن سجلنا صفاتها.. إذا لم يتحقق رأى هذه الجماعة فى أمر من الأمور لعدم وجود الضرورة التى تقتضى حلا ، ولعدم إستظهار الحاجة التى تسأل عن دليل وتعتصم بقانون فلا مفر للإنسان إذا من أن يجهد فكره ويحكم عقله ولكن أحيانا يتعارض الإجماع مع القياس وذلك لظروف التطور ولسنة التغير فى النظر إلى الأشياء والحكم عليها وتفسير حقيقتها وذلك فى جيل بعد جيل وفى طور من أطوار الحياة بعد طور آخر وفى هذه الحالة يجب أن يلغى الاجماع فلا يعتد به ولا يعمل بمقتضاه لأن حكمة الشارع فى كل شىء هى مصلحة الانسان ورفعته وتساميه وعدم التضييق عليه فى حياته ووسائل معيشته وعدم التزامه لشىء ليس فيه خيره ولا مصلحته ولذلك نرى النبى صلى الله عليه وسلم لما أشار على صحابته بتأبير النخل بشكل خاص فلما يصلح النخل بذلك رجع النبى عما أشار به وقال لأصحابه (أنتم أعلم بأمور دنياكم)

ولكن ربما يقول لنا قائل إن هذا فيما يختص بالأمور الدنيوية لا الدينية وجوابنا على ذلك أن القواعد التى ابتنى عليها الاسلام ، وشرع من أجلها الأحكام أن أمور الدنيا والدين متلاصقة بعضها ببعض مكملة بعضها بعضا بل نستطيع أن نقول فى ثقة وقوة ، أن الأمور الدينية ما هى الا وسيلة لاصلاح الأمور الدنيوية . وإن الإسلام فى كل ما دعا إليه كان دائما مراعياً صلاح

الانسان وخيره ونفعه لنفسه وللمجتمع الذى يعيش فيه ليكون ذلك ثمنا يقدمه لحظوته فى حياته الآخرة ، وتمتعه فيها بجنات الفردوس والنعيم

فالاسلام يشذ من هذه الناحية عن كل الديانات، وضعية كانت أو سماوية . فصفات الانسان وأعماله ، وما يكتسبه فى دنياه هى وحدها التى تقرر مصيره الأخروى ، وهى وحدها التى تبرز تقواه وصلاحه أو كفره وفساده فجميع العبادات الروحية التى دعا إلى الأخذ بها مثل الصلاة والصوم والزكاة والحج ما هى إلا وسائل تؤدى إلى تحقيق غايات هى لب الاسلام وجوهره وحقيقته مثل الصدق والوفاء والأمانة والاخلاص ، وتكوين ضمير حى يراقب الله فى أعماله ، ويعلم أنه مطلع عليه فى كل خطرة من خطرات نفسه وهمسة من همسات فؤاده ، فيكون بذلك إنسانا عاملا مفيداً لنفسه وللمجتمع الذى يعيش فيه

ولقد دعا النبي فى حياته إلى الاجتهاد فيما لم ينزل به تشريع من قبل الله ، وفيما لم يذكر بحديث قاله رسول الله ، وذلك فيما رواه البغوى عن معاذ بن جبل أن رسول الله صلى الله عليه لما بعثه الى اليمن « قال كيف تقضى اذا عرض لك قضاء قال أقضى بكتاب الله . قال فإن لم تجد فى كتاب الله . قال فبسنة رسوله . قال فإن لم تجد فى سنة رسوله ، قال اجتهد رأيي ولا آلو ، قال فضرب رسول الله على صدره وقال الحمد لله الذى وفق رسول رسول الله لما يرضى رسول الله »

وإذا ما لاحظنا نحن أن الاسلام لم يأت خاصاً لشعب من الشعوب دون شعب آخر ولا لأمة من أمم العالم دون بقية الأمم الأخرى ، وإنما أتى عاماً داعيا الجنس البشرى بأجمعه إلى الانضواء تحت لوائه والى العمل به فلم يكن له إذاً بد من أن يكون فى تشريعه مرناً بعيد النظر مقدراً عامل البيئة واختلافها باختلاف الاجناس البشرية مراعياً سنة التطور فى الكائنات عاملا على السير معها جنبا الى جنب

وإذا ما استوعبنا ماهيته وتعمقنا إلى أسراره ، وأردنا أن نخرج بصفات ذاتية له نجد أنه اشتمل على هذه الصفات التى نجملها فيما يأتى شارحين أغراضها وأهدافها فيما بعد

أولا : قرب بين الانسان وخالقه فليس فيه شيء البتة من النظام الكهنوتى

الذى اشتملت عليه جميع الأديان السابقة

ثانيا : دعا الى المساواة المطلقة فليس هناك سيد ولا مسود أمام ماشرعه من حقوق وواجبات

ثالثا : نزل بطريق التدرج . ولم ينزل دفعة واحدة مراعيا بذلك مصلحة الانسان وظروف الزمان والمكان

رابعا : نزل بطريق الاجمال ليترك مجالا لاجتهاد الانسان ، وليكون مرنا متفقا مع طبيعة التدرج والرقى فى الانسان

خامسا : جعل العبادات جميعها وسائل لاغايات

سادسا : راعى حرية الفرد مادامت لا تتعارض مع مصلحة المجموع

سابعا : جوز المحظورات عند الضرورات

ثامنا : قرر أنه إذا تعارض النقل والعقل أخذ بما يتفق والعقل

تاسعا : جعل أحكامه مرنة تخضع فى طبيعتها لظروف الزمان والمكان وطبيعة الحوادث وحقيقة الواقع ومصالح الناس

عاشراً : حارب الكهنوتية والسلطة الدينية . فلكل إنسان نير البصيرة ناضج العقل الحق فى طرق باب الاجتهاد ولو كان من عامة الناس

احدى عشر : جعل الأصل فى الاشياء الاباحه

اثنى عشر : جوز ترك الفروض والواجبات اذا كان فى آدائها ضرر

ثالث عشر : كان فى كل ما دعا اليه من ترغيب فى الجنة وترهيب من النار مرتبطاً ارتباطاً وثيقاً بصفات الانسان الخيرة أو الشريرة ومايكتسبه فى دنياه من صلاح أو فساد ، ومن خير أو شر

هذه هى أهم الصفات التى تعتبر ذاتية للإسلام لا يشاركه فيها دين آخر ولا دعوة أخرى من الدعوات الالهية أو الانسانية ، ونحب أن نلم بها المامة خاطفة . محاولين كشف حقيقتها واستيعاب ما هيتها فأول صفة من هذه الصفات التقريب بين الانسان وخالقه فليس هناك واسطة أو حائل بين إنسان كائن من كان وبين خالقه فالقرآن الكريم يقول (وقالى ربكم ادعونى أستجب لكم) والله يخاطب رسوله بقوله (إنك لا تهدى من أحببت ولكن الله

يهدى من يشاء) . ويقول أيضاً أثناء تعرضه للمنافقين (سواء عليهم استغفرت لهم أم لم تستغفر لهم لن يغفر الله لهم إن الله لا يهدى القوم الفاسقين)

ورسول الله يخاطب عشيرته وذويه بقوله (يامعشر قريش اشتروا أنفسكم لا أغنى عنكم من الله شيئا . يابنى عبد مناف لا أغنى عنكم من الله شيئا ياعباس ابن عبد المطلب لا أغنى عنك من الله شيئا ويا فاطمة بنت محمد سلينى ما شئت من مالى لا أغنى عنك من الله شيئا)

وهكذا من يدرس القرآن . ومن يبحث دعوة الاسلام يجد أن هذا الدين أخذ بهذا المبدأ وحمل معتنقيه أتباعه على واستساغته والعمل به حتى أصبح عنصرا قويا من عناصر إيمانهم الصحيح ، وكان من المقومات الخطيرة فى تصحيح عقيدتهم الالهية فالرسول الذى أتى بهذه الرسالة ، والذى أوحى اليه بالتنزيل لم يمكن له شأن الا أنه بشر كلف أداء واجب فقام به خير قيام ، ولم يطمع فى أنه أكثر من رسول من قبل الله الى البشر حاملا لهم الهداية والرشاد حاثا لهم على السير فى طريق الرقى والتقدم ، ولم يمنح لنفسه امتيازاً أو حقا بالنسبه لصحابته وتابعيه من المسلمين ، وإنما كان دائماً يشعر اتباعه والمؤمنين به أنه لا يمتاز عنهم فى شىء من الحقوق الدنيوية ، وأنه ليس الا بشراً مثلهم له مالهم وعليه ما عليهم حتى أن زوجته عائشة رضى الله عنها أبت أن تشكره لما برأها الله من حديث الافك فيما نزل به القرآن فى قوله تعالى (ان الذين جاءوا بالافك عصبة منكم لا تحسبوه شراً لكم بل هو خير لكم لكل امرىء منهم ما اكتسب من الاثم) الى قوله تعالى (ولو لا فضل الله عليكم ورحمته ما زكا منكم من أحد أبداً ولكن الله يزكى من يشاء والله سميع عليم) فلما نزلت هذه التبرئة لعائشة رضى الله عنها وهى فى بيت أبويها قالت لها أمها قومى فاشكرى رسول الله فردت عليها بقولها لا والله لا أشكر الا الله الذى برأنى . . . ! وفضلا عن ذلك فإن رسول الله لم يدع قط القدرة على اتيان المعجزات ، وإنما كانت معجزته الكبرى التى تحدى بها الكفار والمنافقين من أساطين البلاغة وفصحاء العرب . . ! كانت هذه المعجزة هى القرآن الكريم بما فيه من روعة ، وما فيه من جلال

وما فيه من أعجاز ليس فقط لفصاحته وبلاغته ، وحسن وقعه فى النفوس والقلوب وإنما لذلك ولما حمله من تشاريع ، وما دعا اليه من مبادىء لم يتخيل أحد من عظماء مفكرى العالم وقادته تشاريع أو مبـــادىء توازيها ولا نقول تفوقها فى الروعة والسمو والكمال بل إن لله نفسه قد تحدى كفار العرب وبين لهم أن القرآن هو المعجزة الكبرى لرسالة محمد عليه السلام قال تعالى (وإن كنتم فى ريب مما نزلنا على عبدنا فأتوا بسورة من مثله وادعو شهداءكم إن كنتم صادقين) وفى قوله جل شأنه (أفلا يتدبرون القرآن ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافاً كثيراً)

ولن نستطيع نحن أن نتخيل أخلاقا ، ولا بساطة تمثل بها صاحب رسالة ومنشىء دين ودولة مثل اخلاقه وبساطته عليه السلام فكل ما كان يعن له من الأمور أو ينهض له من المشاكل كانت الشورى هى سبيله الوحيدة التى يسلكها ليس فيما يختص بأمور دعوته فقط وإنما فيما يختص بأموره الشخصية أيضا كما حدث فى أمر عائشة لما ظهر حديث الإفك واستشار فى شأنها عمر وعليا وأسامة بين زيد .

فهذه السياسة التى التزمها الرسول فيما بينه وبين صحابته وفيما بينه وبين اتباعه من المسلمين ، وهذه التعاليم التى صاحبت دعوته الاسلامية وهذه الأخلاق التى برزت بروزاً واضحا فى أقواله ، وأفعاله ، والتى أصبحت من بعده دستوراً قويا تمسك به معاصروه من صحابته وخلفائه الراشدين هى حقيقة جوهر الاسلام الذى جاء يعترف بالفرد ويرتفع ويعتز به ، والذى جاء يبعث الكرامة البشرية من رقادها وامتهانها ، ويعمل فى سبيل الحرية الفردية التى تعتبر من ألزم اللوازم لنهوض الانسان ورقيه وتحضره

فالوصل بين الانسان وبين الله فيه محاربة للكهنوتية البغيضة المخزية ، وفيه منع لاحتكار السلطة الدينية التى نشأ عنها الاستبداد والتى نشأ عنها تأخر كثير من الشعوب وانحطاطها وتردیها فى هوة سحيقة من الجهل والفقر والمرض ، والبؤس الشديد المضنى

وليس ببعيد ما أدى اليه تعنت الكنيسة وسلطة البابا وأوتقراطيته من انكماش المعرفة الانسانية ، ومن اضمحلال الحرية الفردية وانزوائها ، ومن التعاسة

والشقاء الذى كان مخيما على العالم المسيحى طيلة القرون الوسطى ، ومن القسوة والبشاعة ، والظلم الذى سلب الأفراد والجماعات كل ميزاتهم الانسانية ، وتركهم يترنحون فى ظلام الجهل وقسوة الفقر ، ولم يستطيعوا أن ينهضوا ويردوا اعتبارهم الا بعد أن قضوا على نفوذ الكنيسة قضاء لاهوادة فيه

وليس ببعيد أيضاً ما جرته الخلافة الاسلامية بعد عصورها الأولى من فتن وقلاقل ودسائس واغتيالات أخذ بها المسلمون فى بقاع المعمورة أخذاً وما منحه بعض الخلفاء لا نفسهم من السلطة ليس على الأمور الدنيوية فقط وانما على الأمور الدينية أيضا باعتبارهم كما يزعمون خلفاء الله فى الأرض ، وشجعهم على أو تقراطيتهم هذه التى ظهرت بأبشع صورة بعض علماء الدين من النفعيين والرجعيين الذين لا يهمهم الا ملء بطونهم وأشباع شهواتهم فالتمسوا لهم آية من القرآن تدل على وجوب طاعتهم والانصياع لهم فى قوله تعالى (وأطيعوا الله والرسول وأولى الأمر منكم) ولم يفهموا الناس أن طاعة ولى الأمر تسقط متى حاد عن الطريق السوى واتبع طريق الضلال والفساد والظلم والطغيان

هذه هى الصفة الأولى من الصفات الذاتية للاسلام وتليها الصفة الثانية وهى دعوته الى المساواة المطلقة فيما شرعه الله من حقوق وواجبات قال الله تعالى (ياأيها الناس انا خلقناكم من ذكر وانثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا ان اكرمكم عند الله أتقاكم) وقال الرسول الكريم (الناس سواسية كأسنان المشط) . (ولا فضل لعربى على عجمى ولا لعجمى على عربى الا بالتقوى) أو مما قاله لأبى ذر الغفارى لما تقاول أمامه مع عبد زنجى فقال أبو ذر للزنجى يابن السوداء فغضب الرسول وقال لأبى ذر « طف الصاع طف الصاع ليس لابن البيضاء على ابن السوداء فضل الا بالتقوى أو بعمل صالح »

وفى الواقع ان المفكر ليقف فخورا بالاسلام أمام هذه الصفة ، أو أمام هذا المبدأ من المساواة المطلقه التى دعا اليها بكل ما يملك من قوة واقناع حتى قال الرسول عليه السلام (لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه)

ولم يكتف بالدعوة والقول فقط ، وإنما حقق هذه المساواة بطريقة عملية

مثل الحج وصلاة الجماعة حيث يقف الغنى بجانب الفقير ، وصاحب السلطان والجاه بجانب من لا سلطان ولا جاه له .

نعم إن المفكر ليقف أمام هذا المبدأ منحنى الرأس إجلالا وتقديراً لعبقرية الإسلام ، وأخذه بيد الانسانية فى تقدمها وتحضرها ، وعمله على أن يكون لها سنداً قويا يدرأ عنها شريعة الغـــابة التى كانت تتجاذبها ، وقانون الاستعباد الذى كان يسيطر عليها .

وإن من الأمـــور المدهشة ، والبالغة فى الروعة والكمال أن صفات الاسلام وأركانه متصل بعضها ببعض مكمل بعضها بعضاً بحيث لو عطل أحدها كان فى ذلك قضاء على الآخر من الصفات والأركان وبالتالى كان فى ذلك تعطيل لعمل الاسلام .

وهذه الصفة التى نحن بصددها : وهى المساواة المطلقه بين الناس جميعا قويهم وضعيفهم وغنيهم وفقيرهم متصلة اتصـــالا وثيقا بالصفة الأولى وهى التقريب بين الانسان وبين خالقه لأنه إذا كان الأفراد بالنسبة لله متساوين ليس لأحدهم ميزة على الآخر فى قربه من الله إلا بعمل صالح يعمله ، والكل قادر على أداء هذا العمل الصالح ، فيجب أن يكونوا متساوين أيضا فى نصيبهم من الحيلة وحظوظهم من الدنيا ، ومالهم من حقوق ، وما عليهم من واجبات

وان الباحث عندما يقرأ تاريخ التحضر البشرى الذى دون قبل الاسلام ، وعندما يبحث فى التشاريع التى نهض بها أعظم الفلاسفة والمفكرين قبل نزول الدعوة الاسلامية ، ويقارن ذلك كله بما أتت به الشريعة الاسلامية من قوانين ومبادىء جديدة يجد أن هذا الدين كان مدركا الناحية السيكولوجية التى تختمر ضمير العالم وضمير التطور البشرى ، وكان من ناحية تمشيه معها ومراعاته لها ناجحا كل النجاح لأن العالم كان فى حالة فزع قاسية شديدة من النظام الطبقى الذى كان مسيطراً عليه آخذا بخناقه ، ولم يجد فى التشاريع اليونانية والرومانية ما يحقق له الأغراض والأهداف الحقة فى المساواة ، والتى تتفق مع تحضره ورقيه لأن ارسطو كما قلنا فى غير موضع من هذا الكتاب كان يقر النظام الطبقى ،

بل كان يقر الاستعباد ويرى أن الله خلق نوعين من بنى الانسان أسيادا وهم اليونانيون ، وعبيداً وهم غيرهم ن الشعوب ، وعلماء القانون الرومانى كانوا يحبذون النظام الطبقى أيضا ، ويعملون على وجود قوانين للأشراف والأسياد وقوانين أخرى للرعاع والعبيد .

فلو بحثنا فى التشريعات اليونانية والرومانية عن أى أثر للمساواة نجد أنه قد كانت هناك مساواة حقا ، ولكنها مساواة متفقة مع النظام الطبقى ، فما يجوز على طبقة لا يجوز على طبقة أخرى غيرها ، وما يحل لفرد من طبقة لا يحل لغيره من أبناء الطبقات الأخرى ، ومن هنا نعلم أن المساواة المطلقه لم تكن موجودة البتة قبل الاسلام حتى فى الديانات السماوية التى سبقته. لأننا لو وجدنا دعوة لها إلى المساواة ، إما أن نجدها مقيدة ضيقة خاصة بشعب دون شعب وبأمة دون أمة كما هو الشأن فى الديانة اليهودية وإما أن نجدها قاصرة على شئون الحياة وحظوظ الدنيا فقط ناقصة مبتورة تكاد تكون معدومة فى مسائل الدين كما هو الشأن فى الديانة المسيحية وما اصطنعته من النظام الكهنوتى...!

واننا لو وقفنا وقفة قصيرة عند المساواة التى دعا إليها الاسلام ، والتى تمثل بها النبى وصحابته وخلفاؤه الراشدون فى حياتهم نجد أنهم حافظوا على هذه المساواة محافظة دقيقة ونفذوها بكل ما تحمل من معنى وما ترمى إليه من هدف وكتب السيرة ومصنفات التاريخ الاسلامى تحدثنا عن شىء لا ينفد من صور هذه المساواة الرائعة الدقيقة المتغالية فى الدقة .

ولقد تحدثنا نحن كثيراً عنها فى الفصل السابق ؛ وأتينا بصور عديدة تمثل بها النبى عليه السلام ؛ وتمثل بها خليفته الثانى عمر بن الخطاب فليرجع اليها من يشاء .

بيد أننا نحب أن نعرف أى أثر تركته هذه المساواة ، وأى تأثير اهتز له كيان العالم من جرائها ؟

والشىء الذى لا سبيل إنكاره أو التقليل من شأنه أن هذه المساواة المطلقه بعثت الأخلاق الانسانية بعد أن كانت منزوية ضئيلة ممتهنة مريضة تكاد تلفظ

نفسها الأخير ، وأنها أحيت موات الأنفس ، وحببت الشجاعة والاقدام ، والصراحة والصدق ، والاعتزاز بالنفس ، والمحافظة على الكرامة البشرية بعد أن كان ذلك كله فى حكم الخيال بل فى حكم الفناء .

لقد قلنا ان الاسلام نجح نجاحا باهرا فى مقدار وعيه ، واحتفاله بالناحية السيكولوجية فى المجتمع الانسانى ، ونحن نردد هنا هذا القول مرة ومرتين وثلاثا ، فلم نعرف أن دينا من الأديان أو دعوة من الدعوات الانسانية كانت تدرك الطريق الذى ستسلكه الانسانية وكانت تحيط بالخطوات التى ستخطوها فى مستقبل أيامها فتعمل لذلك عملها وتأخذ من أجل ذلك عدتها ، وتنهض بما يجب أن يسيطر على ضمير الانسانية إذا ما دخلت فى دور الرقى والتحضر إلا الاسلام .

وهكذا كانت دعوته إلى المساواة المطلقه التى لا سبيل إلى ازدهار الأخلاق الانسانية بدونها ، والتى لا سبيل إلى إحياء الكرامة البشرية بغيرها ، والتى لا سبيل إلى تهذيب الانسان وتحضره وسموه بدون هذه المساواة حتى أننا نجد جان جاك روسو الفيلسوف الفرنسى يقيم دعائم مذهبه الذى خرج به على العالم فى القرن السابع عشر الميلادى على هذه الكلمات الثلاث (العدل ، والاخاء ، والمساواة) والذى قامت من أجله الثورة الفرنسية وحطمت الظلم والطغيان ونظام الطبقات . . . !

وليس ذنب الاسلام أنه قد دخلت فيه عناصر سيئة هو برىء منها أبطلت عمل هاتين الصفتين اللتين تحدثنا عنهما وهما : التقريب بين المخلوق والخالق والمساواة المطلقة مما سنسهب فى الحديث عنه فيما يلى من فصول هذا الكتاب .

وننتقل الآن بالكلام إلى الصفة الثالثة من الصفات الذاتية للإسلام : وهى التدرج فى كل ما فرضه من قوانين ، وما شرعه من أحكام ، ولأجل أن نفهم السر فى ذلك يجب أن لا نهمل دراسة النفس الانسانية ، وأنها لا تركن إلا لما تهضمه وتستسيغه وتجد فيه خيرها وسعادتها ، ويجب أن لا نهمل كذلك أن الاسلام وهو دين العقل ، ودين الاقناع بالحسنى كان محافظا كل المحافظة على

هيبته وجلاله فكان حريصا على أن يكون مطاعا دائماً فى غير تعنت ولا تعسف ، وبدون مشقة أو إرهاق .

ومن هنا شرع الفروض ، والأحكام ، والعبادات ، والمعاملات على فترات عديدة هى جملة السنوات التى عمرها الرسول بعد تكليفه بالرسالة إلى أن رفع إلى الرفيق الأعلى .

والشىء الذى نستطيع أن نعلل به ذلك : هو أن الاسلام فى مرونته وليقاته كان سهلا لينا رفيقا فى تكليفه لأتباعه ، وكان حريصا على أن لا يتعارض البتة مع العقل ، ولا مع المنطق ، ولا مع مقتضيات الحياة ، فكان لا يكلفهم شيئا ولا يفرض عليهم أمرا إلا بعد أن يصبح ضرورة عاجلة لهم تتكيف به حياتهم ، ونظام معيشتهم ، وبعد أن تستسيغه عقولهم وتهضمه فى حرية وبدون ضغط .

وكان من ناحية أخرى مراعيا مصلحة الإنسان وحريته الفردية فلم يشأ أن يقيده بأشياء لم تنشأ لها بعد حاجة ملحة لأن الأصل عنده الاباحة فى كل شىء ما دام لم ينزل فيه تشريع يحدد حدوداً أو يرسم قانوناً ، ولأنه كان دائما عاملا على التضييق فى التقنين للأحكام الشرعية فلم يحتفل بكثير من الأشياء القابلة للتبدل والتغير بحكم الزمن والتطور ؛ ولم يكن يعنيه إلا الأشياء والحوادث التى يكتنفها الحاضر ويقتضيها فى حل مسائله وقضاياه ، ومشاكله . . . ! ولم يسأل البتة عما سيحدث فى المستقبل فيفرض له فروضا ، ويرسم له قواعد ويصدر له أحكاما ، وإنما ترك أمر ذلك لظروف الحياة ولطبيعة الزمان والمكان والحوادث وسبيل علاجها حتى يترك مجالا لحرية الانسان العقلية ، وحتى لا يتسم بالجمود ، ويتصادم مع حقيقة الواقع ، وسنة التطور البشرى ، واختلاف نظرة الانسان للأشياء والحوادث ، وحكمه عليها فى جيل بعد جيل ، وفى زمان بعد زمان

قال الأستاذ عبد الوهاب خلاف فى كتابه (تاريخ التشريع الاسلامى) « من الأمور التى روعيت فى التشريع الاسلامى التدرج فى التشريع وهذا التدرج كان فى زمن التشريع ، وكان فى أنواع الأحكام التى شرعت فالتدرج الزمنى ظاهر فى أن الأحكام التى شرعها الله ورسوله لم تشرع دفعة واحدة

فى قانون واحد وإنما شرعت متفرقة فى مـــدى إثنين وعشرين عاماً وبضعة شهور حسب ما اقتضـــاها من الأقضية والحوادث ، وكان لكل حكم تاريخ لصدوره ، وسبب خاص لتشريعه ، والحكمة فى هذا التدرج الزمنى أنه ييسر معرفة القـــانون بالتدريج مادة فمادة ، وييسر فهم أحكامه على أكمل وجه بالوقوف على الحادثة والظروف التى اقتضت تشريعها والتدرج فى أنواع ماشرع من الأحكام ظاهر فى أن المسلمين لم يكلفوا فى أول عهدهم بالاسلام بما يشق عليهم فعله ، أو ما يشق عليهم تركه ، بل سلك بهم سبيل التدريج وأخذوا بالرفق حتى تكون استعدادهم واستأهلوا للتكاليف ففى أول أمرهم لم تفرض عليهم الصلاة فرائض فى اليوم والليلة ركعات محدودة فى كل فريضة ، بل طلبت منهم صلاة مطلقة بالغداة والعشى ، ولم تفرض عليهم الصلاة بعددها وركعاتها إلا قبل الهجرة بسنة ، ولم تفرض عليهم الزكاة والصيام إلا بعد الهجرة بسنة وكان المكلفون به قبل ذلك ما استطاعوا من صدقة وصوم ، ولم تحرم عليهم الخمر والميسر وكثير من عقود الزواج والربا والمعاملات التى كانوا يتعاملون بها فى جاهليتهم إلا بالمدينة ولهذا كان قوله تعالى (حرمت عليكم الميتة والدم ولحم الخنزير وما أهل لغير الله به والمنخنقة) من آخر ما أنزل من القرآن بعرفات يوم حجة الوداع .

والحكمة فى التدرج فى انواع الأحكام : أنه هو العلاج لإصلاح النفوس الجامحة ، والوسيلة لتقبل التكاليف وامتثالها من غير ضجر ولا عنت » انتهى

والشىء الذى نحب أن تلاحظه ، وأن تتذكره دائما أثناء قراءتك هذا الكتاب أن صفات الاســـلام وأركانه وقواعده متصل بعضها ببعض مكمل بعضها بعضا بحيث لو عطل بعضها أو أحدها لا ستتبع ذلك حتما إبطال عمل باقى الصفات والاركان والقـــواعد وليس غرضنا من ذلك إلا أن نرسم لك الاسلام على حقيقته قبل تدخل فيه عناصر غريبة عنه سنلم بها فى حينها ، وسنوضحها لك فيما يلى من فصول هذا الكتاب لنظهر لك فلسفة الاسلام الأخلاقية وخطورته التشريعية ، ومرونته التى اتسم بها فى عصره الأول أيام النبى وأيام خلفائه الراشدين

ولم يبق إلا أن ننتقل إلى الصفة الرابعة من الصفات الذاتية للإسلام ، وهى أنه نزل فى كثير من التكاليف والتشاريع مجملا ليترك بذلك مجالا لاجتهاد الانسان ، وليشجع حرية البحث والنظر والتفكير فى استقلال ، وليكون مرنا متفقا مع طبيعة التدرج والرقى الانسانى ، وليتفق فى المنهج التكليفى العملى مع روحه ومبدئه الذى دعا اليه فى غير موضع من القرآن الكريم . وهو أنه أتى مواجها العقل فى كل أمر من أموره ، وقضية من قضاياه ، وحكم من أحكامه ، ولم يقلل من قوته أو يكفر بمزاياه ، وانما اعترف به ، وجعله مناط رسالته والعامل الأول على التصديق بدعوته

قال القرآن الكريم مشيداً بالعقل ، محكما إياه فى كل ما يعرض من مشاكل . وما ينهض من أمور (أفلا يتدبرون القرآن ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافا كثيرا) (واذا قيل لهم اتبعوا ما أنزل الله قالوا بل نتبع ما ألفينا عليه آباءنا أو لو كان آباؤهم لا يعقلون شيئا ولا يهتدون) (أفلم يسيروا فى الأرض فتكون لهم قلوب يعقلون بها أو آذان يسمعون بها فإنها لا تعمى الأبصار ولكن تعمى القلوب التى فى الصدور) (ويتفكرون فى خلق السموات والأرض ربنا ما خلقت هذا باطلا) (هل يستوى الذين يعلمون والذين لا يعلمون إنما يتذكر أولوا الألباب) (ان يتبعون إلا الظن وان الظن لا يغنى من الحق شيئاً) (قل هاتوا برهانكم إن كنتم صادقين) (وقل رب زدنى علما)

والرسول الكريم يقول « الدين هو العقل ، ولا دين لمن لا عقل له » ويقول « خذ الحكمة ولا يضرك من أى وعاء خرجت » ويقول أيضا « فقيه واحد أفضل عند الله من ألف عابد » ويدعو فى صراحة وقوة إلى تحكيم العقل فى كل ما يعن من الأمور وبالأخص فيما لم ينزل به تشريع ولم يذكر بحديث وذلك فيما رواه البغوى عن معاذ بن جبل أن الرسول لما أرسله إلى اليمن « قال كيف تقضى إذا عرض لك قضاء قال أقضى بكتاب الله قال فإن لم تجد فى كتاب الله قال فبسنة رسوله قال فإن لم تجد فى سنة رسول الله قال اجتهد رأى ولا آلو قال فضرب رسول الله على صدره وقال الحمد لله الذى وفق رسول رسول

الله لما يرضى رسول الله »

وعمر بن الخطاب رضى الله عنه أوصى أبا موسى الأشعرى لما ولاه الكوفة قائلا له :-

(ولا يمنعك قضاء قضيته أمس فراجعت اليوم فيه عقلك ، وهديت فيه لرشدك أن ترجع إلى الحق فإن الحق قديم ، ومراجعة الحق خير من التمادى فى الباطل الفهم الفهم فيما تلجلج فى صدرك مما ليس فى كتاب ولا سنة ثم اعرف الأشباه والأمثال وقس الأمور بنظائرها)

هذه هى الدلائل التى لا تقبل شيئا من الشك فى اعترافها بالعقل واستخدامها له فى استظهار وتيسير ما أجمل من العبادات والمعاملات والحكمة فى مشروعيتها كالصلاة والصيام والحج والزكاة والحدود ثم الهبة والوصية والميراث والنكاح وكافة التشريعات الأخرى .

ونحب بعد ذلك أن نوجه سؤالين ، لأنفسنا ، ولمن يعنون بدراسة الإسلام من الوجهة التشريعية وهما :

أولا : هل التشريع الاسلامى يخضع للبيئة وظروف الزمان والمكان أم أن البيئة وظروف الزمان والمكان هى التى تخضع للتشريع .

ثانيا : هل الاسلام يقبل تغيير وسائله ومظاهره فى جيل بعد جيل ، وفى زمان بعد زمان ما دام فى ذلك حفظ لجوهره وتحقيق لغاياته ، أم لا يقر تغيير هذه الوسائل والمظاهر وإن كانت لم تعد صالحة لتحقيق غاياته ، والمحافظة على جوهره .

وجوابنا على السؤال الأول أن التشريع الاسلامى هو الذى يخضع للبيئة ولظروف الزمان والمكان لأن المقصود من التشريع هو تحقيق مصالح الناس والعمل على تمكينهم من التمتع بكل الميزات الانسانية التى فيها رفاهيتهم وقوتهم وسعادتهم ، وعدم التضييق عليهم فى حرياتهم الفردية ، وعدم تكليفهم ما فيه مشقة وعسر عليهم .

ولو نظرنا نحن إلى مصالح الناس ، وإلى نظرتهم للحياة وحكمهم عليها نجد

أن هذه المصالح تختلف بالنسبة لهم باختلاف الزمان والمكان ، ونجد من جهة أخرى أن نظرتهم للحياة وحكمهم عليها وعلى الأشياء جميعاً تتميز هى الأخرى مع اختلاف العنصر ومع تغير البيئة . والباحث فى التشريع الاسلامى من أول القرن الثانى للهجرة إلى منتصف القرن الرابع يجد أن أئمة الاجتهاد والمشرعين الاسلاميين راعوا طبيعة هذا الاختلاف ، وحكم هذا التميز وما يقتضيه ذلك من اخضاع التشريع الاسلامى للبيئة ولظروف الزمان والمكان فالامام الشافعى رضى الله عنه أنشأ مذهبين أحدهما قديم وقد أنشأه فى العراق والثانى حديث وقد أنشأه فى مصر وهما يختلفان عن بعضهما اختلافا بينا لاشك فيه ولم يأخذ عليه أحد أنه أخطأ أو ضل السبيل ، وإنما عمل هو بما تقتضيه طبيعة الأشياء وطبيعة العادات والتقاليد واختلافها فى بيئة عن بيئة وفى أمة عن أمة

قال الأستاذ عبد الوهاب خلاف فى كتابه تاريخ التشريع الاسلامى (من الأمور التى روعيت فى التشريع مسايرة التشريع مصالح الناس وبرهان هذا أن الشارع علل كثيراً من أحكامه بمصالح الناس ودل بشواهد عدة على أن المقصود من تشريع الأحكام تحقيق مصالح الناس ، والأحكام تدور مع عللها وجوداً وعدما ، ولهذا شرع الله بعض الأحكام ثم أبطلها ونسخها لما اقتضت المصلحة تعديلها فقد فرض الاتجاه فى الصلاة إلى بيت المقدس ثم نسخه ، وفرض الاتجاه فى الصلاة إلى الكعبة ، وفرض عدة المتوفى زوجها حولا ثم نسخه وفرضها أربعة أشهر وعشرة أيام ؛ والرسول نهى عن ادخار لحوم الأضاحى لأجل الوفود التى كانت بالمدينة أيام العيد ثم أباح ادخارها لمارحات تلك الوفود ؛ ونهى عن زيارة القبور ثم أباحها فهذا النسخ والتبديل والتعديل فى وقت التشريع برهان على أن التشريع الاسلامى ساير مصالح الناس ولهذه المسايرة نفسها راعى الشارع عرف الناس وقت التشريع ما دام لا يهدم أصلا من أصول الدين فراعى الكفاءة فى الزواج ، وراعى العصبية فى الإرث والولاية وفرض الدية على العاقلة لأن من مصالح الناس أن تراعى عاداتهم وما جرى به عرفهم مادام لا يعارض أصلا دينيا ولا يجلب ضرراً انتهى)

ثم نجيب عن السؤال الثانى فنقول إن الاسلام يقبل من غير شك تغيير هذه الوسائل والمظاهر ما دام يتأتى من هذا التغيير تحقيق لغاياته فى سهولة ويسر وبأوسع طريقة وأدق معنى فالفقر الذى عالجه الاسلام فى الزمن الأول بالزكاة وبدعوة القادرين على الاحسان قبل أن تتسع مسائل الحياة وتتعقد إلى هذا الحد الذى نراه ، وقبل أن توجد هذه الحضارة المادية وما صحبها من وجود فروع شتى للإنتاج سواء كان ذلك للكماليات أو الضروريات وبالتالى لكثرة المطالب التى لا يمكن أن يقنع بغيرها إنسان اليوم بعكس زميله بالأمس ثم لما اعترى حالة المجتمع الانسانى من انتشار العلم وكثرة الصناعات وتفرعها ووجود أبواب كثيرة لاستغلال العقل ولاستغلال الأيدى العاملة لكل ذلك نعتقد أن محاربة الفقر والقضاء عليه بالوسيلة الأولى غير مجد وغير مؤد إلى الهدف الذى ينشده الاسلام وهو خلق مجتمع غنى قوى أفراده متعاونون بعضهم مع بعض ، ثم لتلاشى بعض هذه الأصناف التى كان لها حق معلوم فى الزكاة .

والشىء الخليق إذاً بتحقيق الغاية من مشروعية الزكاة وهى محاربة الفقر تتأتى فى أن الدولة هى المسئولة عن الفرد بجعله مواطنا صالحاً نافعاً فإذا كان الفقر ناشئاً عن بطالة وجب عليها أن تخلق له العمل ، وإذا كان ناشئاً عن عجز من مرض أو شيخوخة وجب عليها أن تعالجه حتى يشفى أو تؤمنه ضد ذلك المرض والشيخوخة إذا كان ميئوسا منهما أما إذا كان ناشئا عن جهل فيجب عليها أن تعبىء كل جهودها للقضـــاء على هذا الجهل الذى يعتبر وصمة عار فى جبين الانسانية وفى جبين الوطن ولا غبار عليها فى أن تفرض من الضرائب التصاعدية ما تشـاء لأن هذا ضريبة واجبة على كل مواطن يفرضها التكافل الانسـانى وتوجبها العدالة الاجتماعية ، ولأن واجب الدولة باعتبارها مسئولة مسئولية دقيقة بكل ما تحمل هذه المسئولية من معان عن جميع المواطنين يفرض عليها ذلك فرضا لا مفر لها من النهوض به .

واننا نجد الاسلام فى عصره الأول قبل أن تتعقد ظروف الحياة بهذا الشكل الذى نراه وقبل أن توجد كل هـذه المظاهر المادية وما نشـأ عنها من

كثرة المصالح التى أوجدت علاقات جمة خطيرة بين الناس بعضهم بعضا لا غنى لهم عن تنظيمها فى شىء من الحق والعدل إذ ما أرادوا أن يعيشوا فى سلام ووئام

أقول نجد الاسلام قد أوجب الاشتراك والتكافل بين الغنى والفقير والقادر والمعدم فى حظوظهم من الحياة فقال تعالى (وفى أموالهم حق معلوم للسائل والمحروم) وهذا دليل على أنه كان مقدراً سنة التطور البشرى واعيا العوامل التى لن تؤثر فى حياة الأفراد فقط ، وإنما سيتأثر بها العالم الانسانى أجمعه فى كل ما يعتوره من أحداث ، وما يلم به من مشاكل . . . !

وليس رأينا هذا الذى ننادى به لغوا أو بدعا من القول وهو أن الاسلام يقر تغيير وسائله التى عمل بها الرسول وعمل بها صحابته فى كثير من المعاملات والحدود لأن العبرة والمعول على تحقيق الغاية وليس على المحافظة على الوسائل

نعم ليس رأينا هذا لغواً ولا بدعا فإننا رأينا الشرع يربط بين كل ركن من أركانه ، وبين تحقيق مصلحة وفائدة للإنسان ونجده قد غير وبدل ونسخ أحكاما وأتى بغيرها لما اقتضت مصلحة الإنسان ذلك كما رأيت فيما ذكرناه لك عن الأستاذ عبد الوهاب خلاف .

ومن المحقق أننا لا نطعن فى الوسائل التى عمل بها الإسلام فى عهده الأول ، ولكننا نعلم أن للزمن حكمه وللبيئة تأثيرها ، فى اصطناع الوسائل وكيفية العلاج ونظرة يسيرة إلى عصور الخلفاء الراشدين تبين لنا ما أخذ به كل خليفة نفسه من الإجتهاد الشخصى ، والعمل فى إستنباط الأحكام ورسم الوسائل فى حرية واستقلال كما تقتضى ذلك مصالح الناس حتى أن أحد الخلفاء الراشدين وهو عمر بن الخطاب رضى الله عنه لم يعمل على تغيير الوسائل فقط وانما عطل عمل حد من حدود الاسلام لما اقتضت الضرورة تعطيله ، وانتفت العلة من إقامته وهو حد السرقة فى عام المجاعة .

قال الأستاذ خلاف (ومن استقرأ أحكام الخلفاء الراشدين ، ومن سار على سنتهم تبين أنهم فى تشريعهم وقضائهم وتنفيذهم صدروا بين المصالح المرسلة ولم يلتزموا أن يقوم شاهد باعتبار المصالح لأن هذا الالتزام فيه حرج ،

وتضييع مصالح الناس فأبو بكر استخلف عمر وجمع صحف القرآن التى كانت مفرقة وحارب مانعى الزكاة ؛ ولم يقتص من خالد بن الوليد لما قتل مالك بن نويرة ، وعمر لم يستخلف أحداً وترك أمر المسلمين شورى ، وأمضى الطلاق الثلاث بلفظ واحد وأسقط سهم المؤلفة قلوبهم ، وعطل حد السرقة فى عام المجاعة ، وأجرى النهر فى أرض محمد بن مسلمة جبرا عنه ، ووضع الخراج ودون الدواوين وعثمان جدد آذاناً ثانيا يوم الجمعة ، وجمع المسلمين على مصحف واحد وأحرق ما يخالفه وورث زوجة من طلق زوجته فى مرض موته فراراً من أن ترثه ومستند كل منهم فيما صدر عنه مطلق المصلحة)

هذه هى الصفة الرابعة من الصفات الذاتية للإسلام أما الصفة الخامسة وهى أنه جعل العبادات جميعها وسائل لا غايات فتتجلى فى أن الاسلام ليس دين رهبنة وليس دين غلو فى العبادات قال الله تعالى (وابتغ فيما آتاك الله الدار الآخرة ولا تنس نصيبك من الدنيا (وقال) فإذا قضيت الصلاة فانتشروا فى الأرض وابتغوا من فضل الله) وعن عائشة رضى الله عنها قالت (صنع رسول الله صلى الله عليه وسلم أمراً فترخص فيه « أى تسامح ولم يتشدد أو يتعمق » فبلغ ناسا من أصحابه فكرهوه وتنزهوه وتنزهوا عنه فقام خطيبا فقال (ما بال رجال بلغهم عنى أمر ترخصت فيه فكرهوه وتنزهوا عنه فوالله لأنا أعلمهم بالله وأشدهم له خشية) . وعنها أيضاً قالت (ما خير رسول الله صلى الله عليه وسلم بين أمرين احدهما أيسر من الآخر الا اختار أيسرهما مالم يكن إثما فإن يكن اثما كان أبعد الناس عنه ، وما انتقم رسول الله صلى الله عليه وسلم لنفسه إلا أن تنتهك حرمة الله عز وجل) ثم ما حدث بشأن هذه الوفود التى جاءت إلى بيت النبى صلى الله عليه وسلم فى الحديث الذى رواه أنس رضى الله عنه قال : —

جاء ثلاثة رهط إلى بيوت النبى صلى الله عليه وسلم فلما اخبروا كأنهم تقالوها « أى عدوها قليلة ، فقالوا وأين نحن من النبى صلى الله عليه وسلم قد غفر الله له ما تقدم من ذنبه وما تأخر فقال أحدهم أما أنا فإنى أصلى الليل أبداً وقال آخر : أنا أصوم الدهر ولا أفطر وقال آخر : أنا اعتزل النساء فلا أتزوج أبداً

فجاء اليهم رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال « أنتم الذين قلتم كذا وكذا أما والله إنى لأخشاكم لله وأتقاكم له لكنى أصوم وأفطر ، وأصلى وأرقد وأتزوج النساء فمن رغب عن سنتى فليس منى »

هذه الآيات القرآنية والأحاديث النبوية تدلنا بوضوح لا يقبل الجدل على أن غاية الاسلام من إقامة هذه العبادات ليس هو العبادات للعبادات فقط ، وإنما هذه العبادات جميعها وسائل لتحقيق غايات لأنه ربط بين جميع العبادات المختلفة وبين أعمال الانسان ، ولم يفصل الدنيا عن الآخرة ، وإنما جعل ما يكتسبه الإنسان فى دنياه من عمل صالح يكون ثمنا يقدمه لحظوته فى حياته الآخرة ... بل انه قرر ما هو أخطر من ذلك إذ لم يكتف بربط أعمال الإنسان المادية وصفاته الذاتية بكافة العبادات ، وإنما قرر بأنه إذا لم تكن النتائج الفعلية للإنسان والمترتبة على هذه العبادات مما يتفق مع الدعوة فى عمومها من نفع وصلاح ، وفائدة للمجتمع فلا خير فى هذه العبادات قال القرآن الكريم (إن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر) وقال لرسول عليه السلام (المسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده) فالعبادات إذاً ليست الا وسائل لتقويم الأخلاق ، وتربية النفوس ، وعلاج الأمراض النفسية والاجتماعية لتكوين مجتمع انسانى راق مفيد على غاية من الصحة والقوة والجمال النفسى ، والجمال الخلقى ، أفراده ذو ضمائر حية ، واحساسات مرهفة

فالصلاة ليست حركات رياضية يقوم بها الإنسان خمس مرات فى اليوم والليلة ، وإنما الغاية من مشروعيتها تجديد الثقة والايمان بالله ، وإستشعار المبادىء الاسلامية من الأمانة ، والصدق ، والوفاء والايثار - وكل ما هو حميد نبيل مما يعتبر جوهر الاسلام الحقيقى ، وأهم أساس ابتنت عليه أصوله ، وقام عليه ما أوجبه من مختلف العبادات : والصيام ليس هو الامتناع عن تناول الطعام والشراب من مشرق الشمس إلى غروبها ، وإنما هو يهدف من وراء ذلك إلى تهذيب الأخلاق وتربية النفوس ، وتعويد الانسان على التغلب على شهوات نفسه والتحكم فى ميوله ليكون انساناً قوياً قادراً على السيطرة على

عواطفه و على نفسه الأمارة بالسوء ، والتى كثيراً ما تجلب له فى حياته الشقاء والدمار ثم ليستطيع بعد ذلك بقوته وتؤدته ، وصقل نفسه أن يحل ما يعرض له من المشاكل ، وأن يواجه مايلم به من الأمور فى حزم ، وعزم ، وفى صبر وأناة : والزكاة ليست هى أن يؤخذ من مال الغنى قدر معلوم طوعاً واختياراً أو قسراً وجبراً ، وانما هى تنشد فوق ذلك استشعاره وجوب التضامن الاجتماعى ، وأنه مسئول بطريق غير مباشر عن مواطنيه من الفقراء والمعدمين وممن لم تمنحهم الحياة ما منحته من عزة وقوة ومال ، فالزكاة ليست الا تأكيداً لتحقيق هذه المثالية التى دعا إليها الاسلام من وجوب التعاون ، والتكافل ، والتضامن بين الناس بعضهم بعضا حتى أن النبى عليه السلام يقول (ما زال جبريل يوصينى بالجار حتى ظننت أنه سيورثه) ثم يأتى بعد ذلك الحج ونعتقد أن الغاية التى ينشدها من وراء ذلك هو تحقيق المساواة بطريقة عملية غاية فى الكمال ثم استشعار الانسان ما لاقاه الرسول فى دعوته من ضنى ، وتعب ، وجهاد ، وعذاب لتستعذب النفوس الألم والتعب فى سبيل ما تدعو إليه من مبدأ ، وما تذود عنه من فكرة ولتتعود على حياة البساطة والتقشف والمشاق التى يحياها ويبلوها الحاج إلى بيت الله ، ثم تهيىء مكان ووقت لاجتماع المسلمين من كافة بقاع المعمورة للتشاور فيما يلم بهم من أحداث ، وما يطرأ عليهم من أمور

هذه هى الحكمة والغاية كما نفهما من مشروعية العبادات وهى كما ترى وسيلة لتحقيق أشياء فعلية مادية للإنسان يقوم بها أخلاقه ويصلح بها حياته

والصفة السادسة : هى أن الاسلام راعى حرية الفرد مادامت لاتتعارض مع مصلحة المجموع وذلك لأنه لم يرسم للإنسان خططا ولا طرقا يسير فيها ولا يحيد عنها البتة ، وإنما قرر أن يعمل الانسان ما يعتقد ، وأن يكون حر التفكير مستقل الرأى فى كل ما يطرأ له من أشياء ، وما يلم به من أمور ، وأن يجتهد دون أن يتأثر بأى عامل خارجى يضيق عليه ، ويحد من حريته ثم لا حرج عليه بعد ذلك إن أخطأ فى الرأى أو الاجتهاد (فللمجتهد أجران إن أصاب وواحد إن أخطأ)

هذه الحرية هى فيما يختص بحياة الانسان العقلية والفكرية أما فيما يختص بحريته الاجتماعية والاقتصادية فلقد راعاها الاسلام كل المراعاة فآمن بالحقوق الفردية للإنسان واعترف بشخصيته وحافظ على كيانه من أن يتلاشى فى المجموع فما تشريعه الاجتهاد لكل فرد قادر عليه ، وما عدم تحديده للملكية المطلقة التى يمتلكها الانسان بجهده وعمله وكسبه الشريف الا اعتراف منه بالفرد وما يرجى منه من نفع وخير وإصلاح لبيئته والمجتمع الذى يعيش فيه ولذلك نراه قد أحاط هذه الحرية الفردية بالنسبة للمجتمع وبالنسبة للدولة بشىء من التحفظات التى تجعل لهذه الحرية ثمنا يجب أن يؤدى ، وواجبات من الواجب عليه أن ينهض بها ، ففضلا عن أنه أوجب الزكاة فقد أوجب أيضاً التكافل والتضامن بين الناس بعضهم بعضاً فالرسول يقول (ليس منا من بات شبعان وجاره جائع) تأمل هذه الجمله ليس منا . . . ! أى معنى خطير تؤدى إليه

فهذه الحرية يجب أن تقيد بعض الشىء ، وأن تقف عند حدها إذا تعارضت مع مصلحة المجموع ، وتنافرت مع تكافله وتضامنه وقوته وازدهاره

ولو قارنا نحن هذه الحرية الفردية التى لا يحدها شىء مادامت تتفق ومصلحة المجموع وهذه الحرية عند ما تنكمش وتصبح لا شىء اذا اقتضت الضرورة ذلك المصلحة العامة

أقول لو قارنا هذه الحرية الفردية المتزنة بما اصطنعته المذاهب الاجتماعية والاقتصادية المعاصرة نجد أن الاسلام قد فاقها جميعاً فى إتفاقه مع سيكلوجية النفوس ، وسيكلوجية الضمائر .

فبعض هذه المذاهب قد جحد بالحرية الفردية ، وجعل الانسان يتلاشى فى المجموع ، ريذوب فى الدولة فليس له كيانه الخاص ، ولا حياته الاستقلالية ، وإنما هو بن للدولة فهى مسئولة عنه متكفلة به فواجب عليه ازاء ذلك أن يفنى وجوده فى وجودها ، وأن لا يعمل لنفسه ولمنفعته الذاتية بل كل عمله لها ، فالحرية الفردية عبث لا طائل تحته مساوئها أكثر من محاسنها بل إنها ليس لها محاسن البتة لأنها تخلق المشاحنات والتنابذ ، والتقاطع بين أبناء الدولة بعضهم بعضاً

فلا شيء غير الدولة ، ولا عمل الا ما تتطلبه مصلحة الجميع فمن يعمل ما يحسنه أو ما يطلب منه القيام به وفى مقدوره أداءه يستطيع الأكل والعيش ومن رغب عن العمل وآثر البطالة لا غذاء ولا عيش له

هذه هى نظرية المذهب الأول وهو المذهب الشيوعى الذى أخذته روسيا عن كارل ماركس وآمنت به على يدى لينين

أما المذهب الآخر وهو مذهب الرأسمالية فتحمل علمه الآن امريكا وبريطانيا قبل أن يحكمها حزب العمال ، وهذا المذهب يمنح الانسان حريته الفردية بأوسع معانيها وأبعد أشواطها ليس فيما يختص بحريته العقلية والفكرية وما يركن إليه من مبادىء ، ويؤمن به من عقائد فقط ، وإنما فيما يختص بعلاقته بالمجتمع ، وبعلاقته بالاقتصاد العام للدولة بدعوى أن الفرد فى حريته هذه التى لا ترسم خطاها الدولة ، ولا تقيدها الحكومة بأى قيد يكون مدفوعا بعامل التنافس ، ويكون مدفوعاً بغريزة حب الكسب ، وغريزة حب التفوق والامتياز ، واستعذاب الجهد والعمل على توفير انتاج كثير لا ينتفع به وحده ، وإنما يشاركه فى فائدته مواطنوه ولو من طريق غير مباشر

فالمنفعة الذاتية هى وحدها التى تعمل عملها فى نفسه ، وعقله وعواطفه فيدفعه ذلك إلى أن يبحث عن طرق كثيرة مجدية يبذل فيها نشاطه ومجهوده ليكون رءوس أموال ضخمة يستثمرها فيما يعود عليه بالمنفعة بطريق مباشر ، وفيما يعود على وطنه ومواطنيه بطريق غير مباشر

هذه هى نظرية كل من الدولتين المتنافرتين (روسيا فى المشرق والولايات المتحدة فى المغرب) فى طريقة فهمهما للحرية الفردية ، ومدى نفعها أو شرها على الانسان ، ومدى جدواها على الدولة والمجتمع أو ضررها عليهما .

ونحب أن نقارن هاتين النظريتين بما صوره الاسلام ودعا إليه لندرك مدى نجاحه فى فهمه كما قلنا لسيكولوجيه النفوس ولسيكولوجية ضمير المجتمع لتكوين مجتمع إنسانى يؤمن بالعدالة ، ويتبع المثل العليا للإنسان ونحب من القارىء أن لا يلتفت البتة إلى حالة المسلمين اليوم وأن لا يفسر الاسلام على ضوء

ما هم عليه من تأخر وضعف لأننا ندرس الاسلام فى ذاته وحقيقته لا المسلمين اليوم فى حالتهم المؤسفة المفزعة

إن تلاشى الحرية الفردية ، واعدامها من نفس الانسان وعقله ونظرته للحياة ضرر من غير شك لأن ذلك يفقده أعظم ميزة فيه وهى ميزة الاختيار لأن شعوره بأنه مسير لا مخير يقضى على ملكة الابتكار عنده ، ويسلبه كل صفة من صفات الصبر ، وتجشم المصاعب والمخاطر ، واستعذاب الألم فى سبيل العمل وما يرجو تحقيقه لنفسه من ميزات يمتاز بها عن غيره بدافع المنافسة ، وبدافع حب الذات

كما أن هذه الحرية الفردية التى لا يحدها حد ، ولا يقف أمامها شىء تخلق نوعا من الطبقة الرأسمالية الاستغلالية التى لا تعترف بحقوق المجتمع وواجب الدولة فتؤديه من نفسها ، وتكون مسئولة مسئولية ضمنية عن أفراد الأمة المتعطلين أو العاجزين عن العمل ، ووجود هذه الطبقة خطر من غير شك على الدولة يقضى على وحدتها ، وسم زعاف يسرى فى شرايينها لأنها تشجع الجهل والبطالة ولا تحارب الفقر والمرض

إذاً ماهو موقف الاسلام بين هاتين النظريتين ؟

إن موقف الاسلام يجمع بين هاتين النظريتين فى شىء من التعقل ، والتدبر والروية ، وفى شىء من الانسجام والاستقامة ، والمعرفة الصحيحة لأخلاق الانسان

لقد دعا الاسلام إلى الحرية المطلقة ما لم يكن ذلك على حساب المجموع فالانسان حر فى أن يعمل ما يشاء ، ويمتلك ما يريد بشرط أن يكون من وراء ذلك نفع وفائدة للمجتمع عن طريق المشاركة ، وعن طريق تبادل المنفعة لأن المجتمع أو الدولة هى المجال الطبيعى الذى استثمر فيه نشاطه ، وكون منه نتاجه ، وارتجع رءوس الأموال المنقولة والغير منقولة ، فالاسلام لا يقر البته الرأسمالية الجشعة التى لا تؤمن بمبدأ التكافل ، والتضامن بين أبناء الدولة بعضهم بعضا .

قال القرآن الكريم (والذين يكنزون الذهب والفضة ولا ينفقونها فى سبيل

الله فبشرهم بعذاب أليم) وقال (ويل لكل همزة لمزة الذى جمع مالا وعدده يحسب أن ماله أخلده) وقال أيضا (ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة)

ثم إن الاسلام نهى عن أن يتلاشى الفرد فى المجموع لأن ذلك فيه مخالفة للنظام الطبيعى فى الحياة ، ولأن ذلك يقتل فى الفرد روح المغامرة ، وحب النشاط والجهد بدافع المنفعة الذاتية ، ولأن فيه كذلك ظلما يصيب الفرد العامل النشيط المفيد ذا المواهب بالنسبة للفرد الخامل الكسلان المعدوم المواهب وليس الظلم منصبا عليه فقط ، وإنما يشمل ذويه أيضا . . . ! فكما أنهم يرثون منه طباعه الجسدية وأخلاقه النفسية ، وصفاته العقلية فالواجب يقضى حتما أن يرثوا عنه ما يكونه من مادة ، وما يمتلكه من مال

ولقد رأينا النبى صلى الله عليه وسلم لم يرض أن يتنازل إنسان عن ماله ولو للصدقة كما فى حديث سعد بن أبى وقاص حينما كان مريضا وعاده النبى صلى الله عليه وسلم وكان عازما على الصدقة بثلثى ماله أو بماله كله ، فسأله النبى عما ترك لولده ، فقال هم أغنياء فلم يقبل النبى أن يتصدق بغير العشر ، وما زال يراجعه حتى رضى صلى الله عليه وسلم بالثلث وحرم الزيادة فوق ذلك وقال

(الثلث والثلث كثير إنك إن تذر ورثتك أغنياء خير من أن تدعهم عالة يتكففون الناس)

هذه هى نظرية الاسلام : حرية مطلقة مع خضوع تام لنظام التعاون ، ولقانون التكافل والتضامن ؛ ووجوب التأمين الاجتماعى الذى يساهم فيه أبناء الوطن جميعا

وننتقل بعد ذلك إلى الصفة السابعة من الصفات الذاتية للاسلام وهى أنه جوز المحظورات عند الضرورات ، ولم يستثن من ذلك أى شىء ، حتى أول ركن من أركانه ، وأهم قاعدة من قواعده وهى التوحيد بالله فقد شملها هذا التجويز أيضا قال تعالى (الا من اكره وقلبه مطمئن بالايمان) - ثم الصلاة والصوم والحج والزكاة ، وكل ركن فعلى من أركان الاسلام قد جوز الاسلام تركه متى كان فى أدائه أى ضرر أو إيذاء للانسان وفى هذا أكبر دليل على أن

الاسلام ليس دين رهبنة ولا دين غلو فى العبادات ، وأنه كما قلنا لا ينشد من وراء أوامره التعبدية إلا اصلاح حال الانسان نفسياً وخلقيا ومعاشيا فقد حرص دائما على أن يحافظ على كرامته ، وأن يشعره بوجوده ، وأن يكون معه سهلا لينا ما لم يكن فى ذلك إيذاء له أو للمجتمع الذى يعيش فيه ومالم يكن من وراء ذلك أخطاء يرتكبها أو اضرار تصيبه فى نفسه أو عقله أو حياته المعيشية ، فكان دائما يجوز الرخصة للانسان فى كل ما يشق عليه فعله ، وفى كل ما يضنيه تركه

عن عائشة رضى الله عنها قالت : صنع رسول الله صلى الله عليه وسلم أمرا فترخص فيه فبلغ ناسا من أصحابه فكرهوه وتنزهوه ، وتنزهوا عنه فقام خطيبا فقال « ما بال رجال بلغهم عنى أمر ترخصت فيه فكرهوه وتنزهوا عنه ؛ فوالله لأنا أعلمهم بالله ، وأشدهم له خشية »

وعنها أيضا قالت :

(ماخير رسول الله صلى الله عليه وسلم بين أمرين أحدهما أيسر من الآخر إلا اختار أيسرهما مالم يكن اثما ، فإن يكن اثما كان أبعد الناس عنه ، وما انتقم رسول الله صلى الله عليه وسلم لنفسه إلا أن تنتهك حرمة الله عز وجل)

أما الصفة الثامنة من صفات الاسلام الذاتية ، فقد قرر أنه إذا تعارض النقل والعقل أخذ بما يتفق والعقل فتظهر ظهوراً واضحا فى أن دعوة الاسلام قائمة على مواجهة العقل ، ومعتمدة على الاتفاق معه فى كل ما جاءت به من التشاريع والأحكام والدليل على ذلك أنها لم تؤيد نفسها ، وتبرهن على حقيقتها بالمعجزات الخارقة للعادة ، وانما كانت فى طبيعتها سهلة لينة مستساغة

وإذا كانت هذه الدعوة بما فيها من تشاريع وأحكام ، قد أقامت دعائمها وأسست أصولها على اقتناع العقل الناضج البصير ، وايمانه بها فإنها تخضع من غير شك لحكم العقل فيما يتعارض مع النقل فى الأحكام والتشاريع ، وكافة القوانين الأخرى التى أتت بها

قال الأستاذ الامام محمد عبده (أجمع أهل الملة الاسلامية إلا قليلا ممن

لا ينظر إليه أنه إذا تعارض العقل والنقل أخذ بما دل عليه العقل ، وبقى فى النقل طريقان : طريق التسليم بصحة المنقول مع الاعتراف بالعجز عن فهمه وتفويض إلا مر الى الله فى علمه ، والطريق الثانية تأويل النقل مع المحافظة على قوانين اللغة حتى يتفق معناه مع ما أثبته العقل)

ثم ان الخلفاء الراشدين فى أيام خلافتهم قد حكموا العقل فى كثير من الأمور ولم يراعوا حرفية النقل فأبو بكر رضى الله عنه استخلف من بعده عمر بن الخطاب وحث المسلمين على اتباعه لما وجده فيه من ميزات لا تتوفر عند غيره من الصحابة ، ثم انه لم يقتص من خالد بن الوليد لما قتل مالك بن نويرة ، وعمر ترك أمر المسلمين شورى من بعده ، وامضى الطلاق الثلاث بلفظ واحد ، واسقط من الزكاة سهم المؤلفة قلوبهم ، وعطل حد السرقة فى عام المجاعة ، وأجرى النهر فى أرض محمد بن مسلمة جبراً عنه وعثمان لم يقتص من عبيد الله بن عمر بن الخطاب لما قتل الهرمزان وجفينة وابنة أبى لؤلؤة مع أن النص صريح فى أن يسرى عليه القصاص ؛ وفعل غير ذلك أشياء خطيرة فجمع الناس على مصحف واحد ، وأحرق ما يخالفه وورث زوجة من طلق زوجته فى مرض موته فراراً من أن ترثه وترك الحرية لصحابته فى انتقاء الأموال واستكثار الضياع ، وامتلاك المجوهرات ، والحياة المترفة التى انغمسوا فيها ؛ ولم يرفى ذلك غضاضة ، ولا حيدة عن الدين .

والصفة التاسعة وهى أنه جعل احكامه مرنة تخضع فى طبيعتها لظروف الزمان والمكان وطبيعة الحوادث وحقيقة الواقع ومصالح الناس فنستطيع أن نستشفها وندركها من روح الاسلام التشريعية ، ومن أنه ربط حكمة التشريع بمصلحة الناس ؛ وتنظيم حياتهم ، وما يعود عليهم من نفع وخير ؛ وما يمكن أن تعالج به أمراضهم الخلقية والنفسية فى طور من حياتهم بعد طور ، وفى جيل بعد جيل

وليس أدل على أن احكام الاسلام التشريعية من قضايا وحدود تخضع لظروف الزمان والمكان ، ولطبيعة الحوادث ، وحقيقة الواقع . . . ! ليس

أدل على ذلك من أن الله شرع بعض الأحكام ثم نسخها وشرع غيرها فلقد فرض الاتجاه فى الصلاة أولا إلى بيت المقدس ثم نسخه وفرض الاتجاه إلى الكعبة لما اقتضت مصالح الناس وظروفهم ذلك ، ثم فرض عدة المتوفى زوجها حولا ونسخه وفرضها أربعة أشهر وعشرة أيام وعمر بن الخطاب رضى الله عنه عطل حد السرقة فى عام المجاعة ، لأن الغاية من إقامة هذا الحد لم تعد مجدية مع وجود هذه المجاعة ، ومن هنا نرى أن الاسلام لا يسأل الا عن أيسر طريق لتحقيق مبادئه العامة وغاياته المطلوبة وهى خلق مجتمع قوى نظيف أفراده ذى ضمائر حية ، واخلاق سامية ، وصفات نبيلة

فهذه الأحكام التى فرضها ، والحدود التى أقامها ما هى إلا وسائل لتحقيق غايات ولا مانع البتة من تغيير هذه الوسائل متى كان فى ذلك محافظة على الجوهر وتقريب لتحقيق الغاية من فرض الأحكام وإقامة الحدود فقطع يد السارق ورجم الزانى ، وجلد شارب الخمر ، والقصاص من القاتل العمد بإعدامه . . كل هذه الأحكام والحدود رائعة جداً ومجدية للغاية إلا إذا انتفت البواعث والضرورات التى تبعد بينها وبين الغاية من مشر وعيتها

فالسارق لا تقطع يده إلا إذا توفرت فى السرقة نية الغدر والاعتداء على الغير والعبث بنظام المجتمع ، وإلا إذا شاعت فى المجتمع روح الفوضى والاستئثار ، وكثرت حوادث السرقة كثرة فاضحة فيكون علاج ذلك القسوة والصرامة لمن يرتكب جرم السرقة ، وليست إقامة الحد على السارق انتقام منه لذاته بقدر ما هو عظة وعبرة ، ورادع للغير من أن تسول له نفسه فعل ذلك ، ثم يجب قبل ذلك أن تتوفر لكل انسان الحياة الكريمة التى يجب أن يحياها ، وان يستشعر أن المجتمع متضامن معه فى حياته ، وأن الدولة مسئولة عنه مسئولية أكيدة ، فهى التى تعالجه إذا مرض . . وتوجد له العمل إذا تعطل ، وتؤمنه ضد الجوع إذا لم يجد ما يقتات به

إذا تحقق كل ذلك ، وانتفت المبررات والضرورات للسرقة كان فى إقامة هذا الحد على السارق علاجا حاسماً قويا فى استئصال شافة هذا المرض الخطير

الذى لو ترك لقضى على كيان المجتمع ، ولبدد شمل الأمة ، وجعلها فى حالة انهيار يفضى بها إلى طريق الفناء .

وليس فى هذا الحد الذى شرعه الاسلام قسوة ، ولا وحشية كما يزعم خصوم الاسلام ذلك. لأنه قبل أن يرسم هذه الحدود شرع فروضاً أخرى من الواجب العمل بها ، والا نصياع لها ، فالزكاة وهى نوع من التكافل بين الغنى والفقير والقوى والضعيف ، والقادر والعاجز فرضت على المسلمين قبل نزول هذه الحدود ، ثم المسئولية التى حملها الشارع ولى الأمر ، وجعل لها معنى من التضامن ، والتعاون فى الحياة ومن الواجبات الإنسانية المتبادله (كلكم راع وكل راع مسئول عن رعيته) وجدت أيضاً مع وجود الدعوة لأنها هى الروح التى استلهمها الاسلام فى تشريعه ،وفى مبادئه وصفاته التى ظهر بها للناس ، وفى هذه المؤاخاة التى سنها رسول الله بين المسلمين بعضهم بعضاً حتى أصبح الايثار خلقا من اخلاقهم (ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة) ، فوجود السارق أو السارقة بعد ذلك هو من الخشاشات السامة، ومن الأمراض الخطيرة المعدية التى يجب أن تستأصل شأفتها ؛ وأن يقضى عليها قضاء لا هوادة فيه فليضح بالفرد لتقطع يده ولتشوه خلقته ما دام فى ذلك محافظة على حقوق المجتمع وأمنه ، وما دام فى ذلك عظة وعبرة ماثلة لمن تسول لهم انفسهم السرقة حتى يرعووا ، وحتى يبتعدوا عن هذا الطريق الخطر المشين

وليس أدل على أن الاسلام لم يكن يراعى ويحرص فى كل ما أمر به من حدود وشرعه من فروض الا استقامة الانسان ومصلحة المجموع أنه فى كل ما أوجبه من عقاب على كل من يرتكب جرما لم يكن يريد الانتقام من الانسان حبا فى الانتقام ، بل لم يكن يريد الانتقام جزاء وفاقا على ما أقدم عليه من المعاصى والسيئات فقط ، وانما كان فوق ذلك يريد المحافظة على حقوق الغير ، ويعمل على إبادة هذا الوباء من الأمة بالقضاء عليه فى قسوة وصرامة، ولذلك نرى عقاب السارق الذى تتكرر منه السرقة مرات ، ولا يردعه ما لقى من عقاب لأن السرقة أصبحت طبعا وغريزة فيه . . . ! نرى عقاب مثل هذا السارق

(أن تقطع أيديهم وأرجلهم من خلاف أو ينفوا من الأرض)

فتساوى النفى بالقطع فيه أبلغ الدلالة على أن الاسـلام لم يكن يريد إلا علاج هذا الوباء الخطر بما يصلح له من كافة الطرق الموصلة الى سرعة العلاج ليبرأ منه المجتمع . ولا يتحمل مساوئه أى فرد من الناس

وهكذا نجد الاسلام فى كل فروضه ، وتشريعاته لايسأل إلا عن الغاية وأقرب السبل لتحقيقها . ولا يلتزم وسائله الأولى أبداً فلو تأتى علاج السرقة والقضاء على الزنا وشرب الخمر ومكافحة القتل بغير هذه الروادع والحدود التى فرضها لما مانع الاسلام فى ذلك البتة ولأقره فى شىء من القوة والحماس

والصفة العاشرة من هذه الصفات . أن الاسلام حارب الكهنوتية والسلطة الدينية فلكل إنسان نير البصيرة ناضج العقل الحق فى طرق باب الاجتهاد ولو كان من عامة الناس . وهذه الصفة تقتضينا أن نراجع ماقررناه فى غير موضع من هذا الكتاب وهو ربطنا بين العقيدة وتطورها فى الانسان ، وبين تطوره هو فى قوة مداركه وسير تحضره . . . ! فليس هناك شك فى أن الايمان بالفرد والاعتراف بذاتيته وحريته ، هما من الدلالات القوية على تحضره وقوة إدراكه ، ووزنه الصحيح للامور . والاسلام جاء بعد أن سبقته ديانتان سماويتان ، وديانات أخرى لاحصر لها ، ولكنها جميعها لم تبرأ من النظام الكهنوتى . ومن قيام السلطات الدينية التى كانت حائلا شديداً منيعاً بين الانسان وبين حريته الفكرية وإرادته العقلية . والتى قيدت الانسان ليس فى حياته الاجتماعية فقط ، وإنما فى همساته وخفقاته ونجواه مع نفسه ، وليس ذلك إلا إيمان منها بقصور الانسان ، وعجزه ، وعدم اعترافها بحريته وتقديرها لذاتيته ولكن الاسلام جاء والانسان حائر مضطرب يحاول أن يستنقذ نفسه من حياته هذه ، وأن يثب الى الدخول فى طور آخر من أطواره فمهد له هذا الطريق . وأخذ بيده نحوه فآمن بذاتيته ، وأخذ يخاطبه فى كل مادعا إليه من مبادىء بالعقل والمنطق دون ضغط أو تعسف

يقول القرآن الكريم (لا إكراه فى الدين قد تبين الرشد من الغى) .
ويقول (وقل الحق من ربكم فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر)

هذا الإيمان بالعقل ، والمحافظة على حريته هما من الصفات البارزة فى الاسلام ، هذا الدين الذى كان بمثابة ثورة فكرية عالمية أخذ العالم ينظر اليها دهشا معجبا مؤمنا

لقد أوجب الإسلام الشورى فقال تعالى (وشاورهم فى الأمر) . وقال أيضاً (وأمرهم شورى بينهم) فقطع بذلك كل سبيل على قيام الكهنوتية أو على وجود شىء من هذه السلطات الدينية حتى أن بعض الصحابة كان يخالف الرسول فى أمر من الأمور فينزل القرآن مخالفا النبى متفقا مع رأى الصحابى كما حدث فى أمر أسرى بدر عندما استشار النبى صحابته فأشار عليه عمر بضرب رقابهم فقال (يارسول الله . هم أعداء الله . كذبوك وقاتلوك وأخرجوك ، اضرب رقابهم هم رءوس الكفر وأئمة الضلالة يوطىء الله بهم الاسلام . ويذل بهم أهل الشرك) . وأشار أبو بكر وجمهور المسلمين بقبول الفداء فقبل النبى الفداء وأطلق سراح الأسرى فنزلت هذه الآية القرآنية « ماكان لنبى أن يكون له أسرى حتى يثخن فى الأرض تريدون عرض الدنيا والله يريد الاخرة والله عزيز حكيم » فلما نزلت هذه الآية قال رسول الله صلى الله عليه وسلم (لو نزل بنا عذاب مانجا إلا عمر)

ولقى عمر (١) بن الخطاب رضى الله عنه وهو خليفة رجلا له قضية فسأله : ماصنعت ؟ قال : قضى على وزيد بكذا . قال عمر : لو كنت أنا لقضيت بكذا ! قال الرجل : فما يمنعك والأمر اليك ؟ وأجابه عمر : لو كنت أردك الى كتاب الله أو الى سنة نبيه صلى الله عليه وسلم لفعلت ، لكنى أردك الى رأى ، والرأى مشترك . ولهذا لم ينقض ماقضى به على وزيد . . ! وأبدى عمر يوما رأيا فقال

---

(١) انظر كتاب الفاروق عمر لهيكل باشا

قائل : هذا ما رأى الله ورأى عمر فانتهره عمر بقوله : بئسما قلت ! هذا ما رأى عمر ، إن كان صوابا فمن الله ، وإن يكن خطأ فمن عمر . وأمسك هنيهة ثم قال : السنة ما سنه الله ورسوله . لاتجعلوا خطأ الرأى سنة للأمة .

وهذا عمر أيضا وهو خليفة للمسلمين يساوم رجلا من رعيته فى شراء فرس ثم يركبه ليجربه فيعطب فيرده الى صاحبه فيأبى . فيقول له إجعل بينى وبينك حكما فيرضى الرجل بقضاء شريح العراقى . فتحاكما اليه . فقال شريح بعد أن سمع حجة كل منهما : يا أمير المؤمنين خذ ما ابتعت أو رد كما أخذت ! قال عمر : وهل القضاء إلا هكذا ! وأقام شريحا على قضاء الكوفة إكباراً لنزاهته وعدله ، فبقى عليه ستين عاما

وهكذا عندما ننظر الى أى ناحية من نواحى الإسلام تبرز لنا هذه الصفات القوية الرائعة التى انفرد بها وحده وهى السماحة والاقتناع بالحجة والمنطق والاعتراف برأى الغير والانصياع له متى كان صوابا دون نظر إلى منزلته ومكانته . . . ! هذه الصفات هى التى اتسم بها الاسلام فى عهوده الأولى حتى أباح الاجتهاد لكل إنسان قادر عليه دون نظر الى أى اعتبار آخر من الاعتبارات

والصفة الحادية عشرة : أنه جعل الأصل فى الأشياء الإباحة . ونظرة يسيرة فى تاريخ التشريع الاسلامى ، وفى الأغراض التى كان يسعى من وراء ذلك إلى تحقيقها ؛ وفى النظام الذى رسمه لأتباعه ولمن يدينون به . وفى هذه القوانين التربوية والأخلاقية التى أقامها وحمل أتباعه عليها حملا . . . ! نظرة يسيرة فى كل هذا تبين لنا هذا اليسر وهذه السهولة التى كانت من أخص خصائصه ومن صفاته البارزة الحميدة : يقول القرآن الكريم (مايريد الله ليجعل عليكم من حرج ولكن يريد ليطهركم وليتم نعمته عليكم لعلكم تشكرون) . ويقول أيضا . (يريد الله بكم اليسر ولا يريد بكم العسر ولتكملوا العدة ولتكبروا الله على ماهداكم ولعلكم تشكرون) ويقول رسول الله صلى الله عليه وسلم :

« إدرأوا الحدود بالشبهات » . وفى الحديث الذى يروى عنه صلى الله عليه وسلم عندما طلب منه أحد المسلمين أن يقيم عليه الحد لأنه أتى عملية الزنا فأعجب النبي بروحه ومن اعترافه على نفسه وأخذته الشفقة عليه فأخذ يحاول أن يدرأ عنه الحد بالشبهة فقال له لعلك قبلت . فأصر الرجل على أنه زنا . فقال له لعلك عانقت . فأصر كذلك على زناه . فقال له لعلك فاخذت فلم يزدد الرجل إلا إصرارا . فلم يسع النبي إلا أن يقيم عليه الحد وهو كاره

هذه الروح السمحة الكريمة ، السهلة اليسيرة . هى التى نلمسها دائما اذا ماعالجنا دراسة التشريع الاسلامى ، واستظهرنا صفاته الذاتية ، وما كان يعرض له من المسائل ويتواكب أمامه من المشكلات . فالتيسير والتخفيف وعدم فرض قوانين وأحكام لمسائل فرضية ، أو لمشاكل محتملة الوقوع هى التى التزمها الاسلام فى تشريعه ، واستوحاها النبي وصحابته فى أحكامهم وقضائهم وكان من أثر ذلك كله أن جعل الأصل فى كل شىء الإباحة لأن مالا قانون له فهو مباح يقول القرآن الكريم (يا أيها الذين آمنوا لاتسألوا عن أشياء إن تبد لكم تسؤكم ، وان تسألوا عنها حين ينزل القرآن تبدلكم) . ويقول رسول الله « أعظم المسلمين فى المسلمين جرما من سأل عن شىء لم يحرم على المسلمين فحرم عليهم من أجل مسألة » . ويقول أيضا : « إن الله فرض فرائض فلا تضيعوها ، وحد حدوداً فلا تعتدوها ، وحرم أشياء فلا تنتهكوها ، وسكت عن أشياء رحمة بكم غير نسيان فلا تبحثوا عنها »

والصفة الثانية عشرة أنه جوز ترك الفروض والواجبات إذا كان فى أدائها ضرر على الانسان ، فالصلاة والصيام والحج والزكاة وكل فرض آخر من فروض الاسلام ليست إلا وسائل لتحقيق غايات الاسلام ومثله العليا وهى خلق إنسان وتكوين مجتمع قوى نظيف عامل مفيد صالح لنفسه وللحياة التى يحياها يعيش فى تقدم وحضارة رفيعة زاهية بوحى من بصيرته النيرة وأخلاقه العظيمة . فلا حرج على من يترك فرضاً من هذه الفروض وهو

مضطر لتركه لأن الإسلام وهو الدين الذى أتم الله به الديانات كلها أتى متفقا مع مقدار ما بلغه الانسان من رقى وما اكتسبه من وعى ونضوج وتطور فراعى كأشد ماتكون المراعاة فى كل ما فرضه من فرائض ، وما أقامه من حدود مصلحة الانسان وفائدته وسعادته ، فاذا كان هناك مايؤلمه فعله أو مايشق عليه عمله أو تركه من الفروض والمحظورات جوز له أن لايراعى فى ذلك إلا مصلحته . ولا إثم عليه فى إهماله للواجبات أو عدم تركه للمحظورات

يقول الله فى كتابه الكريم (وقد فصل لكم ماحرم عليكم إلا مااضطررتم اليه) ويقول (فمن اضطر غير باغ ولا عاد فلا إثم عليه) ويقول فى آية أخرى (فمن اضطر فى مخمصة غير متجانف لإثم فان الله غفور رحيم) . ويقول أيضا : (وإذا ضربتم فى الأرض فليس عليكم جناح أن تقصروا من الصلاة) .

لم يبق أمامنا إلا الصفة الأخيرة من صفات الاسلام الذاتية وهى أنه فى كل مادعا اليه من ترغيب فى الجنة ، وترهيب من النار ، كان فى كل ذلك مرتبطا ارتباطا وثيقا بصفات الانسان الخيرة أو الشريرة ؛ وما يكتسبه فى دنياه من صلاح أو فساد ومن خير أو شر ؛ وشرح هذه الصفة واستيعابها يقتضينا أن نسهب بعض الشىء لأنها تحمل معانى خطيرة تتصل بالعالم البشرى وما اصطنعه من قيم أخلاقية ، وما اعتبره من مبادىء حضارية

فمما لاشك فيه أن الاسلام فى أول عهده ، وقبل أن تدخله عناصر هو برىء منها ، حارب بكل قواه الغلو فى العبادات ، ولم يقبل الرسول ولا صحابته أن يقف مسلم ليله ونهاره على العبادات فقط ، وإنما كان يعتبر ذلك من الأمور المكروهة التى لايرضاها الله ولا رسوله ، فكان أبغض شىء إلى النبى أن يترك الانسان أمور دنياه ظهرانيا ليعمل لآخرته بالتسبيح والتهجد والصلاة فقط فالاسلام بعيد كل البعد عن الرهبنة ، والاسلام هو الذى قرر فى قوة وصراحة أن مايجازى به الانسان فى آخرته من الجزاء الحسن هو ثمن يقدمه فى دنياه

من فعل صالح وعمل مفيد منتج لنفسه ولأسرته ولبنى مواطنيه فالله يقول : (فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره ، ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره) ويقول أيضا (وأن ليس للانسان إلا ماسعى ، وأن سعيه سوف يرى ، ثم يجزاه الجزاء الأوفى) . ورسول الله يقرر عندما سأله نخبة من المسلمين عن رجل يصوم النهار كله ويتهجد الليل كله . ولما سألهم من يعوله قالوا كلنا نعوله يارسول الله فقال عليه السلام « كلكم خير منه »

هكذا ترى معى أن الاسلام لم يربط الجزاء والعقاب فى الآخرة إلا بما فى خلق الانسان ونفسيته من خير أو شر ، وما يؤديه فى دنياه من أعمال حميدة أو يرتكبه من أفعال شائنة . حتى ان النبي عليه السلام يذهب الى عشيرته وأهله فيناديهم بقوله (يامعشر قريش اشتروا أنفسكم لا أغنى عنكم من الله شيئا . يابنى عبد مناف لا أغنى عنكم من الله شيئا . ياعباس بن عبد المطلب لا أغنى عنك من الله شيئا . يافاطمة بنت محمد سلينى ماشئت من مالى لا أغنى عنك من الله شيئا) .

وفى أسرى بدر عندما قبل فداء الأسرى ولم ياخذ برأى عمر فى قتلهم جاء مركز بن حفص بفداء لسهيل بن عمر ، وكان سهيل هذا خطيبا ذرب اللسان قارص الكلم طالما آذى النبي وآذى أصحابه بلسانه فأسرع عمر الى النبي يقول له دعنى أخلع ثنيتيه فيدلع لسانه فلا يقوم عليك خطيبا فى موطن أبدا فلم يقبل النبي ذلك وقال « لاأمثل به فيمثل الله بى ولو كنت نبيا »

أنظر معى جيدا الى هذه القواعد الأخلاقية التى رسمها الاسلام وغرسها رسول الله فى نفوس صحابته فحملت بذور حضارة رفيعة رائعة قد استوعبت الكمال الانسانى من كل نواحيه

قارن معى بين هذه الحضارة الإسلامية التى أوجدها الإسلام فى قوانينه الأخلاقية وتشريعاته الواقعية التى تتمثل فيها البساطة والسهولة والمرونة وبين هذه الحضارة المعاصرة التى اصطنعها الغرب بعد ثورات وضنى ودماء ودموع .

والتى تكتنفها دائما عوامل الاستفزاز والانقضاض والحروب ، والتى أوجدت معها ما أوجدت من عقد نفسية ، ومن أزمات مادية لا سبيل الى استنقاذ الانسانية منها .

أنظر معى الى هذه الحضارة الاسلامية التى ربطت أعمال الإنسان فى دنياه بما ينالة فى آخرته ، والتى جعلت محور ترغيبه فى الجنة وترهيبه من النار هو ما تكتسبه نفسه من صفات حميدة ، وما تتخلق به من مثل عليا ، وما يبذله من عمل صالح مفيد لبنى جنسه . ثم خبرنى أى دراسة للنفس الانسانية أعمق من ذلك ؟ وأى أمل فى اطمئنان الانسانية وخلودها إلى الدعة والأمان أقرب من هذا الأمل . . . وأى باب يسهل ولوجه دون مشقة أو عسر لتحقيق السعادة والسلام للبشر أقرب من هذا الباب

إن أحداً لايستطيع أن يملك نفسه من الإعجاب عندما يجد الإسلام وهو الدين الروحى السماوى قد احتفل بحياة الانسان وأعماله وجعلها ثمرة لما يقوم به من العبادات ، فالأعمال الصالحة المفيدة نتيجة للعبادات الصحيحة المنتجة . والانسان الخير النبيل المترفع عن الدنايا هو الذى أثر فيه الدين ولمس قلبه واصطبغ بعقله الإيمان الصحيح فالله يقول : (إن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر) . فهذه الفلسفة الجديدة التى أوجدها الإسلام قد جعلت من أتباعه رجالا أحراراً غير متأثرين بأى شىء يقدسون الحق ، ويؤمنون برأى الغير متى كان صادراً عن عقل ناضج سليم ، وهم ينظرون إلى الكون وخالقه ، وإلى مشاكل الناس وأقضيتهم بعين مجردة وعقل حر جرىء

هذه الفلسفة التى اصطنعها الإسلام فى النظر إلى الله وإلى الكون ، وإلى العبادات والديانات وماهياتها وغاياتها ، وما تسعى من وراء ذلك لتحقيقه هى التى كانت تتفق وما أدركه الانسان من وعى وما بلغه من تطور ، وما وصل إليه من نضوج .

هذه هى أهم الصفات الذاتية للاسلام تحدثنا عنها بقدر ما أسعفتنا الظروف

وبقدر ماقدر لصفحات هذا الكتاب ، فلم نحمل معانيها أكثر مما تحتمل ولم نسرف فيها فى التأويل ولم نشتط فى التفسير ، وإنما كنا دائما مراعين الحق والمنطق مصاحبين العقل فى كل قضية تعرض لنا . أو مشكل يطرأ أمامنا ، أو مبهم يأخذ علينا سبيلنا .

وأظن بعد أن انتهيت من هذا السرد أن القارىء الكريم ربما تلجلج فى صدره سؤال يشفق منه وهو إذا كان هذا هو الإسلام وتلك صفاته ، فلماذا نجد المسلمين وعلماءهم على النقيض من ذلك فى كل شىء . . . ! لقد سألنى هذا السؤال زميل جامعى مثقف بعد أن ألم إلمامة خاطفة ببعض فصول هذا الكتاب ذلك ماسنعالجه فى الفصل التالى من الكتاب .

لماذا تأخر المسلمون...؟

عند ما يستعرض الكاتب الآراء التى كتبها الباحثون عن تأخر المسلمين وأن يلم باستنتاجاتهم فى البواعث والعوامل التى أدت إلى ضعفهم وانحطاطهم يجد أن هذه الآراء والاستنتاجات تنقسم إلى قسمين متضادين متصادمين أحدهما وهو صادر من علماء مسلمين يعزو سبب تأخر الاسلام والمسلمين إلى انصرافهم عن دينهم وتركهم فروضه وتشريعاته وأخذهم بالقوانين الوضعية واسلام قيادهم لرجال من غير الأمة العربية لم يتغلغل الاسلام فى قلوبهم ولم تتأثر به عقولهم ، أما الرأى الآخر وهو صادر من بعض المستشرقين فيعزو سبب تأخر المسلمين إلى طبيعة دينهم وتعاليمه ومبادئه التى إذا كانت تصلح لعصره الأول فليست بصالحة على كل حال لتطور الانسانية ولعوامل الوعى ولطبيعة التقدم فى طور من الحياة بعد طور آخر .

وتقتضينا النزاهة ، وحب الحق ، والحرص على الاسلوب العلمى فى هذا البحث الخطير أن نلمس الأسس التى قام عليها كلا الرأيين والدوافع والشواهد التى أوحت لهما بتلك الاستنتاجات .

وأغلب الظن أن علماء الاسلام بنوا آراءهم هذه على أن الاسلام وهو الذى خلق من أمة جاهلة متنافرة غير آخذة بأى سبب من أسباب الحضارة أمة قوية كونت امبراطورية ضخمة لم يعرف العالم لها مثيلا وذلك فى أقل من قرن ونصف قرن من الزمان ، هذا الاسلام الذى جعل من بنيه قادة للامم والشعوب ، والذى أمسك بيده مشعل الحضارة أجيالا عدة ليس هو السبب فيما أصاب المسلمين من ضعف وتأخر وانحطاط ورجعية وتواكل وجمود عن سير موكب الحضارة وإنما الاسلام فى جوهره وصفائه برىء كل البراءة فيما أصابه من انتكاس أتى على أيدى أبنائه ممن نبذوه جانبا فحقت عليهم الآية الكريمة وهى قوله عز وجل (إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم)

أو أتى على أيدى قادته ممن أسلموا زمامهم لأيد أجنبية لم تتأثر فى قليل أو كثير بروح الاسلام الحقة وتعاليمه الصحيحة وذلك فى آخر العصر العباسى الأول وهو بدء الانحلال السافر الظاهر للعيان وعلى رأس هؤلاء العلماء الاستاذ الامام محمد عبده .

وكما رسمنا لأنفسنا منهجنا فى الدراسة فى موضوعات هذا الكتاب وهو عرضنا أمام القارىء الصور والمقدمات والنتائج التى تتصل بما نعالجه من موضوعات من طرف ثم ما يضاد ذلك كله من الطرف الآخر محتفظين برأينا ندلى به فى حينه بعد هذا العرض والسرد فاننا نحب أن نصطنع هنا هذا الأسلوب فيما يتصل بهذا الموضوع الشائك الدقيق لنخرج برأى مقارب لمنطق الحوادث ولمنطق الأشياء ولطبيعة الحياة لأن غايتنا فى هذا البحث العثور على الحقيقة ومعرفة الصواب دون نظر الى أن تكون النتيجة متفقة مع إرضاء شعورنا الدينى أو مضادة لإرضاء ذلك الشعور .

وها نحن أولاء ننقل بعض فقرات من كتاب « الإسلام والنصرانية » للاستاذ الامام الشيخ محمد عبده تصور ما يذهب إليه علماء الاسلام ومفكروه فى هذا الشأن .

قال الأستاذ الامام :

« كان الاسلام دينا عربيا ، ثم لحقه العلم فصار علما عربيا بعد أن كان يونانيا ثم أخطأ خليفة فى السياسة فاتخذ من سعة الاسلام سبيلا إلى ما كان يظنه خيراً له ، ظن أن الجيش العربى قد يكون عونا لخليفة علوى لأن العلويين كانوا ألصق ببيت النبى صلى الله عليه وآله وسلم فأراد أن يتخذ له جيشا أجنبيا من الترك والديلم وغيرهم من الأمم التى ظن أنه يستعبدها بسلطانه ويصطنعها بإحسانه فلا تساعد الخارج عليه ولا تعين طالب مكانه من الملك ، وفى سعة أحكام الاسلام وسهولته ما يبيح له ذلك ، هنا لك استعجم الاسلام وانقلب عجميا .

« خليفة عباس أراد أن يصنع لنفسه ولخلفه ، وبئس ما صنع بأمته ودينه أكثر من ذلك الجند الأجنبي وأقام عليه الرؤساء منه فلم تكن إلا عشية أو ضحاها حتى تغلب رؤساء الجند على الخلفاء واستبدوا بالسلطان دونهم ، وصارت الدولة فى قبضتهم ، ولم يكن لهم ذلك العقل الذى راضه الاسلام ، والقلب الذى هذبه الدين ، بل جاءوا إلى الاسلام بخشونة الجهل يحملون ألوية الظلم . لبسوا الاسلام على أبدانهم ، ولم ينفذ منه شيء إلى وجدانهم ، وكثير منهم كان يحمل إلهه معه يعبده فى خلوته ، ويصلى مع الجماعات لتمكين سلطته ، ثم عدا على الاسلام آخرون كالتتار وغيرهم ومنهم من تولى أمره ، أى عدو لهؤلاء أشد من العلم الذى يعرف الناس منزلتهم ، ويكشف لهم قبح سيرهم ! ! فمالوا على العلم وصديقه الاسلام ميلتهم ، أما العلم فلم يحفلوا بأهله ، وقبضوا عنه يد المعونة ، وحملوا كثيرا من أعوانهم أن ينتظموا فى سلك العلماء ، وأن يتسربلوا بسرابيله ليعدوا من قبيله ، ثم يضعوا للعامة فى الدين ما يبغض إليهم العلم ويبعد بنفوسهم عن طلبه ، ودخلوا عليهم وهم أغرار من باب التقوى وحماية الدين ، زعموا الدين ناقصا ليكملوه ، أو مريضا ليعللوه ، أو متداعيا ليدعموه ، أو يكاد أن ينقضى ليقيموه .

« نظروا إلى ما كانوا عليه من نخفخة الوثنية ، وفى عادات من كان حولهم من الأمم النصرانية ، فاستعاروا من ذلك للاسلام ما هو براء منه ، لكنهم نجحوا فى اقناع العامة بأن فى ذلك تعظيم شعائره ، وتفخيم أوامره ، والغوغاء عون القائم ، وهم يد الظالم ، فخلقوا لنا هذه الاحتفالات ، وتلك الاجتماعات وسنوا لنا من عبادة الأولياء والعلماء والمتشبهين بهم ما فرق الجماعة ، وأركس الناس فى الضلالة ، وقرروا أن المتأخر ليس له أن يقول بغير ما يقول المتقدم وجعلوا ذلك عقيدة حتى يقف الفكر وتجمد العقول ، ثم بثوا أعوانهم فى أطراف الممالك الاسلامية ينشرون من القصص والاخبار والآراء ما يقنع العامة بأنه لا نظر لهم فى الشئون العامة ، وأن كل ما هو من أمور الجماعة

والدولة فهو مما فرض فيه النظر على الحكام دون من عداهم ، ومن دخل فى شىء من ذلك من غيرهم فهو متعرض لما لا يعنيه ، وأن ما يظهر من فساد الأعمال . واختلال الأحوال . ليس من صنع الحكام ، وإنما هو تحقيق لما ورد فى الأخبار من أحوال آخر الزمان ، وأنه لا حيلة فى إصلاح حال ولا مآل ، وأن الأسلم تفويض ذلك إلى الله ، وما على المسلم إلا أن يقتصر على خاصة نفسه ، ووجدوا فى ظواهر الألفاظ لبعض الأحاديث ما يعينهم على ذلك ، وفى الموضوعات ، والضعاف ما شد أزرهم فى بث هذه الأوهام ، وقد انتشر بين المسلمين جيش من هؤلاء المصلين ، وتعاون ولاة الشر على مساعدتهم فى جميع الأطراف ، واتخذوا من عقيدة القدر مثبطا للعزائم ، وغلا للأيدى عن العمل ، والعامل الأقوى فى حمل النفوس على هذه الخرافات إنما هو السذاجة وضعف البصيرة فى الدين وموافقة الهوى ، أمور إذا اجتمعت أهلكت ، فاستتر الحق تحت ظلام الباطل ، ورسخ فى نفوس الناس من العقائد ما يضارب أصول دينهم ويباينها على خط مستقيم .

« هذه السياسة ، سياسة الظلم وأهل الأثرة ، هى التى روجت ما أدخل على الدين مما لا يعرفه ، وسلبت من المسلم أملا كان يخترق به أطباق السموات وأخلدت به إلى يأس يجاور به العجماوات ، فكل ما تراه الآن مما تسميه إسلاما فهو ليس بإسلام ، وإنما حفظ من أعمال الاسلام صورة الصلاة والصوم والحج ومن الأقوال قليلا منها حرفت عن معانيها ؛ ووصل الناس بما عرض على دينهم من البدع والخرافات إلى الجمود الذى ذكرته وعدوه ديناً ، نعوذ بالله منهم ومما يفترون على الله ودينه فكل ما يعاب الآن على المسلمين ليس من الاسلام ، وإنما هو شىء آخر سموه اسلاماً » انتهى .

ويرى الدكتور هيكل باشا فى كتابه الفاروق عمر الجزء الثانى .

« أن العوامل التى كان لها أثر فى قيام الحضارة الاسلامية ، وفى عظمة الأمبراطورية فى القرون الأولى قد كان لها كذلك عظيم الأثر حين بدأت عوامل الانحلال تدب فى كيان الأمبراطورية »

وهو يعنى بهذه العوامل أن رقعة الفتح الاسلامى حينما اتسعت وشملت الفرس والروم لم يضن أهل هذه البلاد التى لها قدمة والتى لها سابقة فى الحضارة والرقى بأن يحتضنوا العرب ويظهروهم على مالهم من تجارب ونظم ، وما كونوه من تراث فى الفن والفلسفة والآداب ، تأثرت بها الحضارة الاسلامية ، وقامت على دعائمها الامبراطورية العربية .

ثم يتابع هيكل باشا كلامه فيقول « كيف يؤدى تفاعل عوامل بذاتها إلى آثار متناقضة فيكون سببا فى قيام الامبراطورية وعظمتها ، ثم يكون سببا فى تدهورها وانحلالها ؟ ؟

الجواب عن هذا السؤال يصدق على الامبراطورية الاسلامية ، وعلى غيرها من الامبراطوريات ، فكم هذه العوامل ، ومبلغ تفاعلها ، يختلفان فى زمن عنهما فى زمن آخر ، وهذا الاختلاف يؤدى إلى تباين النتائج ذلك أمر طبيعى نشهده فى الظواهر الاجتماعيـــة كما نشهده فى الظواهر الطبيعية ، فكما يؤدى اختلاف الأنواع والمقادير فى العناصر الكيمائية إلى اختلاف تفاعلها وما يترتب على هذا التفاعل من نتائج ، كذلك يؤدى اختلاف الكم والنوع فى فى العناصر الاجتماعية إلى مثل هذه النتيجة ، فاذا زادت القوى المعنوية فى الجماعة سواء أكانت هذه القوى روحية أم خلقية أم عقليـة أدى تفاعلها مع القوى المادية إلى سمو الجماعة وعظمتهـــا ، ذلك بأن القوى المعنوية هى التى تدفعنا إلى طلب الكمال الإنسانى وإلى الدأب فى سبيله والجماعة مع ذلك لاغنى لها عن قواها المادية . ومضاعفة نشاطها . وهذه القوى تزداد نشاطا وإنتاجا بدافع من القوى المعنوية فاذا ضعفت معنوياتنا ضعف نشاطنا المادى وتضاءل إنتاجنا » .

هذه هى آراء بعض المفكرين الاسلاميين فى سبب تأخر المسلمين . والعوامل التى ساعدت على ذلك .

أما ما يرتكن إليه بعض المستشرقين فى رأيهم المضاد لذلك فيتلخص فى

أن عوامل الانحطاط ودوافع الانحلال . لم تكن طارئة على الاسلام أجنبية عنه دفع إليها دفعا رغما عن إرادته . وقسراً عن طبيعته مما لاحيلة له فيه بل كانت هذه العوامل والبواعث التى أدت إلى ضعف المسلمين وتأخرهم هى من تعاليم الاسلام ذاته . وإلا فكيف يتفق أن ينتظم هذا التأخر المسلمين جميعاً فى كافة المعمورة ويستنتج هؤلاء أساتيذ فهم من أن الاسلام أعطى ولى الأمر مقاليد المسلمين وجعل كافة شئونهم وأمورهم ملك يديه فشل بذلك حرية التفكير فى الفرد . وأعدم فيه رغبة النهوض والطموح الا فيما يرضى ولى الأمر ويتفق مع عقليته وأهدافه . حتى أن اسم الدين نفسه فيه معنى الاستسلام والانقياد وعلى رأس هؤلاء المستشرق « أجناس جولد تسيهر »

ويرى آخرون أن السبب فى تاخر المسلمين وانحلالهم يرجع إلى ما فى تعاليم دينهم من إيمان بالجبرية التى فيها دعوة صريحة إلى التواكل والخلود وعدم السعى فى الحياة وعلى رأس هؤلاء الكاتب الأمريكى «واشنجتون ايرفنج» الذى يقول ما ترجمته .

(لقد(١) ألهم محمد مذهب الجبرية من وحى الساعة فكان إلهاماً معجز الحدوثه فى أنسب أوقاته . فقد حدث تواً بعد غزوة أحد المنكودة التى ذهبت بأرواح عدد غير قليل من أنصاره . ومن بينهم عمه حمزة .. عندئذ وفى ساعة وجوم وهلع تحطمت أثناءها قلوب أصحابه المحيطين به أصدر هذا القانون بينهم أن لا مفر لإنسان من أن يتوفى فى ساعة أجله . فى فراشه كان أو فى ساحة الوغى .

أية عقيدة يمكن أن يصورها صاحبها أدق من هذا التصوير ليدفع بها للغزو طائفة من الجنود الجهلاء الأغرار دفعاً وحشياً . إذ يقنعهم عن يقين بالفيء لمن يبقى والجنة لمن يموت . ولقد جعلت هذه العقيدة جند المسلمين لا يكاد يغلبه غالب . لكنها احتوت كذلك السم الذى يقضى على سلطانه فمنذ اللحظة التى كف فيها خلفاء النبى عن أن يكونوا غزاة فاتحين . ومنذ أغمدوا

---

(١) راجع ذلك فى كتاب حياة محمد لهيكل باشا بعنوان (المستشرقون والحضارة الاسلامية)

سيوفهم بصفة نهائية بدأت العقيدة الجبرية تعمل عملها الهدام فقد أرهف السلم أعصاب المسلمين كما أرهفها المتاع المادى الذى أباحه القرآن . والذى يفصل فصلا حاسما بين مبادئه ودين المسيح . دين الطهر والإيثار . فصار المسلم ينظر إلى ما يصيبه من بأساء على أنها بعض ما قدر الله عليه . وما يجب الإذعان له واحتماله ما دام كل جهد . وكل حكمة إنسانية عبثا لانفع له . ولم تكن قاعدة (أعن نفسك يعنك الله) مما يرى أتباع محمد تنفيذه . بل كان عكسها نصيبهم) .

هذان هما الرأيان اللذان تعرضا للبحث فى هذه المسألة الدقيقة غاية الدقة العميقة كأقصى ما يتصور العمق ورأينا أن كلا الرأيين غير صحيح . وان كان الرأى الأول يقرب من الحقيقة ويلمسها بعض الشىء . وإليك الدليل :

أن دعوة الاسلام كأى دعوة أخرى عالمية ناجحة لا بد أن تعتمد فى مبادئها ونظمها وقوانينها على أركان ثلاث الركن الخلقى والركن الاجتماعى والركن الاقتصادى . وأن يكون تشريعها بما فيه من واجبات وحدود مستمداً عناصر وجوده ومواد قوانينه من هذه الأركان الثلاث .

والاسلام بطبيعته كدين من الأديان يستند على دعامته الأولى وهى الدعامة الروحانية إلا أنه لم يغفل البتة هذه الدعائم الثلاث بل ان التقارب وطبيعة الدعوة الاسلامية آلفت بينها جميعا فتأثرت الأركان الثلاث وهى الركن الخلقى والركن الاجتماعى والركن الاقتصادي بالدعامة الأولى للاسلام وهى صفة الروحانية وبالتالى أثرت فيها فأظهرتها للناس بمظهر جديد لم يلمسوه فيما عرفوه من ديانات . وما آمنوا به من عبادات سابقة الاسلام ومن يراجع ما كتبناه فى فصل (مكانة الاسلام بين الديانات) يتبين له أن هذا الدين كان بمثابة ثورة فكرية على ما تواضع عليه الناس من قبل فى فهم العقيدة الالهية وما كونوه لأنفسهم من آراء عن طبيعة الدين ورسالته . ومدى الآثار المترتبة عليه فى حالتى الايمان أو الالحاد .

فالاسلام ولو أنه ينتظم مع هذه الديانات فى الإيمان بوجود الله وفى إحياء المبادىء الروحية . وفى الترغيب والترهيب والجزاء والعقاب إلا أنه يختلف عنها جميعا فى وسائله وغاياته الكاملة ونظرته للناس وللحياة .

ومن هنا ندرك السر فيما استنتجناه غير مرة فى هذا الكتاب وهو الصلة بين الديانات وبين ما بلغه الإنسان من تطور وإدراك .

لقد قلنا إن الديانات عند ما كانت تتنزل على بنى البشر كانت تقتضيها ضرورة ملحة . وكانت تستوجبها أزمات عميقة تتطلب حلا وعلاجا . وهى من أجل ذلك لم تكن ترتفع عن مستوى البشرية . أو تتصادم وتتعارض مع قوة وعيها وإدراكها . وإنما كانت متفقة معها فيما بلغته من تطور . كاشفة لها عن آفاق جديدة لتكيف بها حياتها ولتهىء لنفسها ما تبغيه من استقرار وصمو واتزان .

والدارس لكل الديانات السماوية العالمية يجد أن ذاتياتها وصفاتها تؤرخ حالات مختلفة . وتسجل صوراً متباينة من تاريخ التطور البشرى فالصبغة التى كانت عليها الديانة اليهودية . والغايات التى جاءت لتحققها تختلف فى مجموعها عما كانت عليه المسيحية . وما تبغى الوصول إليه من غايات . كما تختلف الديانتان الأخريان عن الصبغة التى اصطبغ بها الاسلام . وما كان ينشد تحقيقه من مبادىء ونظم ويسعى إليه من أهداف . لذلك لا يمكن أن يتفق أن تشغل أحد هذه الديانات الثلاث مكان الأخرى لأن ذلك يتنافى ومنطق الطبيعة . وسنة التطور فى الكائنات .

وعلى ضوء هذا الاستطراد سنسهب بعض الشىء فى شرح وبيان الأسس التى قام عليها الاسلام لنرى إلى أى حد كيف أدى انهيار بعض هذه الأسس إلى توالد الميكروبات والأمراض التى أخذت تعمل عملها فى القضاء على ما فى جسم الاسلام من قوة وصحة وحيوية حتى تركته أخيراً فى مرحلة التأخر والإنحلال .

قلنا إن الاسلام فى صميم دعوته قام ليحقق للبشرية مبادىء ثلاثة تتمثل فيما وضعه من قواعد الأخلاق والاجتماع والاقتصاد . ودللنا على أن رسالته الروحية كانت تغذى هذه القواعد الثلاث ، وكانت دائبة دائماً على غرسها فى النفوس . فالعبادات التى شرعها الله للمسلمين هى بذاتها إيحاءات قوية لتثبيت هذه القواعد فى القلوب وتماسكها بالوجدان ، لأن هذه العبادات جميعها ليست إلا مظاهر من مظاهر الاسلام ، وليست إلا وسائل يحقق بها غاياته .

والركن الخلقى ظاهر وواضح فى الدعوة الاسلامية : فالقرآن يقول : (ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة) ويقول أيضا : (واذا حكمتم بين الناس أن تحكموا بالعدل) ويقول : (ولا تمش فى الأرض مرحا إنك لن تخرق الارض ولن تبلغ الجبال طولا) ويقول : (ولا تستوى الحسنة ولا السيئة ، ادفع بالتى هى أحسن ، فإذا الذى بينك وبينه عداوة كأنه ولى حميم) ويقول : (واخفض لهما جناح الذل من الرحمة ، وقل رب ارحمهما كما ربيانى صغيرا) . ويقول (خذ العفو وأمر بالمعروف واعرض عن الجاهلين) ويقول (واصفح الصفح الجميل) ثم لم يجد صفة أروع ولا أعظم يمدح بها نبيه غير أن يقول : (وإنك لعلى خلق عظيم) .

والنبى عليه السلام يقول: (لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه) ويقول أيضا : (مثل المؤمنين فى توادهم وتراحمهم كمثل الجسد .. إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الأعضاء بالحمى والسهر) . ويروى أنه عليه السلام وهو فى مرض الوفاة خطب المسلمين فقال : (أيها الناس : من كنت جلدت له ظهراً فهذا ظهرى فليستقدمنى ، ومن كنت شتمت له عرضا فهذا عرضى فليستقدمنه ومن أخذت له مالا فهذا مالى فليأخذ منه ولا يخش الشحناء فهى ليست من شأنى)

فالإيثار ، والصراحة ، والصدق ، والاعتدال فى كل شيء ، والضمير النقى ، والقلب النظيف ، والأمانة التامة ، والبعد عن الموبقات والفساد وكل أنواع الشرور الظاهرة والخفية .. كل ذلك من الصفات البارزة التى رسمها القانون الخلقى فى الاسلام . والتى جعلها تتحقق فى النفس الانسانية بما دعا إليه من تعاليم وعبادات . فاذا لم تتحقق هذه الصفات فى شعار الدولة وكانة شئونها

وفى سياسة الأمة ونفوس حكامها ورعاياها ، كان فى ذلك هدم وقضاء على أهم ركن من أركان الاسلام وهو الركن الخلقى .

والركن الثانى الذى اعتمدت عليه الدعوة الاسلامية هو الركن الاجتماعى ويتبين فيما أمر به القرآن ودعا اليه النبى من المساواة المطلقة بين الناس جميعاً ، وفى قضائه على ما تواضع عليه الناس من النظام الطبقى فى قوة وعنف ، وفى استئصاله كل ما اصطنعه العالم من وسائل التمييز بين الأجناس ورفع بعضهم درجات فوق بعض لا لعبقرية ولا لعمل مفيد صالح للمجتمع وللانسان ، وإنما لوشيجة العنصر ، وطبيعة الدم ! فأنكر الاسلام كل ذلك فى غير هوادة فالناس أمام القانون سواء فى الحقوق والواجبات والحدود ، وفى شعور بعضهم نحو بعض . فالله يقول فى كتابه الكريم : (يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا . إن أكرمكم عند الله أتقاكم) أى أصلحكم وأنفعكم لنفسه ولقومه ولأمته . وقيل إن السبب فى نزول هذه الآية أن رسول الله صلى الله عليه وسلم أمر بنى بياضة أن يزوجوا أبا هند امرأة منهم - وهو مولى لهم فقالوا يا رسول الله : نزوج بناتنا من موالينا ؟!! فنزلت هذه الآية الكريمة . وفى حجة الوداع يخطب رسول الله المسلمين فيقول (أيها الناس : إن ربكم واحد ، وان أباكم واحد كلكم من آدم ، وآدم من تراب ، ليس لعربى على عجمى فضل الا بالتقوى) .

وحينما سرقت فاطمة المخزومية - وكانت من طبقة رفيعة من العرب - جاء أناس يستشفعون لها حتى لا يقيم الرسول الحد عليها . فغضب عليه السلام غضباً شديداً ثم قال : (إنما أهلك من كان قبلكم أنهم اذا سرق الشريف تركوه ، واذا سرق الضعيف أقاموا عليه الحد . وأيم الله لو أن فاطمة بنت محمد سرقت لقطع محمد يدها) . .

بقى الركن الأخير وهو الركن الاقتصادى . . وهو ما شرعه من الزكاة ، وجعل لها قوة الحق المعلوم الذى لا سبيل الى التغاضى عن أدائه طوعا أو كرها . ثم ما سنه من التضامن الاجتماعى ومن مسئولية الدولة نحو الفرد :

فبيت مال المسلمين هو الخزينة العامة للدولة التى أنشئت لتراعى مصالح المسلمين ، فتتولى شئون المعدمين الذين لا مورد ولا عائل لهم ، والذين تقعد بهم الظروف أو تقعد بهم حالتهم الجسمانية عن العمل والكسب . وهو نوع مما سماه العلماء الاجتماعيون حديثا : « التأمين الاجتماعى ضد البطالة وضد العجز والشيخوخة » .

وولى الأمر باعتباره راعيا ، وكل راع مسئول عن رعيته ، فى عنقه تحقيق مصالح الأمة وتوطيد كيانها ، وتجديد حيويتها وشبابها . فالاسلام باعتباره دين ودولة احتفل كل الاحتفال بالناحية الاقتصادية ، وكانت له نظرته الخطيرة فى علاقات الناس المادية بعضهم مع بعض . فهو لم يحرم الملكية المطلقة التى تأتى ثمرة لمجهود شخصى بحت دون استغلال لظروف خاصة ، ودون استغلال للغير بلا مقابل وبوسائل الإكراه والضغط . . وإنما أقرها بشرط أن تتفق مع ما رسمه ودعا اليه من قوانين أخلاقية واجتماعية . . ذلك أن الظاهرة الواضحة فى الاسلام أن أركانه وأسسه التى قام عليها متصل بعضها ببعض اتصالا وثيقا بحيث لو تلاشى أحد هذه الأركان أو الأسس كان فى ذلك القضاء كل القضاء على روح الاسلام ولبه وجوهره .

لم يحرم الاسلام الملكية التى تأتى عن طريق هذه الوسائل الشريفة لأنه فى تكوين عناصره ومبادىء دعوته كان يؤمن بالفرد . وكان يعترف بما له من قوة وحيوية وإرادة . ثم إنه بعد ذلك كله أتى حافزا لعوامل اليقظة والنشاط ، باعثا الحيوية والقوة والأمل فى نفس الانسان لاستغلال خيرات الأرض والانتفاع بظواهر الطبيعة . ولكنه مع ذلك أوجب الضريبة التى تتمثل فى الزكاة . وهذه الزكاة كانت فى العهد النبوى الأول صدقة يترك أمرها لضمير الغنى وعاطفته نحو الفقير والمسكين . ولكن بعد أن كثر المسلمون وانتشر الاسلام فى الجزيرة العربية ، رفعت من ذلك الدور وجعل لعمال يأخذونها من أصحابها . . وذلك لما ركب فى الغريزة البشرية من حب للأثرة والغلبة والامتياز .

ومن هنا ندرك السر فى أن الاسلام كان يحرص من وراء ذلك على عدم خلق الطبقات ، وعلى عدم وجود هذه الفروق الفاحشة بين الجماعة الاسلامية فيمن يملك كثيرا وفيمن لا يملك شيئا . وذلك لأنه لم يوجب هذه الزكاة إلا بعد أن أصبح المسلمون كأمة وكمجتمع له كيانه ومظهره واستقلاله . . وهى المقومات الخاصة لوجود الدولة .

بقى بعد ذلك أن ننظر فى أى مرحلة من مراحل التاريخ الاسلامى اعتدى على هذه الأركان الثلاث لنبسط من وراء ذلك الأسباب الحقيقية التى أدت الى تفكك الامبراطورية الاسلامية وانحلالها .

ويقتضينا الأسلوب العلمى فى العرض ، وطبيعة هذا البحث أن نلم إلماما يسيرة بحالة المسلمين وما كان يكتنف حياتهم ويكمن فى نفوسهم من عوامل الانفعال بهذا الدين الجديد وذلك بعد موت النبى مباشرة .

فمما لا شك فيه ، ومما أجمع عليه المؤرخون أن المسلمين ذهلوا لما علموا بوفاة النبى ، وأنه اعترتهم حالة من الفزع الشديد والحيرة البالغة ، لأنهم وإن كانوا قد أحسوا أن النبى قد أدى رسالته ، وأن الله قد أكمل لهم دينهم بعد نزول هذه الآية الكريمة : (اليوم أكملت لكم دينكم ، وأتممت عليكم نعمتى ، ورضيت لكم الاسلام دينا) . إلا أنهم لم يكونوا يظنون أن النبى سيتركهم فى هذه الفترة الخطيرة من حياتهم ، وقبل ان يعين له خليفة من بعده يأخذ بيدهم ، ويكون لهم سندا من هذه الأعاصير التى كانت تتذبذب لهم فى الداخل وتحيط بهم من الخارج . .

ولن نستطيع أن نتصور مقدار الحالة التى كان عليها المسلمون بعد علمهم بهذا النبأ الفاجع دون أن ندرك ما حدث لعمر بن الخطاب من اضطراب وذهول وثورة نفسية . . فلقد وقف عمر فى المسجد يخطب المسلمين ، ويندد بمن يقول إن النبى قد مات ، ويتوعدهم بعقاب شديد . والمسلمون بعضهم يستمع له وبعضهم يعرض عنه ، إلى أن جاء أبو بكر الصديق ـ هذا الشيخ المحنك السمح الرزين ـ فوجد المسلمين فى المسجد فى صخبهم وضوضائهم وفزعهم الأكبر . .

فصعد المنبر ، ثم خطب الناس فى ثبات وهدوء بقوله : « أيها الناس ، من كان يعبد محمدا فان محمدا قد مات . ومن كان يعبد الله فان الله حى لا يموت . ثم تلا قوله تعالى : (وما محمد إلا رسول قد خلت من قبله الرسل . أفإ مات أو قتل انقلبتم على أعقابكم ؟! ومن ينقلب على عقبيه فلن يضر الله شيئا وسيجزى الله الشاكرين) » .

سمع عمر هذه الآية ولم يكن واعيا لها ، فخر الى الارض مغشيا عليه لأنه آمن بموت النبى حقيقة . ولكنه لم يستسلم للجزع ، وانما تحمل المصاب الفادح بما عرف عنه من صبر وقوة وإيمان.

وهدأ اضطراب المسلمين بعض الشىء ، وأخذوا يفكرون فى مصيرهم بعد أن رفع النبى الى الرفيق الاعلى. فاجتمع الانصار فى سقيفة بنى ساعدة يتداولون الأمر فى أحقيتهم بالخلافة بعد رسول الله لأنهم هم الذين آووا النبى ونصروه وأعزوه بعد أن كرهه قومه وطاردوه وحملوه على الهجرة فراراً من اعتدائهم وظلمهم وتعسفهم . وعلم عمر بذلك ، فأرسل إلى أبى بكر يستدعيه وهو يجهز النبى ليسجيه مضجعه الاخير . ولم يقبل أبو بكر أن يترك جهاز النبى لغيره من أهله إلا بعد إلحاح من عمر شديد ، لأن عمر كان يخشى أن تندلع نار الفتنة بين المسلمين ، وكان يفزع من أن يتطرق الى وحدتهم أى عامل من عوامل التفرق والاصطدام .

واصطحب عمر وأبو بكر معهما أبا عبيدة بن الجراح حيث ذهبوا جميعا الى اجتماع الانصار فى سقيفة بنى ساعدة . وأدلى الانصار بحجتهم فى أنهم أولى بالخلافة لإعزازهم النبى ونصرهم له ، واحتضانهم الاسلام بعد أن طارده المشركون وتنكرت له الاغلبية الساحقة من قريش ... ورد عليهم أبو بكر بهذا الخطاب الذى يتمثل فيه النبل والخلق الكريم والحرص مع ذلك على العدل والتمسك بالحق . قال : « أيها الانصار . نحن المهاجرون أول الناس اسلاما ، وأكرمهم أحسابا ، وأوسطهم دارا ، وأحسنهم وجوها ، وأكثرهم ولادة فى العرب ، وأمسهم رحما برسول الله . أسلمنا قبلكم ، وقدمنا فى القرآن عليكم ،

فقال تبارك وتعالى : (والسابقون الأولون من المهاجرين والأنصار والذين اتبعوهم بإحسان) فنحن المهاجرون وأنتم الانصار إخواننا فى الدين وشركاؤنا فى الفىء ، وأنصارنا على العدو . أما ما ذكرتم فيكم من خير فأنتم له أهل ، وأنتم أجدر بالثناء من أهل الارض جميعا . فأما العرب فلن تعرف هذا الأمر إلا لهذا الحى من قريش . فمنا الأمراء ومنكم الوزراء » ثم قدم اليهم أبا عبيدة بن الجراح وعمر بن الخطاب ليبايعوا أيهما شاءوا . فلم يكن من عمر الا أن طلب من أبى بكر أن يبسط يده ليبايعه وهو يقول : « ألم يأمرك النبى بأن تصلى أنت يا أبا بكر بالمسلمين ؟ فأنت خليفته ونحن نبايعك فنبايع خير من أحب رسول الله منا جميعا » وبايعه أبو عبيدة بن الجراح وهو يقول : « إنك أفضل المهاجرين ، وثانى اثنين إذ هما فى الغار ، وخليفة رسول الله على الصلاة أفضل دين المسلمين . فمن ذا الذى ينبغى له أن يتقدمك أو يتولى هذا الأمر عليك ؟ » ثم تتابع بعد ذلك المهاجرون والأنصار فبايعوا أبا بكر .

إلى هنا أصبح أبو بكر هو والى المسلمين الشرعى . فلننظر الى أى حد تمسك بروح الاسلام وحافظ على تعاليمه ، وماذا كان حظه من الحرص الدقيق على هذه الأركان الثلاث التى قلنا إن دعوة الاسلام قامت عليها . ولن نجد شيئا يدلنا على تمسك أبى بكر بهذه القواعد الخلقية التى دعا اليها الاسلام ، والتى تمثل بها رسول الله فى حياته أقوى من هذا الخطاب الذى استهل به أبو بكر ولايته قال : « أيها الناس :

« إنى قد وليت عليكم ولست بخيركم ، فان أحسنت فأعينونى ، وان أسأت فقومونى . الصدق أمانة ، والكذب خيانة . والضعيف فيكم قوى عندى حتى أرد عليه حقه إن شاء الله ، والقوى فيكم ضعيف عندى حتى آخذ الحق منه إن شاء الله . ألا لا يدع قوم الجهاد فى سبيل الله إلا ضربهم الله بالذل ، ولا تشيع الفاحشة فى قوم إلا عمهم الله بالبلاء . أطيعونى ما أطعت الله ورسوله فإن عصيت الله ورسوله فلا طاعة لى عليكم . قوموا الى صلاتكم يرحمكم الله »

أنظر الى هذه الشخصية الجبارة فى غير عنف ، القوية فى اعتدال ، التى

التزمت هذه التبعات ، وتمسكت بقواعد الأخلاق المثالية التى لم ير العالم ولن يرى أروع وأنبل منها . انظر الى تصوير هذه العلاقة بين الوالى ورعيته التى صورها والتزمها الخليفة الأول للمسلمين — هل تجد فى سموها وعظمتها شيئا مما اصطنعته الحضارة الحديثة من نظام وما تزعم بلوغه من رقى ؟ !

أما الركن الاجتماعى وهو المساواة المطلقة فى الحقوق والواجبات - فنجد أبا بكر من أقوى الحريصين عليه ، المتمسكين به لا فيما بين الرعية بعضهم مع بعض فقط ، وإنما فيما بينه وبين الرعية جميعا . انظر الى هذا الرجل خليفة المسلمين وولى أمرهم وهو يشيع جيش أسامة الذاهب الى الشام لمحاربة الروم ؛ وأسامة راكب فرسه - وهو شاب لما يكد يبلغ العشرين - وهذا الشيخ المسن يسير بجانبه راجلا كأى جندى بسيط من جنود المسلمين !! .. فيناديه أسامة : « يا خليفة رسول الله ! والله لتركبن أو لأنزلن » فيرد عليه أبو بكر : « والله لا تنزل ووالله لا أركب . وما على أن أغبر قدمى فى سبيل الله ساعة . . » ثم ماذا بعد ذلك ؟ .. ثم يرجوه - إذا شاء - أن يدع له عمر بن الخطاب ليعينه ويشير عليه فى أمور المسلمين !! فيأذن له أسامة فى ذلك . . !!

ثم يتجلى تمسكه بهذا الركن الاجتماعى أوضح وأعظم فى مساواته بين الناس جميعا فى أعطياتهم من الفىء - لا فضل لأحد على أحد . ولما راجعه بعض الصحابة فى ذلك وراودوه على أن يجعل لمن لهم القدمة والسابقة فى الاسلام الحظ الأوفر من العطاء - قال لهم هذه الكلمة الخالدة : « أما ذكرتم من الفضل والسوابق والقدم فما أعرفنى بذلك ؟ وإنما ذلك شىء ثوابه على الله جل ثناؤه . وهذا معاش ، فالأسوة فيه خير من الأثرة » .

بقى بعد ذلك الركن الاقتصادى . ولسنا فى حاجة لأن نؤكد لك تمسك الصديق به فى غير هوادة ولا تساهل ، وبمعناه الذى شرعه الله وعمل به رسوله فلقد حدث بعد موت النبى مباشرة أن تبلبلت الأفكار وتشعبت الفتن فى أنحاء الجزيرة العربية ، وامتنع قوم ممن أسلموا عن أداء الزكاة وإن ظلوا بعد ذلك مسلمين ولم يرتدوا عن دينهم . وجمع أبو بكر الصحابة واستشارهم فى امرهم

فأشار بعضهم بتركهم ما داموا ينطقون الشهادتين ويؤمنون بالله ورسوله ، ويؤدون فروض الاسلام الأخرى . ورأى البعض الآخر أن فروض الاسلام متماسكة بعضها ببعض ، فلو عطل أحدها كان فى ذلك هدم لبقية الفروض الأخرى . ولذلك وجب محاربتهم .

ثم إن هذه الزكاة هى حق بيت المال ، وبيت المال هو المسئول الأول عن الضعفاء والعجزة والمعدمين ومن لاعائل لهم من فقراء المسلمين . ولذلك نرى ابا بكر يوافق على الرأى الأخير ، ويقف من هذه المسألة موقفا رائعا كله صرامة وشدة فيقول : « والله لو منعونى عقالا كانوا يؤدونه الى رسول الله لقاتلتهم عليه » . ولما راجعه عمر بن الخطاب بقوله : « كيف نقاتل الناس وقد قال رسول الله : (أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا : لا إله إلا الله ، وأن محمداً رسول الله . فمن قالها عصم منى ماله ودمه إلا بحقها . وحسابه على الله) ؟ رد عليه بقوله : « والله لأقاتلن من فرق بين الصلاة والزكاة ، فإن الزكاة حق المال ، وقد قال : إلا بحقها »

أرأيت اذاً كيف تمسك أبو بكر بهذا الركن حتى أعلن الحرب من أجله وجعلها مشروعة كمشروعية حرب المرتدين والمشركين . ذلك أنه رأى أن التهاون فى تعطيل ركن من أركان الاسلام - فضلا عن أن فيه زعزعة من قوة العقيدة فى النفوس - فإن فيه اهداراً وضياعا لحق من حقوق الفقراء والمعدمين والمحرومين من فقراء المسلمين ، مما حدا بعمر أخيرا أن يتحمس لمحاربة مانعى الزكاة ، وأن يقول « والله ما هو إلا أن رأيت الله قد شرح صدر أبى بكر للقتال فعرفت أنه الحق » !..

هكذا كان تمسك الخليفة الأول بهذه الأركان الثلاث كما رأيت ، فلننظر ماذا كان حظ الخليفة الثانى عمر بن الخطاب من ذلك . . . ويقيننا الذى لا يتطرق إليه الشك أن السمات التى اتصف بها الاسلام ، والذاتيات التى ميزته عن غيره وظهر بها فى وضوح وجلاء وقوة : عاملا فى سبيل الحق ، مقدسا العدل المطلق متسللا الى أعماق النفس البشرية ، دارساً الدوافع الخفية فى ضمير الإنسان ، غير

غافل عن تكوينه المادى ، وحياته الواقعية - نعتقد أن هذه الصفات والسمات والذاتيات التى ذكرنا كأنها كانت متبلورة فى نفس عمر ، مستترة وراء عقله الباطن حتى تهيأت لها الظروف ، ووجدت المناسبات فبرزت لتعمل عملها وتنهض بما يجب أن تنهض به من تقديس للحق ، ومن تمسك بالعدل المطلق على أى صورة من الصور ، وبأى وجه من الوجوه .

ونستطيع أن نلمس شيئا من ذلك فى تصرفات عمر وأخلاقه وإيحاءاته النفسية التى كان يخالف بها الرسول وغيره من الصحابة ؛ فينزل الوحى مؤيداً رأيه . . كما حدث فى أمر أسرى بدر ، وكما حدث فى أمر نساء النبى حينما طلب منه عليه السلام أن يحتجبن فنزل الوحى مؤيداً له فى ذلك أيضا . وكما حدث فى تحريم الخمر ، حينما طلب من الله أن يبين للمسلمين فيها لأنها تذهب العقل والمال فنزل الوحى بالتحريم فى قوله تعالى : (يا أيها الذين آمنوا إنما الخمر والميسر والأنصاب والأزلام رجس من عمل الشيطان فاجتنبوه .. الخ الآية) .

وفيما روى من أن النبى بعث * أبا هريرة يبشر بالجنة من شهد أن لا إله إلا الله مستيقنا بها قلبه . فلما سمعه عمر رده الى رسول الله رداً عنيفا ، وذهب فى أثره يسأل رسول الله أحق قد بعثه يبشر الناس هذه البشرى ؟ فلما أجاب رسول الله أن نعم ، قال عمر : « فلا تفعل فإنى أخشى أن يتكل الناس عليها فخلهم يعملون » فأخذ رسول الله برأيه وقال : فخلهم .

هذه كلها أشياء تدلنا على نفسية عمر ، ومدى إدراكه للحقائق ، وفهمه للأمور ، ونظرته للناس والأشياء والحياة . والشىء الذى نريد أن نخرج به من تلك الإلمامة اليسيرة هو أن الخليفة الثانى عمر فى قوة شخصيته وفى نضوج عقله واجتهاد رأيه قد حافظ على هذه الأركان الثلاث محافظة دقيقة بكل ما ترمى اليه هذه الكلمة من معنى . وقد أضفى عليها من روحه ونضوج عقله واجتهاد رأيه ما جعل لها قوة الغريزة فى نفوس المسلمين ، وما جعلها سنداً وعماداً

---

* راجع كتاب (الفاروق عمر) لهيكل باشا ص ٧ جزء أول

لنشأة هذه الامبراطورية وقوتها وحيويتها وقيادتها للعالم . ذلك أن الظاهرة الواضحة فى قيام الامبراطوريات وعظمة الأمم وتصدرها لقيادة البشرية هى ما ترسمه لنفسها وتستظهر بها على غيرها من قواعد خلقية واجتماعية واقتصادية تتفق مع الحق وتتمشى مع العدل المطلق .

وعمر بن الخطاب وهو الذى اتسعت فى عهده رقعة الفتوح الإسلامية ، وتزعزعت أمام قوات المسلمين بنايات الامبراطوريتين الفارسية والرومانية ، ودخل العرب بلاداً غريبة عنهم ، لأهلها قدمة وسابقة فى الحضارة . . ومع ذلك نجد جميع المؤرخين من مسلمين ومستشرقين يجمعون على أن أهل هذ البلاد التى كانت خاضعة للفرس والروم كانوا يعجبون من أمر هؤلاء البدو الذين لم يأخذوا بحظ يذكر من الثقافة ، ومع ذلك يتخلقون بأخلاق عالية غاية فى السمو والرقى : من حب للعدل ، وتقديس للحق ، وإيمان بالمبدأ ، والتضحية فى سبيله والتمسك به ! ومن أن فتحهم للبلاد وغزوهم للأمم لم يكن لاستغلالها وإنما كان لإصلاحها ، ولم يكن لاستعبادها وإنما كان للنهوض بها خلقيا واجتماعيا واقتصاديا . . حتى أن البلاذرى يروى أن عمر بن الخطاب لما ذهب الى الشام لإبرام معاهدة الصلح : « ... وعند مقدمه الجابية من أرض دمشق مر بقوم مجذومين من النصارى ، فأمر أن يعطوا من الصدقات ، وأن يجرى عليهم القوت »

ونظرة فاحصة لبنود معاهدة الصلح التى أبرمها مع أهل المقدس فى كتابه الذى كتبه لهم ـ والذى سجله الطبرى ـ ما يكفى فى الدلالة على كل ذلك :

(بسم الله الرحمن الرحيم . هذا ما أعطى عبد الله عمر أمير المؤمنين أهل إيلياء من الأمان . أعطاهم أمانا لأنفسهم وأموالهم ، ولكنائسهم وصلبانهم وسقيمها وبريئها وسائر ملتها أنه لا تسكن كنائسهم ولا تهدم ولا ينتقص منها ولا من حيزها ولا من صليبهم ولا من شىء من أموالهم ولا يكرهون على دينهم ولا يضار أحد منهم ، ولا يسكن بإيلياء معهم أحد من اليهود . وعلى أهل إيلياء أن يعطوا الجزية كما يعطى أهل المدائن وعليهم أن يخرجوا منها الروم واللصوص

فمن خرج منهم فهو آمن على نفسه وماله حتى يبلغوا مأمنهم ، ومن أقام منهم فهو آمن وعليه ما على أهل إيلياء من الجزية . ومن أحب من أهل إيلياء أن يسير بنفسه وماله مع الروم ويخلى بيعهم وصلبهم فإنهم على أنفسهم وعلى بيعهم وصلبهم حتى يبلغوا مأمنهم . ومن كان بها من أهل الأرض فمن شاء منهم قعد وعليه مثل ما على أهل إيلياء من الجزية ، ومن شاء سار مع الروم ، ومن شاء رجع الى أهله . وإنه لا يؤخذ منهم شيء حتى يحصد حصادهم . وعلى ما فى هذا الكتاب عهد الله وذمة رسوله وذمة الخلفاء وذمة المؤمنين - إذا أعطوا الذى عليهم من الجزية).

هذه كلها مقدمات لم يكن لنا بد من أن نقدمها لك لتتصور عهد عمر - وهو العهد الذى استقامت فيه المقومات الواضحة ، والأسس الظاهرة لنهوض الامبراطورية الإسلامية وتوجيهها للعالم وقيادتها له . ولكننا نرجع فنذكر لك بشيء من التوضيح ما أقامه عمر من قواعد الخلق والاجتماع والاقتصاد .

لقد خشى بعض المسلمين شدة عمر وغلظته وقسوته - بعد أن أوصى له بالخلافة أبو بكر الصديق - وبعد أن بايعه المسلمون . وكأن عمر أحس فى هذه الساعة - بما طبعت عليه نفسه عن الرأفة والقسوة معا ، وبما تتبلج به خواطر المسلمين - فصعد المنبر بعد أن فرغ المسلمون من مبايعته ثم خاطبهم بهذا الخطاب الذى يبين لك نفسيته وأخلاقه وقوة شخصيته ومدى صراحته . . قال :

* (بلغنى أن الناس هابوا شدتى ، وخافوا غلظتى ، وقالوا : قد كان عمر يشتد علينا ورسول الله بين أظهرنا ، ثم اشتد علينا وأبو بكر والينا دونه .. فكيف به وقد صار الأمر اليه ؟! . ومن قال ذلك فقد صدق .

. . إننى كنت مع رسول الله فكنت عبده وخادمه ، وكان من لا يبلغ أحد صفته من اللين والرحمة ، وكان - كما قال الله - « بالمؤمنين رءوفا رحيما . » فكنت بين يديه سيفا مسلولا حتى يغمدنى أو يدعنى فأمضى . فلم أزل مع رسول

---

* الفاروق عمر ص ٩٦ جزء أول

الله حتى توفاه الله وهو عنى راض، والحمد لله على ذلك كثيرا ، وأنا به أسعد .

.. ثم ولى امر المسلمين أبو بكر ، فكان من لا تنكرون دعتهوكرمه ولينه فكنت خادمه وعونه ، أخلط شدتى بلينه ، فأكون سيفا مسلولا حتى يغمدنى أو يدعنى فأمضى . فلم أزل معه كذلك حتى قبضه الله عز وجل وهو عنى راض فالحمد لله على ذلك كثيراً وأنا به أسعد .

.. ثم إنى وليت أموركم أيها الناس . فاعلموا أن تلك الشدة قد أضعفت ولكنها إنما تكون على اهل الظلم والتعدى على المسلمين . فأما اهل السلامة والدين والقصد فأنا ألين لهم من بعضهم لبعض ، ولست أدع أحداً يظلم احداً أو يتعدى عليه حتى أضع خده على الأرض ، وأضع قدمى على الخد الآخر حتى يذعن للحق . وإنى بعد شدتى تلك أضع خدى على الأرض لأهل العفاف وأهل الكفاف .

.. ولكم على أيها الناس خصال أذكرها لكم فخذونى بها :

.. لكم على أن لا أجتبى شيئا من خراجكم ولا ما أفاء الله عليكم إلا من وجهه . ولكم على إذا وقع فى يدى ألا يخرج منى إلا فى حقه . ولكم على أن أزيد أعطياتكم وارزاقكم ان شاء الله تعالى ، وأسد ثغوركم . ولكم على ان لا ألقيكم فى المهالك ، وألا أجركم فى ثغوركم ، وإذا غبتم فى البعوث فأنا أبو العيال .

.. فاتقوا الله - عباد الله - وأعينونى على انفسكم بكفها عنى ، وأعينونى على نفسى بالأمر بالمعروف، والنهى عن المنكر، واحضارى النصيحة فيما ولانى الله من أمركم . اقول قولى هذا وأستغفر الله لى ولكم)

هكذا استهل الفاروق عهده بهذه السياسة التى رسمها لنفسه ؛ وبهذا الدستور الذى قدمه للمسلمين . والشىء الذى نحب ان نسجله هنا هو أن نجاح الدعوة الاسلامية وقوتها وعظمتها وانتشارها بهذه السرعة الهائلة كان يقضى بوجود أبى بكر الصديق على رأس المسلمين فى المرحلة التى تركهم النبى فيها وآثر الرفيق

الأعلى - فشخصية أبي بكر فى تكوينها وفيما طبعت عليه من تمثل لكل اعمال الرسول ، ومن تفان شديد مسرف فى شخصيته عليه السلام ، ومن تحر دقيق فى كل ما يقدم عليه من اعمال حتى يكون ذلك متفقا اتفاقا شديداً مع فعل النبى او قوله، حتى انه يقف ومعه القلة من المسلمين فى وجوب محاربة مانعى الزكاة ، ويقول كلمته المشهورة : (والله لو منعونى عقالا كانوا يؤدونه الى رسول الله صلى الله عليه وسلم لقاتلتهم عليه) . وحتى أنه يتردد بعض التردد لما أشار عليه عمر بجمع القرآن لأنه لم ير الرسول يفعل ذلك . وحتى انه - والثورات تلعب بذيلها لتهدد الجزيرة العربية - ينفذ جيش أسامة الى الشام ؛ لأن الرسول كان يريد ذلك . !! بالرغم من حاجته الشديدة الملحة الى وجود هذا الجيش بجانبه لتثبيت دعائم الأمن فى ربوع الجزيرة العربية .! هذه الشخصية بما طبع فيها من كل هذه المميزات والصفات تختلف اختلافا شديدا عن شخصية عمر - عن قسوته وشدته وصرامته على نفسه وعلى غيره من المسلمين ، وعن استقلاله فى الرأى واجتهاده فى القول .

ويخيل الينا أننا لو وضعنا الفاروق مكان الصديق ، أو لو وضعنا الصديق مكان الفاروق لكنا كمن وضع الشىء فى غير محله . ولترتب على ذلك ما يكون من وضع شىء فى غير محله من هذه النتيجة الطبيعية من التقلقل والتصدع الذى يؤدى حتما الى الانهيار .

فالظروف الأولى فى طبيعتها وتكييفها للحوادث التى نشأت عن وفاة النبى كانت توجب للقيادة شخصية كشخصية أبى بكر فى رفقها ولينها ومحافظتها محافظة حرفية دقيقة على روح الاسلام ، وعلى ما كان يأخذ به رسول الله المسلمين فى أمور دينهم ودنياهم .

أما الظروف فى المرحلة الثانية - وهى التى اتسعت فيها رقعة الفتح الاسلامى وورث العرب الامبراطورية الفارسية والرومانية ، ووجدوا امامهم حياة تختلف عن حياتهم البدوية ، بل وجدوا أنفسهم فجأة وعلى حين غرة وقد تهيأت

لهم الظروف ، وأصبحت ملك أيديهم الوسائل ليحيوا الحيـــاة التى كان يحياها عاهلا الفرس والروم؛ وما فيها من إغراق فى الترف، ومن اندفاع شديدمسرف نحو الشهوة ، ومن فتنة لهم عن دينهم وما فيـه من مثل عليـا خلقية واجتماعية واقتصادية كلفوا بالحرص على تحقيقها فى أنفسهم وفى نفوس غيرهم من الناس- أقول إن هذه الظروف كانت تقضى وتحتم بأن يكون على رأس المسلمين شخصية كشخصيـة عمر فى عدله المطلق ، وفى قسوته الشـديدة فى سبيـل الحق ، وفى مرونته واجتهاده فيما يعن له وللمسلمين من أمور ، وفى إلمامه بكل صغيرة وكبيرة من شئون رعاياه حتى ما يكون من أخص خصائصهم ، وفى رقابته الشديدة على عماله فى كافة الأمصار ومحاسبتهم حسابا عسيراً وعدم التسـاهل معهم فى شىء . .

وتقريرنا لهذا المبدأ ليس اعتباطاً منا ، وإنما هو شىء ضرورى لنجاح أى دعوة او إخفاقها . فطبيعة الدعوة واستعداد الشخص القائم بها أو القائم عليها من أقوى العوامل فى تقرير مصـير هـذه الدعوة من القوة أو الضعف ، ومن الإخفاق أو النجـاح .

هذه هى القواعد الخلقية ، ومدى تمسك عمر بها كما صور ذلك فى خطبته ، ثم فيما ذكرناه لك فى هذه الأشياء التى جاءت فى ثنايا الحديث عنه .

أما نظرته الاجتماعية - وهى التى خالف بهـا الصديق من عـدم المساواة المطلقة فى الأعطية - فلا يمكن أن نحملها على ان عمر كان يقر نظام الطبقات ، ولا يمكن أن نستدل من ذلك على عدم إيمـانه بالمساواة المطلقة التى دعا إليهـا الاسلام وعمل بها رسول الله فى حياته ، وحافظ عليها خليفته الأول من بعده .

إننا نستطيع أن نستدل على نظرة عمر الى هذه المسألة من رده على ابنه عبد الله لمـا سأله واستفسر منه - كيف يفرض لأسـامة بن زيد خمسـة آلاف من العطاء ويفرض له ألفين ، وقد شهد من الغزوات مالم يشهد أسامة ؟! قال عمر لابنه : (إن أسـامة كان أحب الى رسول الله منك ، وأبوه أحب الى رسول الله من أبيك) !! . .

إذاً فنظرة عمر الى هذه المسألة لم تكن إلا فى هذه الحدود الضيقة الموقوتة وهى القرب من الرسول أو البعد عنه . ولم تكن تشريعاً عاما يعمل به ويستند اليه ، وإنما كانت كما ارتأى هو فى العطاء : (لا أجعل من قاتل رسول الله صلى الله عليه وسلم كمن قاتل معه) .

فأخلاق عمر وطباعه النفسية وتصوره للناس وللحقائق والحياة تتنافى مع ميله لوجود الطبقات . وتنهض دليلا قويا على إيمانه بالمساواة المطلقة التى لا يحدها حد ولا يقيدها قيد .

ونظرة يسيرة الى ما كان يأخذ به نفسه ، ويعالج به شئون المسلمين . . تبين لك ما اصطبغت به نفسه من حب للمساواة فى الحقوق والواجبات وفى كافة الشئون الأخرى . فليس موقفه من عمرو بن العاص حينما اشتكى اليه قبطى من مصر اعتداء ابن عمرو على ابنه بغريب على من قرأ المبادىء المبسطة فى التاريخ الاسلامى .

ثم موقفه من جبلة بن الأيهم حينما كان يحج . وبينما هو يطوف بالبيت وطىء إزاره رجل من بنى فزارة فانحنى ، فرفع جبلة يده فهشم أنف الفزارى . فاشتكاه الى عمر . فدعا عمر جبلة وسأله ، فاعترف بما حدث . فقال عمر لجبلة (قد أقررت فإما أن ترضى الرجل وإما أن أقيده منك) . وأنكر جبلة ما سمع وقال (وكيف ذلك وهو سوقة وأنا ملك ؟!) قال عمر (إن الاسلام جمعك وإياه ، فلست تفضله بشىء إلا بالتقى والعافية) قال جبلة (قد ظننت ياأمير المؤمنين أن أكون فى الاسلام أعز منى فى الجاهلية) قال عمر (دع عنك هذا ، فانك إن لم ترض الرجل أقدته منك) قال جبلة (إذاً أتنصر) قال عمر (اذا تنصرت ضربت عنقك لأنك أسلمت ، فان ارتددت قتلتك)

فلما رأى جبلة الصدق من عمر قال (أنا ناظر فى هذا ليلتى هذه ، ثم اتخذ الليل ستارا له وفر هاربا الى الشام .

وحينما كان يذكر عمر بلالا - مؤذن الرسول عليه السلام - وعتق أبى بكر له يقول : (أبو بكر سيدنا وأعتق سيدنا)

وليس من يؤمن بتفاوت الطبقات هو الذى يقول :

(والله لئن جاءت الأعاجم بالأعمال وجئنا بغير عمل ، فهم أولى بمحمد منا يوم القيامة . فان من قصر به عمله لا يسرع به نسبه)

ثم ليس من النظام الطبقى فى شىء أن يكون حظ ابن خليفة المسلمين وولى أمرهم أقل من حظ شاب مثله - كأسامة بن زيد - فى العطاء . ولما يستفسر ابن الخليفة والده فى ذلك - وقد أبلى فى الجهاد ما لم يتوفر لأسامة : يكون رد هذا الوالد عليه : (لقد كان أسامة أحب الى رسول الله منك ، وأبوه أحب الى رسول الله من أبيك) .

فكل هذه السمات والمظاهر والصور التى تترادف وتتراءى من وراء ذلك لا تدل إلا على أن ما فعله عمر لم يكن إلا نوعا من التمجيد لذكرى الرسول ، ولم يكن إلا صورة صادقة لعاطفة المحبة والإكبار لذاته الكريمة عليه السلام . يدلنا على ذلك ما انتواه عمر وما أفصح عنه فى أخريات أيامه من أنه سيسوى فى العطاء بين المسلمين ، وأنه سينهج نهج أبى بكر فى ذلك ، ولو أن المنية وافته ولم يحقق ما أراد .

أما سياسة الفاروق الاقتصادية ورقابته الشديدة على عماله فى كافة الأمصار وانفاقه المال فى السبيل التى رسمها الاسلام - فلقد ضرب فى كل ذلك أروع المثل .

اقرأ هذه الفقرة من خطبته التى استهل بها عهده :

(.. ولكم على أيها الناس خصال أذكرها لكم فخذونى بها :

.. لكم على أن لا أجتبى شيئا من خراجكم ولا ما أفاء الله عليكم إلا فى حقه . ولكم على ان أزيد عطاياكم وأرزاقكم إن شاء الله تعالى ، وأسد ثغوركم

ولكم على ألا ألقيكم فى المهالك ، وألا أجمركم فى ثغوركم . وإذا غبتم فى البعوث فأنا أبو العيال) .

ثم انظر بعد ذلك ماذا كان موقفه فى المعاهدة التى أبرمها أبو عبيدة ابن الجراح مع أهل دمشق ومن تعديله لبعض بنودها وأحكامها هذا التعديل الذى ينبئنا عن قوة عقله ومدى نظرته للأمور وتصرفه فيها على مبادىء الحق . وعلى سنن العدالة الاجتماعية فقد جعل أبو عبيدة بن الجراح (الجزية(١) ديناراً وكيلا معينا من الحنطة على كل رأس وزيتاً وخلا لقوت المسلمين . هذا خلاف الضرائب التى كان الدمشقيون يدفعونها لحكامهم من الروم فقد ظلوا يدفعونها لمن قام على حكمهم من المسلمين .

أبلغ أبو عبيدة عهد الصلح عمر بن الخطاب فكتب اليه بتعديله . وذلك بأن فرق بين الطبقات فى الجزية ، إذ جعل على الأغنياء أربعة دنانير عن كل رأس ، وأربعين درهما على من دونهم ، وقيل بل جعلهم طبقات على قدر غنى الغنى ، وإقلال المقل ، وتوسط المتوسط) .

ثم كان موقفه فى منتهى الحزم والقوة . وفى غاية من النضج الاقتصادى والوعى الاجتماعى عندما اجتهد برأيه ونظر إلى بعيد . وقدر النتائج على المقدمات ولم يقبل أن تقسم الأرض بين الجنود الفاتحين الغازين كما هو الشأن فى القيم المنقولة . ! ذلك أن المتعارف عليه وما قرره الشرع الحكيم أن ما يجلب من الغنيمة كان يرسل خمسه إلى أمير المؤمنين . وتوزع أربعة أخماسه بين الجنود المنتصرين عملا بقوله تعالى (واعلموا أنما غنمتم من شىء فأن لله خمسه وللرسول ولذى القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل) وقد فهم المسلمون أن القيم الثابتة مثل القيم المنقولة مما ينطوى تحت هذه الآية الكريمة . ومما يكون غنيمة يصدق عليها ما يصدق على غيرها من الغنائم ولذلك لما

---

(١) انظر كتاب الفاروق عمر لهيكل باشا ج أول .

(فتح(١) المسلمون أرض السواد بالعراق أرادوا قسمتها على هذا النحو يكون خمسها لبيت المال، ويقسم سائرها بين الجند الذين اشتركوا فى فتحها وخالفهم عمر رأيهم فى قسمة الأرض وقال: فكيف بمن يأتى من المسلمين فيجدون الأرض بعلوجها قد قسمت وورثت عن الآباء وحيزت! ما هذا برأى قال عبد الرحمن بن عوف: الأرض والعلوج إلا ما أفاء الله عليهم! أى على الفاتحين ورد عليه عمر: ما هو إلا كما تقول، ولست أرى ذلك، والله ما يفتح بعدى بلد فيكون فيه كبير نيل، بل عسى أن يكون كلا على المسلمين. فإذا قسمت أرض العراق بعلوجها وأرض الشام بعلوجها فماذا تسد به الثغور وما يكون للذرية والأرامل بهذا البلد وبغيره من أرض الشام والعراق!

لم يسترح الفاتحون إلى قول عمر: فأكثروا عليه وقالوا: أتقف ما أفاء الله علينا بأسيافنا على قوم لم يحضروا! أما عمر فأصر على رأيه ولم يزد على أنه قال: هذا رأيى. فلما رأوا إصراره عليه قالوا: فاستشر. فجمع المهاجرين الأولين فاختلفوا: بقى عبد الرحمن بن عوف على رأيه أن تقسم لهم حقوقهم، ورأى عثمان وعلى وطلحة رأى عمر، وأرسل عمر إلى عشرة من كبراء الأنصار وأشرافهم. خمسة من الأوس. وخمسة من الخزرج. وقال لهم «إنى لم أزعجكم إلا لتشتركوا فى أمانتى فيما حملت من أموركم فإنى واحد كأحدكم وأنتم اليوم تقرون بالحق. خالفنى من خالفنى. ووافقنى من وافقنى. ولست أريد أن تتبعوا هذا الذى هو هواى، فلكم من الله كتاب ينطق بالحق فوالله لئن كنت نطقت بأمر أريده ما أريد به إلا الحق!» قالوا: «قل نسمع يا أمير المؤمنين» قال عمر: «قد سمعتم كلام هؤلاء القوم الذين زعموا أنى أظلمهم حقوقهم، وإنى أعوذ بالله أن أركب ظلما! لئن كنت ظلمتهم شيئا هو لهم، وأعطيته غيرهم لقد شقيت، لكنى رأيت أنه لم يبق شىء يفتح بعد أرض كسرى. وقد غنمنا الله أموالهم وأرضهم وعلوجهم فقسمت ما غنموا من أموال بين أهله وأخرجت

---

(١) راجع كتاب الفاروق عمر ج ثانى

الخمس فوجهته على وجهه . وأنا فى توجيهه وقد رأيت أن أحبس الأرضين بعلوجها . وأضع عليهم فيها الخراج . وفى رقابهم الجزية يؤدونها فتكون فيئاً للمسلمين : المقاتلة والذرية ولمن يأتى بعدهم . أرأيتم هذه الثغور لا بد لها من رجال يلزمونها ! أرأيتم هذه المدن العظام ، لا بد لها من أن تشحن بالجيوش ، ولا بد من لها إدرار العطاء عليهم ! فمن أين يعطى هؤلاء إذا قسمت الأرض والعلوج ؟! »

هذا هو رأى عمر وما فيه من صراحة وقوة واجتهاد . ونظرة بعيدة إلى مستقبل الإسلام والمسلمين . وما تكون عليهم حالتهم لو أطاع هؤلاء الجند إلى ما يريدون ولذلك لم يلبث هؤلاء الأنصار العشرة أن قالوا « الرأى رأيك فنعم ما قلت . وما رأيت ! إن لم تشحن هذه الثغور وهذه المدن بالرجال وتجرى عليهم ما يتقوون به رجع أهل الكفر إلى مدنهم » .

إلى هنا نكتفى بهذا القدر . ونقف برهة متأملين فيما عرضناه من صور تفصح عن روح الإسلام فى مراحله الثلاث الأولى وهى عصر النبى وعصر الصديق أبى بكر وعصر الفاروق عمر . وقد رأينا كيف نمت روح الإسلام فيها جميعاً وكيف ترعرعت ونضجت وكملت فى مظهرها وجوهرها . وأصبح لها سلطان . كسلطان الغريزة فى النفوس . والعقيدة فى القلوب . وذلك لم يكن إلا بفضل ما أفاء الله به على نبيه من قوة الشخصية . ومن صفة العبقرية ثم بفضل ما أتيه كل من الخليفتين الأولين من طبيعة ومن إيحاءات نفسية كانت تختلف فى كل منهما بعض الشىء . ولكنها على كل حال كانت تتفق وطبيعة المشاكل وعلاجها . وكانت شخصية كل منهما واعية تماماً لسيكولوجية النفوس والحوادث . وما يترتب عليها من آثار . فتعمل لها عملها وتحسب من أجلها حسابها ، وتأخذ بناصيتها . فتتحكم فيها وتوجهها نحو الصالح العام . ولا تجعل لها أدنى سيطرة عليها فى أى شأن من الشئون أو أمر من الأمور .

ولكننا عندما نترك هذه المراحل الثلاث لنستقبل مرحلة أخرى من مراحل التاريخ الإسلامى نجد أن الاسلام قد تزحزح بعض الشيء عن مكانته . وقد فرط بعض الشيء فى جوهره الذى ظل محافظا عليه محافظة دقيقة بكل ما ترمى إليه هذه الكلمة من معنى فكانت سبله ووسائله تختلف فى معالجة الحوادث والقضاء فى الأقضية ، والإجتهاد فى التشريع ولكن جوهره لم يمس أبداً ، ولم يتساهل أى خليفة من الخليفين السابقين فى أن يمس جوهره ويعتدى على أى ركن من أركانه أدنى تساهل .

ولكن فى هذه المرحلة التى تولى فيها زمام الخلافة عثمان بن عفان نجد التوفيق الذى لازم الإسلام فى عهد الخليفتين السابقين قد تخلى عنه فى عهد الخليفه الثالث ونجد أن الاسلام فقد فى هذه المرحلة أقوى ما كان يعتمد عليه فى شخصية قائده من صفات وسمات تتفق مع قوة نهضته وتطوره ومن تكافؤ للتغلب على ما كان يعترض سبيله من صعاب . ويلم به من أحداث ، ونستطيع هنا أن نبرز الدليل على صحة نظريتنا التى اثبتناها فى هذا الفصل وهى أن العامل القوى فى نشر الدعوة الاسلامية ونموها وقوتها بهذه السرعة التى لم يرو التاريخ لها مثيلا لم يكن لما فى الدعوة من حق وعدل . ومبادىء حضارية فقط ، وإنما كان أيضاً لشخصية ممثل الدعوة وقائدها : ومقدار حظه من الوعى لطبيعة الحوادث وعلاجها والتغلب عليها أثر كبير فى ذلك .

فطبيعة الصديق أبى بكر كانت تتفق كما قلت وطبيعة الدعوة الاسلامية . بعد أن رفع النبى إلى الرفيق الأعلى ، وذلك لما تنطوى عليه شخصيته من رفق ولين ورحمة ، ومن تمثل شديد قوى . لكل فعل ، أو قول عن رسول الله عليه السلام ، فكان شعاره فى كل شيء ما أثر عنه من قوله (إنما أنا متبع ولست بمبتدع) وذلك لأن الدعوة لم تكن قد تأصلت بعد فى نفوس كل العرب . ولم تكن الظروف القاسية التى أحاطت بالمسلمين بعد وفاة النبى - ولم يكث عليه السلام بعد اكماله الدعوة بينهم كثيراً - تقبل أى تغيير ولو كان طفيفا فيما كان

يأخذ به المسلمين فى أمور دينهم ودنياهم ، ولم يكن صالح الدعوة يسمح بأى تزحزح أو تحلل ولو كان يسير عن سمات وطبيعة عصر النبى عليه السلام .

أما فى عصر الفاروق . وهو الذى وعى فيه العرب الدعوة الاسلامية على حقيقتها . ووطد الاسلام أركانه ، وتغلب على ماكان يتذبذب أمامه من عوامل الارتداد والنكسة واتسعت الفتوح الاسلامية حتى اخضع العرب لسيطرتهم ما كانت تنتظمه أمبراطوريتا فارس والروم من أمم وشعوب تختلفان فى الأمزجة والطباع وتتنافران فى سبل الحياة ، ووجدت مع هذا الفتح عوامل الاغراء للشهوات المدنيا ، وعوامل الفتنة عن الدين . ثم ما كان يتطلبه سرعة هذا الفتح واتساعه وتباينه لكل ذلك كانت شخصية عمر وماتتميز به من شدة وقوة وعدل ومضاء واجتهاد هى الشخصية التى تتكافأ وطبيعة الدعوة ومستلزمات هذه الفترة من حياة الاسلام .. ! ولكننا عندما ننظر إلى مابعد ذلك نجد فى غير مشقة ولاعسر أن قوة الشخصية . وتكافأها على طبيعة الظروف والأشياء ووعيها للحقائق وترتيبها النتائج على المقدمات لم تكن كما كنا نرجو فى قوة شخصية أبى بكر وعمر . ومن هذه النقطة الأولى وهى ضعف شخصية الخليفة الثالث عثمان بن عفان تبرز أمامنا أشياء فى غاية الخطورة وفى منتهى النكر أمام نظرة الاسلام فما لاشك فيه أن الاسلام حارب العنصرية فى نفوس العرب فى غير هوادة ولاشفقة . وهناك آيات كثيرة من القرآن الكريم ، واحاديث نبوية موثوق بصحتها انكرت العنصرية والتفاخر والتعالى بالآباء والأنساب وكان هذا من الأسس الثلاث التى اعتمدت عليها الدعوة الاسلامية . وهو الركن الاجتماعى ، وقد اسهبنا فى شرحه فيما سبق ، ولكن هذا الشبح المخيف بعد أن حورب فى نفوس العرب وقضى عليه قضاء تاما فى عهد النبى وأبى بكر وعمر أصبح يطل بوجهه الكئيب من جديد فى عهد عثمان وتغلبت الطبيعة الجاهلية الغاشمة وهى التعصب والتعالى بالعنصرية فى نفوس العرب على طبيعة الاسلام السمحة الصافية ، وكان من أثر ذلك أن فرط

الخليفة الحاكم بعض الشيء فى أهم ركن من أركان الاسلام .

ولسنا ندين لمن يقولون بأن العرب لم يكن لهم مفر من الرجوع إلى هذه العصبية العنصرية بعد أن ظهر لهم فى وضوح لا يقبل الشك هـذه المؤامرة الفارسية التى كان ضحيتها عمر بن الخطاب . ولـكن مهما يكن من شيء فإن هذه الحادثة فى خطورتها وهى قتل الخليفة لم تـكن تبرر أبداً التضحية ولو بعض الشيء بأهم ركن من أركان الاسلام . وبأن يترك العرب يتخلقون بأخلاقهم الأولى فى بداوتهم وجاهليتهم ، وكان من أثر ضعف هذه الشخصية وعدم تـكافؤها وماورثته من مسائل جسام ، ومن مشاكل متعددة استتبعت اتساع الفتح الاسلامى أن أصبحت أسرة عثمان هى كل شيء . وهى المسيطرة على شئون هذه الامبراطورية الناشئة .

ولسنا ندين كذلك لمن يبررون هذا المسلك من عثمان بما يشاهدون مثيله اليوم فى المذاهب السياسية المعاصرة ، وهو أن الحاكم إذا لم يستعن بأقاربه فهو يستعين حتما فى إدارة شئون الدولة برجال حزب به ممن يجمعهم وإياه مبدأ واحد وهذا إن لم يكن أقوى من القرابة فهو بمثابتها على الأقل . ثم إن أقرباء الانسان هم أولى الناس بالإئتمان على مصالح الدولة وأشدهم حرصا على التعاون معه في تصريف شئونها ، والنهوض بها ، ولـكننا ننكر هـذا التعليل الواهى فى قوة وصراحة ، فالاسلام له ذاتيته الخاصة ، وفلسفته الجديدة التى كانت تنتفع بكل المواهب الخيرة فى الانسان دون نظر إلى خلقته أو مكانته فى المجتمع العربى ، والاسلام عندما أوجب التعامل والتعاون بين المسلمين ، وأن يحس بعضهم بإحساس بعض وعندما سن النبي الأخاء بين المهاجرين والأنصار كان يريد من وراء ذلك كله أن يوجد بين المسلمين رباطاً أقوى من رباط الأسرة وأن يجعلهم جميعاً كجسد واحد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الأعضاء بالحمى والسهر فوجود هذه التعليلات هنا لا يتفق وهذا المجتمع الاسلامى الذى رباه النبي ونهض به أبو بكر وعمر .

ولسنا نريد من وراء كل ذلك أن نتهم عثمان فى إيمانه أو أخلاقه فإن هذا مما لا يمكن أن يرقى إليه الشك . إنما نتهم الفقر والضعف فى شخصيته . ونتهم نظره القصير الذى مهد سبيل الفتنة الكبرى أن تأخذ طريقها الى الإسلام وإن كان هو لم يفكر فى ذلك . ولم يدر بخلده أى مصير ينتظره الإسلام من جراء سياسته هذه الضعيفة المضطربة . ومثل بسيط نسوقه هنا يدلنا على مدى ضعفه . وقصر نظره . وعدم إحاطته بكل شئون رعيته وتساهله الشديد المسرف مع عمالئه على الامصار حتى أصبحوا هم المسيطرون وحدهم على شئون الرعية يتحكمون فيها دون حسيب ولا رقيب، وهو أنه عندما تولى الخلافة عزل الولاة عن الامصار فى عهد عمر وولى مكانهم أقاربه وكان والى مصر فى عهده أخوه من الرضاعة عبد الله بن أبى سرح . وحينما تبين لعثمان أن الجباية قد زادت فى مصر عما كانت عليه فى عهد عمرو بن العاص بمقدار ألفى ألف دينار قال لعمرو « إن اللقاح بعدك قد درت ! » أجابه عمرو فى تهكم « لأنكم قد أعجفتم الفصلان ! » هذا مثل واحد نسوقه هنا ليدلك على ما كان يعتور المجتمع الإسلامى فى ذلك الوقت وما كان ينفعل به المسلمون فى كافة الأمصار مما مهد الطريق لانبعاث عوامل الفتنة التى كانت شراً وبلاء ونكبة على المسلمين ذلك أن على بن أبى طالب يوافقه فى ذلك أقاربه من البيت الهاشمى كان يرى أنه أحق الناس بالخلافة بعد موت النبى مباشرة ولم يكن إيمان على بذلك قائماً على أساس أن الخلافة تورث . وإنما كان قائما على أساس أن المهاجرين والأنصار عندما اختلفوا فى سقيفة بنى ساعدة فى أمر الخلافة كانت حجة المهاجرين فى أنهم أولى بالخلافة من الأنصار أنهم أهل النبى وأقرباؤه الأدنون . فلم إذاً لا يكون علياً أولى بالخلافة من هؤلاء المهاجرين أنفسهم وهو من البيت الهاشمى أولا وابن عم النبى وزوج ابنته فاطمة ثانياً . . ! إلا أن علياً وحزبه من المعارضين كانت تتغلب عليهم العاطفة الدينية . وكان يتغلب عليهم الإيمان القوى فى عهد أبى بكر وعمر فيلغون فى أنفسهم ذاتيتهم ويتغاضون

عما يعتبرونه حقا وواجباً لهم ما دام فى ذلك خير الاسلام وعزه ومجده ممثلا فى صلاح ، وقوة ، شخصية خليفة المسلمين، وولى أمرهم .

أما فى عهد عثمان . وقد استشرى فيه الداء . وأصبح تذمر المسلمين واضحا فى كل أنحاء الأمبراطورية ، وذلك لضعفه ولينه وعدم سيطرته على الأمور ، فقد ظهر حزب على وأصبحت معارضته سافرة قوية فيما يعتبره منكراً وإثما فى حق الدين . وكان هذا هو أول الشر . وأولى النكبات التى منى بها الاسلام

هذا عرض سريع اسهبنا فى بعض مواضع فيه لأنه لم يكن لنا بد من هذا الاسهاب وذلك لنستظهر رأينا الذى نؤمن به وهو أن السبب الأول. أو السبب الخفى المستتر فيما ادى بالمسلمين إلى التأخر إنما وجد فى عهد عثمان بن عفان . وهو تضحيته بركن خطير من أركان الدعوة الاسلامية وهو الركن الاجتماعى وما استتبع ذلك من وجود طبقة اروستقراطية . ومن وجود اناس شرهين لجمع المال. مكنزين له دون أن يسألهم الخليفة من اين لكم هذا . . ! ودون أن ينكر عليهم حياة الترف والبذخ التى كانوا يعيشونها فى غير اعتدال بل فى إسراف .

وربما يعن للقارىء هنا ان يسأل سؤالا وهو كيف يتفق ان يكون الباعث فى تأخر المسلمين قد نشأ فى عهد عثمان . وقد رأينا الأمبراطورية الاسلامية تنمو وتتسع فى عهده . وتضخم فتوحاتها فى عهد من خلفه من الأمويين . وجوابنا على هذا السؤال يستلزم أن نسأل سؤالا آخر وهو هل كان انتصار المسلمين على أعدائهم وهل كان اخضاعهم الإمبراطوريتين العظيمتين فارس والروم . لقوة تسليحهم . واستعدادهم المادى ، وفقر خصومهم فى كل ذلك . ام كان لروحهم المعنوية ولشعورهم بأنهم على حق . ! نعتقد ان التعليل الأول لا يؤخذ به لأن المتفق عليه ، والذى لم يختلف فيه أى مؤرخ من المؤرخين ان الأمة العربية كانت فقيرة جداً ليس لها أى حظ من المادة . كما أنها لم يتوفر لها من معدات الحرب مثل ما كان لفارس أو الروم ثم إن التعليل الثانى

ليس هو كل شيء . وإنما هناك عامل خطير جداً كان السبب القوى فى نصرة العرب على غيرهم من الأمم والشعوب . وهو أن تلك الأمم والشعوب التى اخضعها العرب لسلطانهم . كان قد نفد رصيدها من الخلق . وكانت قد فقدت ما تسعى إليه كل أمة ناهضة من أهداف . وما تتمثله من مثل عليا فى الحياة . وهكذا نجد أن اتساع رقعة الفتوح الاسلامية لا يرجع الفضل فيها إلى عثمان أو خلفاء بنى امية . وإنما يرجع إلى أن الاسلام فى عهد النبي وابى بكر وعمر كان قد قضى على كل ما أمامه من قوة . وكان قد تخطى كل ماوضع فى طريقه من سدود . وكان قد حطم كل مقاومة جدية تحد من مضائه ونفاذه حتى جاء عهد عثمان وما تبعه من عهود ولم يكن قد وجدت بعد أية مقاومة تستطيع أن تقف فى طريقه . ثم إنه ليس من السهولة بمكان أن يتأثر الاسلام فى يوم وليلة وهو هذا الطود الشامخ بما يتسرب إلى جسمه من جراثيم وأدواء . وإنما كانت عوامل الصحة والقوة والحيوية فيه تتغلب على هذه الجراثيم والأدواء دائما وإن كانت لم تستطع أن تقضى عليها القضاء الأخير . حتى قدر لها أخيرا أن تتجمع وتتكاثر وأن تقضى عليه هو قضاء لا هوادة فيه وذلك لما ارتكبه بعض خلفاء الأمويين والعباسيين من منكر وإثم فى حق الدين مما سنمر به عليك مراً سريعاً .

ذلك أن الأمويين بعد أن استتب لهم الملك بمقتل على . وبعد أن وطد معاوية سلطانه بهذا الخداع السياسى الذى سماه التحكيم . والذى لايمكن إلا أن يفزع منه الضمير الإنسانى . ويتقزز منه الخلق القويم ..! أقول بعد أن استتب السلطان لمعاوية بهذه الطريقة الشائنة لم يفرط فى سياسته بما اعتمدت عليه الدعوة الاسلامية من الركن الاجتماعى فقط . وإنما فرط أيضاً فى ركن آخر خطير وهو الركن الخلقى ، وما نسجله هنا من شواهد وبينات موثوق بروايتها أصدق دليل على ماذهب إليه . ! والشيء الذى لا يمكن أن يختلف فيه اثنان هو أن الدولة الأموية كان طابعها البذخ والترف كما كان طابعها بعث العنصرية

العربية فى نفوس العرب . . . وليست حياة الترف شراً فى ذاتها إذا كان يتمتع بهذه الحياة كل فرد من أفراد الأمة . وإذا لم يكن ذلك فيه عبث بأموال الخزينة العامة ـ وهو بيت المال فى ذلك الحين ـ وتبديد الأموال فى غير السبيل التى وجدت من أجلها .. ! ثم إنه ليس بعث العنصرية فى نفوس أمة من الأمم شراً كلها إلا إذا كان فى ذلك هضم لحقوق غيرها من الأفراد والجماعات . وما سنثبته هنا يدلل لنا على أن العهد الأموى بتمثيله حياة الأورستقراطية العربية . وحياة الترف بعد ما كان العرب زاهدين صادفير عن ملذات الحياة . نعتقد أن ذلك كان شراً محضاً بالنسبة لدعوة الاسلام . وما تحمله من فلسفة جديدة للعالم ومبادىء ومثل عليا للحياة: لأن معاوية وابنه يزيد استطاعا بذلك. القضاء على كل معارضة أمامهما، ولم تكن سبيلهما فى القضاء على هذه المعارضة شريفة كما سترى ، وإنما كانت أشبه شىء بالرشوة ، وشراء الذمم ، وغصب التأييد بما يقدم لأصحابها من ثمن من مال الدولة .. ! وهذا فيه إهدار لركن من أركان الإسلام وهو الركن الخلقى (فلقد(١) كان عطاء الحسن والحسين ابنى على بحسب ديوان عمر خمسة آلاف درهم فى السنة جعله معاوية مليوناً من الدراهم أى أنه ضاعفه مائتى مرة . وأعطى مثل ذلك لعبد الله بن عباس لأنه ابن عم النبى صلى الله عليه وسلم . وكذا عبد الله بن جعفر بن أبى طالب . وغيرهم من أبناء الصحابة أهل النفوذ فى الإسلام ممن يقيمون بالمدينة .

ويروى أن عبد الله بن جعفر بن أبى طالب قدم على يزيد بن معاوية فقال له يزيد كم عطاؤك ؟ قال ألف ألف درهم قال قد أضعفناها لك . قال فداك أبى وأمى وما قلتها لأحد . قال اضعفناها لك ثانية : فقيل ليزيد أتعطى رجلا واحداً أربعة آلاف ألف درهم ؟ قال : ويحكم أنى أعطيتها أهل المدينة أجمعين فما يده فيه إلا عارية .) ثم إذا نظرنا من ناحية أخرى . نرى أنه كان فى بعث العنصرية

---

(١) كتاب الموالى فى العصر الأموى للأستاذ النجار

فى نفوس العرب الشر كل الشر على الدعوة الاسلامية وعلى قوة الامبراطورية وتآلفها وارتباطها : ففضلا عن أن ذلك فيه إهدار تام لركن هام من أركان الدعوة ،فإنه قد فتح باب الصراع المر بين المسلمين حتى أن قيام الدولة العباسية على إشلاء الدولة الأموية لم يكن إلا بسبب وجود هـذه العنصرية وما حاق بالموالى من أذى واضطهاد ومنكر لا يقره الدين . والدليل على أن بعث هذه العنصرية استعمل فى ناحيته السوء ما نذكره هنا مما يدلل على نظرة معاوية وسياسته ومدى تصوره أو هضمه للدعوة الاسلامية وهو أن الحسن بن على أعتق جارية له وتزوجها فكتب إليه معاوية يقول (من(١) أمير المؤمنين معاوية إلى الحسن بن على . أما بعد فإنه بلغنى أنك تزوجت جاريتك ، وتركت أكفاءك من قريش ممن نستحسن للولد ونمجد به فى الصهر فلا لنفسك نظرت ولا لولدك انتقيت) فرد عليه الحسن قائلا (أما بعد فقد بلغنى كتابك وتعييرك إياى بأنى تزوجت مولاتى . وتركت أكفائى من قريش فليس فوق رسول الله منتهى فى شرف ولا غاية فى نسب ، وإنما كانت ملك يمينى خرجت عن يدى بأمر التمست فيه ثواب الله تعالى ثم ارتجعتها على سنة نبيه صلى الله عليه وسلم . وقد رفع الله بالإسلام الخسيسة ووضع عنابه النقيصة . فلا لوم على امرىء مسلم إلا فى أمر مأثم ، وإنما اللوم لوم الجاهلية) وهناك ما هو أشد من ذلك فظاظة وقسوة وابتعاداً عن روح الدين وهو ما يروى (من(٢) أن معاوية دعا الأحنف بن قيس وسمرة بن جندب فقال لهما : انى رأيت هذه الحمراء قد كثرت (يقصد بالحمراء الموالى) وأراها قد قطعت على السلف . وكأنى انظر إلى وثبة منهم على العرب والسلطان . فقد رأيت أن أقتل شطراً وأدع آخر لإقامة السوق ، وعمارة الطريق فما ترون ؟ فقال الأحنف أرى أن نفسى لا تطيب أخى لأمى وخالى ومولاى وقد شاركناهم وشاركونا فى النسب . وأطرق : فقال سمرة بن جندب

---

(١) كتاب الموالى فى العصر الأموى (٢) نفس المصدر

اجعلها إلى أيها الأمير فأنا أتولى ذلك فيهم وابلغ منه فقال قوما حتى انظر فى هذا الأمر قال الأحنف فقمنا عنه وأنا خائف . وأتيت أهلى حزينا فلما كان بالغداة أرسل إلى فعلمت أنه أخذ برأيي وترك رأى سمرة).

ثم ما يروى أيضا من أن نافع بن جبير بن مطعم « قدم رجلا من الموالى يصلى به ، فلامه العرب أشـــد اللوم فقال : إنمـا أردت أن أتواضع لله بالصلاة خلفه » .

وكان نافع هذا « إذا مرت به جنازة قال من هذا ؟ فان قالوا قرشى قال : واقوماه ، وإذا قالوا عربى قال : وابلوتاه ، وإذا قالوا مولى قال : هذا مال الله يأخذ ما شاء ويدع ما شاء » .

ويروى أيضا أن خالد بن صفوان زوج مولى له من مولاه . ثم خطب فى هذا الزواج أمام الناس فقال « أما بعد فان الله أعز وأجل من أن يذكر فى نكاح هذين الـكلبين . وقد زوجنا هذه الفاعلة من هذا ابن الفاعلة » .

هذه كلها أشياء تصور لنا المجتمع العربى فى عهد الأمويين وما اعتوره من تغير شديد عن عهد النبي وخليفتيه أبى بكر وعمر والشىء الذى نحب أن نسجله هنا ما وجد من الأثر السيء نتيجة لتهاون عثمان أولا ، وما وجد من الاعتداء الصارخ على أركان الاسلام وروحه فى عهد الأمويين والعباسين ثانيا. حتى أسلمه الأخيرون إلى دور التأخر والإنحلال .

وهناك أمور على جانب هام من الخطورة غفل عنهـا الأمويون محافظة على كيانهم ، وتثبيتا لسلطانهم . وكانت بدورها أكبر كارثة منى بها الاسلام .

ذلك أن بغض الأمويين للموالى . واحتقارهم لهم . وعـدم الاعتراف بمساواتهم فى شىء . فضلا عن أنه قضى على ركن خطير كما قلت من أركان الاسلام . وهو الركن الاجتماعى . فإنه أنشأ فى الدين بدعا جديداً ، وأحدث حدثاً يتنافر وطبيعة الاسلام . . ! وهو هذه الأحاديث التى كانت تختلق اختلاقا

وتروى عن النبي عليه السلام . وذلك لتبرير عدم هـذه المساواة :
من ذلك مايروى من أن النبي عليه السلام قال :

(ألا(١) لا يزوج النساء إلا الأولياء ، ولا يزوجن إلا من الأكفاء) .
وما نسب إليه من قوله أيضاً (قريش بعضهم أكفاء لبعض بطن ببطن . والعرب بعضهم أكفاء لبعض قبيلة بقبيلة ، والموالى بعضهم أكفاء لبعض رجل برجل) .

كان فتح هـذا الباب الذى شجعته السياسة الأموية . وهو تأييد هـذه الأحاديث الموضوعة والمنسوبة إلى النبي عليه السلام شر أى شر أصيب به الاسلام..! ويكفى أن تعلم أن الأحاديث الموضوعة صارت تربو أخيراً عن ستماية ألف حديث لم يصح منها أكثر من أربعة آلاف حديث لدى البخارى ونعتقد أنه كان من أثر فتح هذا الباب وتشجيع السياسة الأموية له أن عادت إلى نفوس العرب عنجهيتها الجاهلية . وإلى نفوس غيرهم من الأمم الخاضعة لهم حقدها الدفين ، حتى أن قيام الدولة العباسية على أشلاء الأمويين لم يكن إلا بفضل الموالى وعلى رأسهم أبو مسلم الخرسانى الذى انكر نسبه فى سبيل مناهضته لدولة الأمويين ، ودعوة أهل خراسان إلى الإنقضاض عليها فاصطنع لنفسه نسباً عربياً وزعم أنه من نسل سليط بن عبد الله بن عباس . وإن كان لم يعلن ذلك إلا بعد قيام الدولة العباسية .

ثم إن هناك شيئاً على جانب كبير من الخطورة . وهو أن الأمويين كانوا يؤمنون فيما بينهم وبين أنفسهم بأن بناء دولتهم قام على أسس تتنافر والخلق الكريم . وبأن الحزب العلوى الهاشمى يصمهم بأنهم أخذوا الملك غصباً واحتيالا فلم يكن لهم مفر من أن يعتصموا بشىء يظهرون به أحقيتهم فى الخلافة ، وأنها

---

(١) كتاب الموالى فى العصر الأموى .

من الأمور المسلمة لهم منذ الأزل فأثاروا فى زمنهم مشكلة الجبرية، وشجعوها وعملوا لها. حتى يبرهنوا للناس على أن هذا الملك الذى استولوا عليه كتب لهم منذ الأزل متغاضين عن نتائج ذلك، وعما أحدثه فى الاسلام من فرقة وعما قتل فى المسلمين من حرية الرأى وقوة الإرادة. ولم تكن هذه الجبرية - أو حكم القضاء والقدر - الذى فهموه مما يتفق ونظرة الإسلام وحقيقته. وانما كان شيئاً أشبه كثيراً بمذهب الرواقيين اليونانيين، وهو الذى يدعو إلى القعود والإستسلام، وأن العيش ليس بالسعى ولا التدبير، وإنماهو بالرزق والتقدير دون أن يكون لعمل الإنسان فضل فى ذلك. وأن ماقدر أو كان. كتب على الإنسان منذ الأزل. دون أن يكون له اختيار أوإرادة فيه، وإن كان هذا المذهب لم يستكمل عناصر قوته وانتشاره إلا فى العصر العباسى.

وإذا أردنا نحن أن نلم الملمة خاطفة بنظرة الإسلام إلى هذه الجبرية. نجد أنه صورها تصويراً يتفق مع العقل والمنطق. ومع ما ينشده للإنسان من سمو وراحة واطمئنان.

والذى أحب أن أكرره هنا قبل أن ألمس هذه المسالة لمساً خفيفاً هو أن من يريد أن يفهم الإسلام على حقيقته يجب أن يؤمن بأنه لايتجزا، وبأنه مكمل بعضه بعضاً فى كافة تعاليمه وأوامره ونواهيه ويجب أن يضع نصب عينيه دائماً ما ينشده الإسلام من غايات من وراء ذلك كله.

والاسلام فى هذه المسألة كان واعياً تماماً حقيقة النفس الانسانية، وكان خبيراً بما يعتورها من ضعف. وما تنهار به من مؤثرات. فوجد لها من هذه الجبرية حصناً، وعلاجا يقيها شر الانهيار فالإنسان يسعى ويعمل، فاذا قدر له الفوز فلا يتعالى ولا يستكبر، وليحمد الله، لأنه هو الذى كتب له الفوز وأعانه عليه وإذا أخفق فلا ينهار ولا يتحسر، ولا يضعف ويتلاشى أمام ما يعترضه من حواجز، وينزل عليه من كوارث، لأن الله هو الذى أراد له

ذلك فالحمد لله فى الأولى والراحة النفسية فى الأخرى .

وإذا علمنا من جهة أخرى أن وجود الانسان ذاته خاضع لأشياء أخرى خارجة عن إرادته . وأنه يكيف حياته بعوامل ليست من اختياره وإن كانت خافية عليه وذلك لظروف البيئة . وحكم الوراثة . وأن الإنسان فى أعماله ، بل حتى فى مشاعره وإحساساته ، خاضع خضوعا تاما لأشياء ليس له أدنى حظ فى خلقها أو تفاعلها . وإنما هى مسيطرة عليه راسمة له حياته الوجودية بحكم القوانين الطبيعية . ومستلزمات الجنس والوراثة .

إذا علمنا ذلك كله تبين لنا بوضوح أن هناك قوى خفية أقوى من الانسان ترسم له حياته . وتتحكم فى تكييف وجوده .

يقول سبينوزا (إن الانسان إنما يعتقد أنه حر لأنه يجهل الأسباب التى تدفعه إلى الفعل) .

ونعود مرة أخرى ، فنأخذ فيما كنا فيه . فنقول أنه كان من أثر تشجيع الأمويين لهذه الجبرية التى رأيت أن الاسلام برىء منها أن أصبح العامة وأشباههم من جمهرة المسلمين يفهمون الدين على غير حقيقته . ويتساهلون فيما يقدم عليه الخليفة من منكر ، وفيما يأتيه من إثم . حتى أننا نجد خليفة من من الخلفاء الأمويين . وهو عبد الملك بن مروان يقتل عمراً بن سعيد حينما دعاه لزيارته ، وقد ذهب إليه فى نفر من أتباعه يبلغون الأربعة آلاف رجل أحاطوا بقصر عبد الملك بن مروان « فلما قتل عبد الملك عمراً أدرجه فى بساط وأدخله تحت السرير ، ودخل عليه حينذاك قبيصة بن ذؤيب الخزاعى ، وكان أحد الفقهاء ، ورضيع عبد الملك ، وصاحب خاتمه ومشورته ، فقال له عبد الملك ما رأيك فى عمرو بن سعيد ، فأبصر قبيصة رجل عمرو تحت السرير فقال له اضرب عنقه يا أمير المؤمنين . فقال له عبد الملك جزاك الله خيراً ، فما علمتك إلا ناصحاً أمينا موافقا . قال له : فيما ترى فى هؤلاء الذين أحدقوا

بنا ، وأحاطوا بقصرنا ؟ قال قبيصة : اطرح رأسه إليهم ، ثم اطرح عليهم الدنانير والدراهم يتشاغلون بها قال : فأمر عبد الملك برأس عمرو أن تطرح إليهم من أعلى القصر . فطرحت إليهم . وطرحت الدنانير ، ونثرت الدراهم ، ثم هتف عليهم الهاتف ينادى : (إن أمير المؤمنين قد قتل صاحبكم بما كان من القضاء السابق ، والأمر النافذ ..!! وكان على أمير المؤمنين عهد الله وميثاقه أن يحمل راجلكم ، ويكسو عاريكم ، ويغنى فقيركم فيبلغكم إلى أكمل ما يكون من العطاء والرزق ، ويبلغكم إلى المائتين فى الديوان فاعترضوا على ديوانكم واقبلوا أمره . واسكنوا إلى عهده . يسلم لكم دينكم ودنياكم . قال فصاحوا نعم نعم سمعا وطاعة لأمير المؤمنين » .

هكذا قد صورنا لك الاسلام فى عهد الأمويين ، ووضحنا لك نظرتهم للعقيدة الدينية ، وأنهم لم يكونوا حريصين على تثبيت قواعد الاسلام الخلقية والاجتماعية والاقتصادية قدر ما كانوا حريصين على دعم سلطانهم . وسيادة عنصرهم ، وتقوية دولتهم.

بعد ذلك ننتقل بك إلى عصر العباسيين فنستظهر سياستهم لنرى إلى أى حد تكون مسئوليتهم فيما ألم بالاسلام من عوامل التأخر ، ودواعى الانتكاس ، وأول شىء تتميز به سياسة العباسيين أنهم أنكروا على الأمويين ابتعادهم عن الدين ، وتغاضيهم عن تعاليمه فى إقامة دولتهم فآخوا هم بين الدين والدولة بل جعلوا دولتهم قائمة على أسس دينية محضة ، وهذا شىء عظيم جدا خطير حقا .لو أنهم أخذوا الدين صافيا خالصا مما ألم به من خرافات واختلاقات . ولكنهم أقاموا دولتهم على أسس رهبانية ينكرها الاســـلام ولا تتفق وروحه ورسالته .

ولا نحب أن نطيل كثيراً لأن غرضنا من هذا الفصل أن نستكشف الباعث الحقيقى الأول فيما أدى بالمسلمين إلى حالة التأخر والانحطاط . وقد

أريناك هذا الباعث فيما عرضنا لك مما سبق . ولكننا قبل أن نختم هذا الفصل نحب أن نسير قليلا لنعرض لك الأدوار التى مر بها الإسلام فى عهد العباسيين حتى اسلموه إلى دور الانحلال

لقد علمت مما قدمناه لك أن الدولة العباسية اعتمدت فى قيامها على الفرس وأن هؤلاء الفرس من الموالى بما لهم من استعداد قوى فى البحث . وبما لهم من من أفق واسع فى دراسة العلوم . قد اتجهوا بكليتهم عندما رأوا الأمويين هاضمين حقوقهم الاجتماعية والسياسية إلى ميدان البحث والعلم فبرزوا فى ذلك أى تبريز . وسيطروا على الحركة الفكرية فى الأمبراطوية العربية . وكان منهم المخلصون للدين . وغير المخلصين : وهؤلاء الأخيرون وهم الكثرة الغالبة . قد اصطنعوا فى الاسلام عناصر دياناتهم السابقة من مجوسية وغيرها . وشجعهم فى التغالى فى ذلك أن الأمويين لم يكونوا ينظرون إلى هذه الاختلاقات فى الدين نظرة الجد والصرامة . وانما كانوا منصرفين إلى تقوية دولتهم بسبيلين آخرين هما العنصرية أولا . والمال ثانيا . . ! ثم من جهة أخرى نجد أن هناك عاملين خطيرين مهدا السبيل لإضافة هذه الاختلاقات إلى الدين . وعدم محاربتها . والقضاء عليها وهى فى مهدها . أولهما فتح هذا الباب أولا بيد الأمويين وهو اختراع تلك الأحاديث المنسوبه إلى النبى عليه السلام لتفضيل العرب على غيرهم من الموالى . فلم يجد الموالى مانعا من أن يدلواهم أيضاً بدلوهم فى هذا السبيل . ثانياً انضمام الموالى لحزب آل البيت . وتحالفهم معهم للقضاء على الدولة الأموية كان من الأمور التى استدعت اصطناع أحاديث كثيرة تتفق . وأغراض هذا الحزب . وأفضليته وأحقيته فى الخلافة . حتى أننا نجد زعماء المعارضة للأمويين كانوا يدعون فى ظاهرهم لقيام خليفة من أهل البيت . وفى باطنهم لقيام خليفة من العباسيين لتكون هذه الدولة من صنعهم فيتحكمون فيها . ويوجهون سياستها حسب ما يشاؤون . ولذلك نجد أن الظاهرة الواضحة للدولة العباسية أنها اصطبغت فى ظاهرها وباطنها بالعهد

الفارسى القديم . وبما كان يسود عصر الساسانيين من ترف وبذخ ودسائس ونفاق وأوتوقراطية فى الحكم .

وإذا كانت الدولة الأموية قد اصطنعت فى الإسلام نظام الطبقات . ونظام التمييز فى الحقوق . وذلك بتفضيلها الجنس العربى على غيره . فقد تغالت الدولة العباسية فى ذلك أشد المغالاة . وأصبحت الشعوبية الفارسية تطل بوجهها على الجنس العربى . ولم يكن الخليفة فى غالب الأحيان إلا آلة توجه وليس لها من الأمر شىء . ونسوق هنا حادثة واحدة تثبت ما نذهب إليه . وهو أن خليفة من الخلفاء لم يستطع أن يبرم أمراً أو ينفذ شيئاً إذا كان يتعارض وأغراض السياسة الفارسية (من (١) ذلك أن أبا مسلم الخرسانى وجه محمد بن الأشعث بن عبد الرحمن أميراً على فارس ، ورأى أبو العباس أن يستعمل عليها عمه عيسى بن على . فعقد له عليها ، وأمره بالمسير إليها . فلما قدم عيسى على محمد بن الأشعث أبى أن يسلم إليه ، فقال له عيسى : يا ابن الأشعث . ألست فى طاعة الإمام أبى العباس ؟ قال : بلى . غير أن أبا مسلم أمرنى ألا أسلم العمل إلى أحد من الناس . قال عيسى فإنما أبو مسلم عبد للإمام . وإن الإمام لا يرضى أن يرد أمره . قال محمد . دع عنك هذا . لست أسلم العمل إلا بكتاب أبى مسلم . فانصرف عيسى إلى أبى العباس فأخبره بذلك فكظم غيظه . وأمر عمه بالمقام عنده فأقام) .

وهكذا نرى أن الإسلام من أول عهد الخليفة عثمان بن عفان كانت تتصارع فى جسمه الحى عوامل القوة والضعف . وكان دائما بما يختزنه من حيوية زائدة يتغلب على عوامل الضعف ويطغى عليها . ويجعلها تتلاشى فيه حتى مر عهد الأمويين . وعوامل الهدم تتدافع نحوه وتتكاثر عليه إلى أن أتى عهد العباسيين ولم تكن هذه العوامل وحدها هى التى تأخذ عليه سبيله . وتعمل عملها فيه . وإنما زاد على ذلك أن اصطبغ الإسلام بصبغة رهبانية فظهرت الكهنوتية الدينية فيه ظهوراً واضحاً . وأصبح الخليفة يعتقد أنه (ظل الله فوق الأرض)

---

(١) كتاب الموالى فى العصر الاموى

وأنه يستمد سلطته من الله .. ! تماماً كما كان يزعم البابا فى القرون الوسطى . وها نحن أولاء نثبت هنا فقرات من خطاب للخليفة المنصور العباسى تظهرنا على ما كان يسود عصر العباسيين من أوتوقراطية فى الحكم ومن فهم للخلافة لا يتفق وروح الإسلام .

قال المنصور العباسى :

(أيها الناس إنما أنا سلطان الله فى أرضه أسوسكم بتوفيقه وتأييده . وحارسه على ماله أعمل فيه بمشيئته وإرادته . وأعطيه بإذنه . فقد جعلنى الله عليه قفلا انشاء أن يفتحنى فتحنى لإعطائكم . وقسم أرزاقكم وإن شاء أن يقفلنى عليها أقفلنى) .

وكان من الطبيعى أن يتحقق هنا ما تتحقق لأوربا فى عهود ظلمتها وجهلها وتأخرها نتيجة لهذا النظام الأوتقراطى . وما يصحبه دائما من قتل للحرية الفردية . والكرامة الانسانية . ومن محافظة شديدة على الرجعية . ومناهضة كل فكرة تجديدية . ثم من محاربة مسرفة لجميع العلوم . والفنون التى تدعو إلى سنة التطور . والارتقاء .

حتى أننا إذا وجدنا فى هذا العصر العباسى شيئاً من التشجيع للعلماء والشعراء . فإن ذلك لم يكن لوجه الله . ولم يكن حقا من الواجب على الدولة نحو علمائها ونابغيها أن تمنحه إياهم . وإنما كان منحة يتفضل بها الخليفة على من يذيب نفسه . ويمتهن كرامته تملقاً له . وإشادة بفضله . وكرمه . وهجواً مراً لخصومه من السياسيين . وكان الخليفة بعد ذلك إذا شاء أعطى . أعطى من غير حساب من مال الدولة . وإذا شاء لم يعط : فلا أحد هناك بمستطيع حسابه . . !

نعتقد أننا إلى هنا قد أوفينا هذا الفصل حقه . وقد استظهرنا فيه العوامل

الحقيقية لتأخر المسلمين . مخالفين فى ذلك ما أثبتنا لهم آراءهم فى مقدمة هـذا الفصل من مستشرقين ومفكرين إسلاميين ... ونعتقد أننا لسنا فى حاجة لمناقشتهم آراءهم لأن ما عرضناه هنا فيه الرد المقنع لهم جميعاً .

بقى بعد أن عرفنا ، وألممنا بما أدى بالمسلمين إلى هذا التأخر أن نعرف السبل والوسائل التى تؤدى بهم إلى النهوض والرقى ، وإلى أن يأخذوا بنصيبهم فى مجالى التقدم الحضارى ، وإلى أن يكون لهم دورهم فى المحافظة على كيان الإنسانية ، وسعادتها وهنائها . ذلك ما سنعالجه فى الفصل الأخير من الكتاب .

كيف ينهض المسلمون

إن من يحاول أن يكتب فى هذا الموضوع ، وأن يلم به من جميع نواحيه لابد أن يضع نصب عينيه دائماً حقيقتين ثابتتين ، لاسبيل إلى التغاضى عنهما بحال من الأحوال أولاهما . أن العالم الانسانى أصبح الآن متصلا بعضه ببعض اتصالا وثيقاً يتأثر كل عضو فيه بما يتأثر به غيره من عوامل الخير والشر ، ومن عوامل الرخاء والضيق ، وأنه لاسبيل إلى أن تعيش أمة الآن فى عزلة عن العالم إلا إذا أرادت لنفسها الفناء والانقراض . ثانيهما : أن الأفكار والآراء وكل وسائل المعرفة الإنسانية أصبحت الآن سهلة ميسرة . واضحت من السرعة والقوة فى الانتشار بما يستطيع بها أى فرد فى أى بقعة من العالم له استعداد فى الفهم والإدراك أن يأخذ بنصيبه منها فى الوقت الذى يتمتع فيه مواطنها بها ، فسرعة المواصلات من جهة . ووجود اللاسلكى من جهة أخرى ثم تقدم الصحافة . واختراع السينما كل ذلك قد ربط العالم بعضه ببعض حتى أصبح هذا الرباط الآن من القوة والشدة بحيث لاتستغنى عنه دولة من الدول كائناً من كانت ، ولا ينصب هذا الاستغناء على الأمور الاقتصادية وحدها ، وإنما على كل المسائل الثقافية ، وما تحمله من أفكار وآراء ونظريات .. ! والذى يعنينا من كل هذه المقدمة أننا عندما ننظر الآن إلى أية أمة من الأمم الاسلامية أو غيرها من الأمم الشرقية التى لاتدين بالاسلام . نجد أنها تصطنع حياتها على نمط الحياة الغربية بأسلوب يختلف قوة وضعفاً حسب استعدادها ، وهضمها لهذه الحياة . فما هى الدوافع الحقيقية التى تدفع الشرق إلى ذلك سواء أراده أم لم يرده . ! أهى القوة ؟ أم هى السياسة الاستعمارية الغاشمة التى تتحكم فى مصير الشعوب وشئونها الداخلية والخارجية . نعتقد أنه لاهذا ولا ذاك لأن

التاريخ لم يحدثنا أن قوة من القوى مهما بلغت فى شدتها وقسوتها قد قضت على كيان شعب من الشعوب فيما يتخلق به من مثل عليا . ومن مبادى رفيعة تتفق وطبيعة التطور التاريخى للانسان . بل كان ما يحدث هو العكس ، فروما المسيحيه فى قوتها وعظمتها ، ونهوضها قبل أن تحل عليها عصور الجهالة والظلمة قد أخذت عن اليونان تراثهم الفكرى فتأثرت به ، وأثرت فيه ، والمسلمون وهم مازلوا بعد فى قوتهم ، وعظمتهم وسيطرتهم على قيادة العالم هضموا تراث الفكر اليونانى والثقافة الاغريقية ، وحافظوا عليها وديعة أمينة فى أيديهم . ! كذلك لم يحدثنا التاريخ أن الاستعمار مهما كانت سـطوته ووحشيته ، واستبداده بالشعوب والأمم التى ابتليت به استطاع أن يكيف لها حياتها رغما عنها ، وأن يغير عقائدها ونظرتها للأمور والأشياء دون أن يكون لأبناء هذه الشعوب والأمم إرادة فى ذلك ، وارتياح له وسكون إليه ، وكان مما لا يتفق وطبيعة التطور والرقى فى الإنسان والكائنات . نعتقد أن ذلك لم يوجد بعد ، ولن يوجد أبداً .

إذاً ماهى البواعث الحقيقية التى حملت الشرق بما فيه من مسلمين وغير مسلمين على أن يترسموا خطى الغرب . ويتأثروا حسب حظهم من ذلك بحضارته وأساليبه فى الحياة . ؟ تقتضينا الإجابة على هذا السؤال أن نثير هنا مسألة أخرى وهى على أى شىء اكتسب الغرب هذه الحضارة وبأية سبيل نهض كل هذا النهوض ، وتقدم كل ذلك التقدم ؟ هل لتعاليم دينه المسيحى شأن فى ذلك ؟ هل لانه يمتاز على غيره من أبناء الجنس البشرى بقوة الادراك ونضوج العقل ؟ نجيب بملء فمنا لا هذا ولا ذاك . !

فالشىء المتفق عليه أن هـذه الحضارة الغربية استمدت عناصر حياتها وقوتها من التراث اليونانى الوثنى ، ومن الثقافة الرومانية القديمة الخالية من كل معنى روحى . ! فالعقل الأوربى فى تحرره وانطلاقه . انتصر بعد كفاح مرير

وصراع شديد بينه وبين الكنيسة . وعندما قدر له النصر جحد بالكنيسة ، وبكل تعاليمها ، وأصبح بينه وبينها شبه عداء تقليدى . حتى وجدنا الكنيسة نفسها تعترف بهزيمتها وتقف مبهورة أمام ما انتجه العقل الأوربى بعد أن حطم كل ماوضعته أمامه من قيود وبعد أن تحلل مما كانت تقدمه له من خرافات وأباطيل تحيطها بهالة كبيرة من التقديس لنوحى له بكل مافيه احتقار للنشاط الدنيوى وكفران بالحياة ، وجحود بالطبيعة .

ثم أنه ليس هناك مايثبت أن العقل الأوربى فى ذاته مجرداً من كل شىء يمتاز على غيره بشىء من الذكاء أو الادراك فالحضارات التى تداولتها الإنسانية وتأثرت بها حملها الشرق إلى الغرب أولا ، وكان له الفضل الأول فى تمهيد الطريق لقافلة الانسانية لتبلغ غايتها من التطور والرقى .

إذاً فعناصر هذه الحضارة الغربية استمدت من العقل ذاته فى حريته . وفى انطلاقه فى مجراه الطبيعى دون قيود أوسدود تحد من مضائه ، وتقف حجر عثرة فى طريقه . ! فالظاهرة التى يمكن أن يلمسها الدارس للحضارة الأوربية هى الخصومة الشديدة لكل من يحقر العقل أو يكفر بهذه الحياة الدنيا . وبالتالى هى السعى ما أمكن للانتفاع بكل ظاهرة من ظواهر الطبيعية واستخدامها لأغراض الانسان فى معيشته . وطرق حياته..! لقد كان العقل الأوربى فى أول ثورته ونهوضه كافرا بالكنيسة . مسرفا فى خصومتها وفى كل مايمت لها من قريب أو بعيد ولكنه بعد أن أثبت وجوده ، واطمأن على كيانه أصبح يؤمن بالدين . ولكن للآخرة وحدها . دون أن يجعله يتحكم فى حياته ، ويرسم له مجريات أموره .

وهكذا نجد العقل الأوربى الآن حتى وهو فى اعتداله هذا نحو الدين لا يؤمن إلا بالقوى المادية فى الانسان . ولا يتخلق إلا بالأخلاق الصناعية ، وما تحققه له من تسخير لقوى الطبيعة . وتغلب على صعاب الحياة ، ولكننا بينما نجده

قد برع فى ذلك ، وزها بهذه الحضارة ، وبما بلغه من هذا التقدم المادى والصناعى . تجده من ناحية أخرى قد تغاضى عما للنفس الإنسانية من مثل عليا ليست من الأخلاق المادية أو الصناعية فى شىء .

أن النفس الأوربية قد اكتسبت من وراء هذه الحضارة شيئا ، ولكنها بجانب ذلك فقدت شيئا آخر لا يقل عما اكتسبته روعة ، وقوة ، وضرورة للإنسان

لقد اعتزت الحضارة الغربية بما بلغته من تقدم فى الثقافة ، ومن تحقيق للنضوج العقلى الذى حقق لها بدوره . هذه القوة الصناعية الضخمة . وهذا الانتاج الوفير العظيم فى كل شىء ، والذى غزت به العالم الشرقى . وكانت إلى عهد قريب جداً تتحكم فى مصيره . . ! و لكنها من ناحية أخرى فقدت ما تحرص عليه كل مدنية فاضلة من صفات واعتبارات وقوانين خلقية تهذب النفس البشرية وتسيطر على القوى الغريزية فى الانسان . حتى لايجمح . ولا يتنكب سواء السبيل .. والذى نلاحظه الآن على الرجل الغربى أنه بقدر ما أصبح غنيا قوياً قادراً فى مظهره الخارجى . وفى قواه الآلية العاملة . فإنه أصبح مريضاً مفلساً فقـــيراً إلى تربية نفسه الداخلية ..! فنظام الأسرة قد أصبح مفككا لا تربطه إلا خيوط واهية ، وأعصاب الأنسان قد اصبحت ضعيفة تالفة من هذه الحياة الآلية التى يحياها رجل الغرب . وبما يتراكم عليه من انفعالات ومؤثرات لاتجد أمامها شيئا من المقاومة ، والوقاية للانسان لتلاشى الانبعاثات الروحانية فى نفسه . ولقد كان من أثر طغيان هذه الحياة المادية على جميع احساساته ومشاعره . أن ضحى بكل القيم والآداب التى كانت ضابطة للنفس البشرية فى نزواتها ، وجامحة لها شهواتها ، ومنقذة لها من انحطاطها ، وكان من أثر ذلك أن أصبح عنده من الأثرة والأنانية مالا يتفق وصفات الانسان المهذب كما يعرفه علماء الاجتماع . ثم كان من أثر ذلك أيضا أن فقد هدوء النفس

وأصبح يعيش فى دائرة مفرغة من القلق والاضطراب

يقول الأستاذ ليوبولدفايس(١) فى كتابه (الاسلام على مفترق الطرق) الذى نقله الدكتور عمر فروخ إلى العربية من فصل بعنوان « روح الغرب » (إن الفضائل الخلقية القديمة التى يؤيدها الدين أخذت تخلى مكانها بالتدريج للفضائل الغربية الجديدة التى تدعو إلى حرية فردية للجسد البشرى غير مقيدة أما ضبط النفس : ومراقبة الصلات الجنسية فإنهما تفقدان من أهميتهما بسرعة وإن الصلات الوحيدة الممكنة فى المستقبل ستكون مستمدة — فى أحسن الأحوال — من اعتبارات فى درس الجماعات الانسانية والتناسل

وليس من غير المفيد أن نلاحظ أن كلا هذين التبديلين - ذلك الذى يرجع إلى صلات الأولاد بالوالدين وذلك الذى يرجع إلى الصلات بين الجنسين — قد سير بهما إلى نهايتهما المنتظرة فى الروسية السوفياتيه التى لاتمثل من الناحية الثقافية تطوراً مختلفا فى أساسه عما فى سائر العالم الغربى . بل على العكس من ذلك ، يبدو لنا أن هذه التجربة الشيوعية ليست شيئا آخر سوى التناهى . وسوء البدء لتحقيق تلك الميول فى المدنية الغربية الحديثة ، تلك التى هى بلا شك لا دينية ، والتى هى فى هدفها الأقصى لادينية أيضاً . ويمكن أن يكون ذلك العداء الحار بين الغرب الرأسمالى . وبين البلشفية ، فى أساسها راجعا فقط الى إختلاف الخطى بين تينك الحركتين المتوازيتين فى جوهرهما وفى انطلاقهما نحو هدفهما الأقصى . وإن تشابههما الباطنى سيصبح بلا شك أبرز فأبرز فى المستقبل ، ولكن منذ الآن يظهر أن الميـــل الأساسى فى

---

(١) المؤلف نمسوى الأصل اعتنق الاسلام وتسمى باسم محمد أسعد . وقد ترك بلاده النمسا عام ١٩٢٢ ليتجول فى أفريقية وآسيا باعتباره مراسلا لبعض أمهات الصحف الأوربية وكان من أثر احتكاكه بالمسلمين أن نشأ فى نفسه ميل إلى دراسة التعاليم الاسلامية . وتناقش مع كثير من المعلمين الاسلاميين . وكان أن ملكت روعة الاسلام وقوته عليه احساساته ومشاعره حتى أنه لما عاد إلى بلاده عام ١٩٢٦ اعتنق الاسلام دينا له

الرأسمالية الغربية ، وفى البلشفية كلتيهما إنما هو التخلى عن شخصية الانسان الروحية ، وفضائله الخلقية لمقتضيات المادية . . . ثم يستطرد فيقول . . . إن مدنية من هذا النوع إنما هى سم زعاف لكل ثقافة مبنية على القيم الدينية . وسؤالنا الصحيح عما إذا كان من الممكن أن نكيف أسلوب التفكير والحياة فى الاسلام حسب مقتضيات المدنية الغربية . يجب أن يجاب عليه بالنفى . إن أول أهداف الإسلام وأهمها إنما هو الرقى الداخلى . وهكذا تتغلب الاعتبارات الخلقية على اعتبارات الانتفاع الخالص . أما فى المدنية الغربية الحديثة فالأمر معكوس تماما . إن اعتبارات الانتفاع المادى تسود جميع مظاهر النشاط الإنسانى أما الاخلاق فتنفى إلى زاوية مظلمة من الحياة . ثم يحكم لها بوجود نظرى خالص من غير أن يكون لها قوة موثرة فى المجتمع ان الوجود نفسه فى مثل هذه الأحوال رياء ، وهكذا نجد أن المفكرين الأوربيين المعاصرين معذورون بالإضافة إلى أنفسهم ، إذا كانوا فى أثناء تكرار النظر إلى المصاير الاجتماعية فى المدنية الغربية يتحاشَوْنَ الإشارة إلى الأخلاق المطلقة . أما الذين هم أقل نبلا منهم - أى أولئك الذين هم أقل وضوحاً فى اتجاههم الخلقى - ففكرة الأخلاق المطلقة لاتزال باقية عندهم على أنها عنصر أصم فى التفكير ، أشبه بما يضطر الرياضى إلى العمل به من الأعداد الصم التى لاتمثل فى نفسها شيئاً محسوسا لكنها (هذه العناصر) على كل حال أشياء مرغوب فيها لسد أماكن الفراغ فى الخيال ، تلك الأماكن التى اقتضتها قيود البناء للعقل الانسانى .

إن مثل هذا الموقف المذبذب من الأخلاق لا يتفق بكل تأكيد مع الاتجاه الدينى ، ومن أجل ذلك كانت أسس المدنية الغربية الحديثة لا توافق الاسلام . على أن هذا يجب أن لا يحول أبداً دون إمكان أخذ المسلمين من الغرب ببعض البواعث فى ميدان العلوم المجردة . والعلوم التجريبية ، ولكن

صلاتهم الثقافية يجب أن تبدأ عند هـذا الحد ، وتنتهى عنده أيضاً . أما أن يخطو المسلمون إلى أبعد من ذلك ، أو أن يقلدوا المدنية الغربية فى روحها ، وأسلوب حياتها ، وفى تنظيمها الاجتماعى فهو المستحيل ، إلا إذا سددت ضربة قاضية إلى الإسلام كدولة إلهية . وكدين عملى) انتهى .

والمذهب الوجودى الذى أنشأه الفيلسوف الألمانى هيديجر فى العصر الحديث . والذى تأثر به شباب الغرب وخاصة فى فرنسا حيث يجد فى كل يوم أتباعاً وأنصاراً والذى يحمل لواءه الآن الفيلسوف الفرنسى المعاصر سارتر قائم على أساس من الاضطراب النفسانى ، والفوضى الخلقية . وهذا من غير شك أثر من آثار التمرد المادى فى الانسان ، وانتباذه كل فكرة روحانية فهذه الوجودية التى تمخض عنها الآن العقل الأوربى تدعو إلى أن الانسان فى هذه الحياة لا يشعر بوجوده الحقيق إلا إذا تخلص من كل قواعد الأخلاق ، والتربية ، والعادات ، والعقائد ، وكفر بكل قانون علمى . أو أسلوب تاريخى لتفسير معنى الحياة . فالإنسان فى هذا الكون هو كل شىء . والصفات الخيرة والمثل العليا ، والتقاليد الحميدة . التى نادت بها الديانات ، وسجلها التاريخ الطبيعى للانسان هى قيود حقيرة تحد من حريته ، وقوته وسعادته ويمكن كما يقول ذلك (ديديه أنزيو(١)) « أن نعتبر شعار الوجودية . والكلمة المعرفة بها تلك الفكرة التى افتتح بها (هيجل) « دروسه فى فلسفة التاريخ » إذ يقول « إن الشرقيين لا يعرفون أن العقل حر . أو أن الانسان حر ، من حيث هو إنسان بل هم يعلمون أن واحداً هو الحر . وهذا هو حكم الاستبداد . أما اليونان فيعرفون أن بعض الناس أحرار ، لكن نظام الرق يستمر بينهم . والمسيحية

---

(١) فى فصل عن الوجودية نشر بمجلة الكاتب المصرى . وترجمة إلى العربية الدكتور محمد عبد الهادى أبو ريده .

تبين شيئا فشيئا أن الانسان ، من حيث هو إنسان حر ... » والناس لا يعرفون جميعا ذلك . والفيلسوف الوجودى يعلمهم أنه بحسب كلمة لشخصية من الشخصيات التى صورها دستويفسكى يمكن القول « إن كل شىء فهو جائز غير محرّم » .

ففكرة المجتمع الانسانى فى نظر الوجودية . وعلاقة الانسان الحديث المتحضر فى الغرب بأى فرد من أسرته أو بين جنسه هى كما عبر عنها ساتر بفكرة اللزوجة (فكل وجود هو قبل كل شىء أشبه برائحة كريهة تبعث شعور الغثيان وعلى هذا فإن ما يشعر به الانسان حين يستخدم المترو : له من هذا الوجه أهمية ميتافيزيقية ، فأنا أحس وسط الزحام إحساساً واضحا بتلك اللزوجة التى هى خاصة أساسية للانسان ؛ على أن العلاقات التى تربطنى بالآخرين هى من هذا الطراز ، فلا تربطنى بهم صلة روحية . بل الأمر لا يعدو تلامسا يلتزق فيه وجود بوجود) .

وعلى هذا فالانسان الوجودى يعيش فى هذه الحياة حسب ما توحى إليه غرائزه ، وحريته الفردية . دون أن يقيد نفسه بشىء . أو يخضع لشىء لأنه فوق الحياة جميعا . فلا خير عنده ولا شر . ولا حق ولا باطل . ولا فضيلة ولا رذيلة وليس هناك شىء فى الوجود يمكن أن يستدعى اكتراثه أو يقف حائلا أمام انطلاقه . وتمتعه بكل ما يقدر عليه ، وما يستطيعه من ملذات وشهوات . فالرجل المهذب المتمسك بآداب اللياقة ، يحسن الأخلاق . والمحافظ على حصانته . النافر من العلاقات الجنسية غير المشروعة هو رجل مراء قد خدع نفسه . أو ضعيف قد خضع للتقاليد والعادات وهى من العيوب البالغة فى نظر الوجودية . لأنه يجب على الانسان الوجودى (أن لا يترك نفسه تقع فى حبائل وهم ما . علمى أو فنى ، أو سياسى ، أو خلقى . هى تريد أن تحيا بنفسها لا أن تترك فكرة ما غير شخصية . أو ضميراً جماعيا يحتل مكانها . ويعيش فيه . هى تسير على قاعدة تفرقة الانسان بين شخصه

أو « أنا » وبين الآخرين أو « هم » وليس الذى يجب أن يحيا فى كل منا هو ال « هم » أعنى الشىء الذى ليس حقيقتنا ، بل هو ال « أنا » إن الحياة الحقيقية (تنصرف عن التسليات وهى تعلم نفسها وجوداً محضاً ، هى شاعرة بنفسها ، ولا تترك حريتها المستمرة) .

هذه هى الحضارة الأوربية وما تحمله من عناصر القوة فى مجالها الثقافى والاقتصادى والصناعى ، وما تحمله من عناصر الضعف فى محيطها الروحانى والنفسانى والخلقى . والاسلام لا بد له وهو فى طريق قوته ونهوضه من أن يهضم هذه الحضارة . ويحتضنها ويبلورها فى نفسه ، ومن أن يحافظ على شخصيته ، وذاتيته الخاصة بعد ذلك كله ليستطيع أن يؤاخى ، ويجمع بين هذه الحضارة وبين ما يتوفر له من روحانية واعية وآداب عالية لتهذيب نفسه البشرية . والسبيل إلى ذلك صريحة واضحة . وهى أن يتحلل أولا وقبل كل شىء مما أحاطته به التقاليد البالية ، والرجعية المميته من أباطيل وترهات ، وأن يأخذ دينه من مصاده الأولى صافيا خالصاً مما نسب إليه من خرافات وأوهام .

لقد تحدثنا فى الفصل السابق عن العوامل التى أدت بالمسلمين إلى التأخر والتخلف عن ركب الانسانية فى طريقها إلى التقدم والرقى ، وعندما يمعن الكاتب نظره إلى ذلك ويرتب النتائج على المقدمات . يجد أن هناك شبهاً كبيراً بين بواعث تأخر المسلمين . وبواعث تأخر الأوربيين فى القرون الوسطى . فالحكم الأوتقراطى الذى جمع فى تشابهه . ونتائجه بين الاثنين هو شر ما ابتليت به الانسانية قديما وحديثا ، وعندما نسجل حوادث التاريخ نجد أن كل أمة أرادت أن تتحلل من هذا الطغيان الأوتقراطى سلكت طريقا واحداً هو الثورة . وكان الدين الذى يستند عليه الطغاة الأوتقراطيون فى حكمهم هو أول هدف تريد تحطيمه الثورة . لقد تحدثنا إليك فى المقدمة عن كل هذه الثورات : فارجع اليها تجد أن التشابه واضح بين فى مقدماته . ونتائجه . غير أننا نريد

أن نقول الآن إن هـذا العصر الأوتقراطى بمساوئه ومآسيه قد مضى ولن يعود أبداً . ذلك أن أغلب الأمم الاسلامية تحكم الآن حكما دستوريا على مبادىء ديمقراطية . وإن كنا نرجو أن تراعى الحكومات الاسلامية أن الديمقراطية الحضارية ليست هى النظام السياسى وحده أو تحقيق مظاهره لاغير ، وإنما هى أيضاً وقبل كل شىء الديمقراطية الاقتصادية ، والديمقراطية الاجتماعية .

والذى نحب أن نقوله هنا أن المسلمين أو بعضاً منهم يتمسكون بالوسائل الأولى التى كان يصطنعها الإسلام ليحقق من أجلها غاياته . وهذا إذا صدق على دين آخر . فلن يصدق على الإسلام لأنه غنى بما فيه من مرونة تتفق وطبيعة التطور فى الحياة ولقد تحدثنا نحن عن ذلك بما فيه الكفاية فى فصل (الاسلام كتشريع للبشر) بيد أننا نريد أن ننبه هنا مرة أخرى بأنه إذا قدر للاسلام أن يحتل مكانته الماضية ، وأن يكون ذا أثر فعال فى التوجيه العالمى ، وأغلب الظن أنه سيقدر على ذلك مستقبلا . إذا استطاع أن يقضى على كل ماتراكم عليه من خرافات وأباطيل ، ودعاوى تدعوه إلى الرجعية والجمود ، ثم إذا استطاع أن يستوعب كل ما أفاده الغرب من ثقافة . وأن يخطو خطوات واسعة دون تعب أو ملل . ليبلغ مابلغه من أشواط فى النضوج العقلى . والتقدم الصناعى . ولن يتأتى له ذلك إلا إذا فتح باب الاجتهاد الذى دعا إليه وعمل به من قديم .

أن الإسلام فى عصره الأول أقام بناء دولته على أسس دينية محضة لأنه كان بمثابة ثورة يقظة تريد أن تقضى فى سرعة وقوة على عوامل الانحلال الخلقى والغشاوة المظلمة التى كانت تسود الجنس البشرى فى ذلك الحين . ولكنه مع ذلك ، وحسب وعيه لحقيقة الحياة ولسنة التطور فى الإنسان والكائنات جاء مرنا حكيما مسايراً القانون الطبيعى للحياة ، وعندما يتعمق الباحث فى دراسة الدعوة الاسلامية تتبين له هذه الروعة فى أوامره ، ونواهيه التى كانت تتفق ، وظروف الزمان . والمكان . وطبيعة العلاج للحوادث ، والأشياء

والإنسان جميعا وقد اسهبنا نحن فى شرح كل ذلك فى فصل (الاسلام كتشريع للبشر) .

والذى نحب أن نعرضه هنا بعد كل ماتقدم . هو هل ينبغى للمسلمين . وهم على حالتهم هذه أن يرجعوا إلى دينهم فى كل شئونهم الدنيويه . أو بعبارة أخرى هل يقيمون دولتهم على أسس دينية محضة كما كانت فى العصر الأول للإسلام ؟ جوابنا على ذلك بالنفى والإيجاب معا . بالنفى (أولا) لأن الإسلام وهو الدين الوحيد الذى احتفل بحياة الانسان الدنيوية . وراعى كل المراعاة حريته وسعادته. وحقه فى الحياة الكريمة لا يقبل مظاهر أو صوراً متحركة لاروح فيها بقدر ما يقبل تحقيق غاياته فى سهولة ويسر ووضوح. باى نظام من النظم ، ووسيلة من الوسائل (ثانيا) أن المعرفة الانسانية، والتقدم البشرى حق مشاع لأبناء الإنسانية جميعاً فليس العيب أن ننقل عن أمة محاسنها ، وأن نتسلح ببواعث تقدمها ونهوضها ثم ننافسها فى مجالى الرقى والمدنية ، وإنما العيب هو أن نظل فى مكاننا لانريم عنه. جامدين متمسكين بدواعى الرجعية والجهالة (ثالثا) ماتسرب إلى علوم الإسلام من مبادىء هادمة وأشياء أحدثتها الفرق المتعددة . والأحزاب السياسية المتنافسة على الخلافة وأخذها المتأخرون على أنها من التراث الاسلامى وهو منها براء : لا تعطى المسلمين القوة والمضاء فى مسايرة ركب الانسانية . بل هى على العكس تقضى على مافى الاسلام من مرونة وقابلية تتفق مع التطور ، وتسير جنباً إلى جنب مع نضوج المعرفة البشرية فى الانسان . ولن نذهب بك بعيداً فالتاريخ شاهد صدق على مانقول . ونظرة يسيرة لتاريخ المسلمين تبين لك أن الفقه الاسلامى . وقف جامداً لا يتحرك منذ القرن الرابع الهجرى. وأن المسلمين كانوا مستغرقين فى نوم عميق حتى أوائل هذا القرن دون أن يوقظهم موقظ. أو ينذرهم منذر عما ينحدرون إليه من هاوية سحيقة . ولولا بعض مفكرى الاسلام مثل الاستاذ جمال الدين الافغانى ، والاستاذ الامام محمد عبده لما رأينا بواعث هذه

القوة - وإن لم تزل ضعيفة بعد - تدب شيئا فشيئا فى كيان المسلمين .

ثم نجيب بالايجاب وذلك (أولا) عندما يتم للمسلمين القضاء على مايسود غالبتهم الساحقة من جهل وأمية وعندما يبلغون شوطا بعيداً فى معرفة العلوم الطبيعية والرياضية وعندما يأخذون بحظهم من جميع الثقافات المختلفة مستوعبين حقيقتها مدركين ما ترمى إليه دون أن تضمحل شخصيتهم أو تضعف روحهم من وراء ذلك كله. (ثانيا) عندما يتكون الوعى الدينى الحقيقى الذى يتفق وما أنزل الله فى كتابه الكريم من فهم للإسلام كرسالة عالمية . وكدين عملى لايقف أمام المظاهر . وإنما يسعى إلى الحقائق . ولن يتأتى ذلك للمسلمين إلا إذا حرروا عقولهم . ونظروا إلى اعمال أسلافهم بشىء من التحفظ . والنقد . بدل أن ينظروا إلى ماصدر عنهم من أقوال وأعمال نظرة الاكبار ، والتقديس (ثالثا) إذ استطاع علماء المسلمين وفقهاؤهم أن يتخطوا هذه الدائرة المقفلة التى يعيشون فيها بعيدين عن المجتمع الاسلامى غير مؤثرين فيه بشىء أو فاتحين أمامه مجالا لفهم الدين الفهم الصحيح . ولإدراكه الإدراك البصير . بل بالعكس نراهم مشفقين بل فزعين من كل حركة تجديدية فى الدين . ومن كل ثورة حاسمة للقضاء على ماتراكم عليه من أختلاقات وأباطيل . طيلة قرون طويله خيم فيها الجهل والظلام على العالم الاسلامى

والسؤال الذى يدور بخلدنا الآن هو هل يمتلك المسلمون فى الوقت الحاضر العوامل والدوافع التى تدفعهم إلى الرقى . والنهوض ، وهل يكون نهوضهم هذا . على أيدى أئمتهم من رجال الدين . أم على أيدى هذه الجماعات الإسلامية المتعددة . وما تبذله من نشاط دينى أم على أيدى عامل خارجى آخر ؟

أننى لن أشفق من الجواب على هذا السؤال لأننى أحب أن أعرف عيوبى قبل أن أعرف محاسنى ولأننى أحب أن أعى وأتنبه إلى مايعترينى من نقص قبل أن أغتر وأقنع بما يتراءى لى من قوة .

إن من يتعمق فى درس حالة الغالبية من الأمم الاسلامية الآن لايجد عنده الجواب المطمئن على أنها تملك كل الوسائل فى هذا الوقت . لتنهض ، وتحتل مكانتها الدولية كأعظم قوة مؤثرة فى سياسة العالم ، وموجهة له . وذلك لوجود هذه الأغلال التى يرسف فيها بعض أبناء البلاد العربية التى ما زالت تحكم حتى الآن حكما أوتقراطياً . ولا تصدق من يزعم لك أن هذا هو حكم الإسلام الصحيح .

إن من السهولة بمكان أن توجد الدوافع الحقيقية لرفعة شأن المجتمع الإسلامى وأخذه بحظ يذكر من الحضارة والمدنية . والقوة والحيوية . لوتدبر أولو الشأن أمرهم فى البلاد الاسلامية وقضوا على هذا التفاوت الطبقى الذى يسود العالم الاسلامى فى هذا العصر ليحققوا بذلك معنى العدالة الاجتماعية أو الاشتراكية الاسلامية . وليقضوا على المبادئ الهدامة وهى فى مهدها . وقبل أن تجد لها تربة صالحة ، ثم إذا فتحوا الباب على مصراعيه لنشر الثقافة والتعليم . ومحاربة الجهل والأمية فى قوة وعنف . حينئذ يتكون عند المسلمين الوعى الدينى لفهم العقيدة الاسلامية على حقيقتها فلا أمل من هؤلاء الذين نسميهم فقهاءنا الدينيين فى بعث الاسلام من جديد فى قوته . وحيويته . وسموه لأنهم لايتسلحون بما يوجيه هذا البعث من حرية عقلية . ومن ثقافة عميقة غير تقليدية . ومن نشاط دينى ملحوظ . ثم أخيراً من تضحية بالمنافع المادية فى سبيل الرأى والتطلع إلى تحقيق مثل عليا فى الحياة .

إن هذه العزلة . وهذا الجمود الذى أصبح شعار علمائنا الدينيين . لا ينذر بأن الاسلام سينهض على أيديهم إلا إذا تخلوا عما يسيطر عليهم من خمول وكسل ودواعى رجعية . وإلا إذا تحرروا مما تحيطهم به التقاليد . والعادات من تقديس للقديم . واشفاق من الجديد . ثم إننى عندما أنظر إلى نشاط الجمعيات الاسلامية . ومدى فهمها لحقيقة الدعوة الاسلامية . وطبيعة الأمور . وسنة

التطور فى الإنسان والكائنات . أشفق من هذا المجهود . وهذا الوقت الذى يضيع هباء منثوراً .

إن المتتبع لحركات هذه الجماعات الاسلامية يجد أنها تهدف إلى تحقيق غرض واحد وهو رجوع المسلمين إلى مبادىء دينهم . وهذا شىء نؤمن به جميعاً ، ونعتقد مخلصين أن العالم كله لا المسلمين وحدهم - وهو الذى أصبح كأسرة واحدة يتأثر بعضه ببعض - سيستنقذ نفسه مما هو غارق فيه من حيرة نفسية . ومن إفلاس فى حياته الروحية - فيرجع كأشد ما يكون إيماناً متمسكا بعقيدته الدينية من جديد ، ولكن لا ليستعير صورة أصلية مما كان عليه الدين فى عصوره الأولى ، ومما كان يصطنعه من وسائل لتحقيق مبادئه . وغاياته لأن ذلك لا يتفق وحكم التطور الذى يخضع له الدين . أو تخضع له وسائله . كما تخضع له الأشياء والكائنات جميعاً . ولن يتعب العالم فى البحث عن عقيدة تتفق وما بلغه من نضوج فى العقل وقوة فى الادراك لأن عقيدة الدين الاسلامى فى جوهرها ستأخذ عليه نفسه وعقله . ومداركه جميعاً .

إنى لأبتسم فى سخرية مريرة عند ما أرى أن من أهداف هذه الجماعات أن ترجع المرأة إلى عهد الحجاب . وأن تظل كما كانت ساذجة قاصرة أشبه ما تكون بعضو أشل فى المجتمع الاسلامى بدعوى أن ذلك يحفظ حصانتها . ويمنعها من أن تهوى أو تخدع إلى طريق الفساد . ثم أن تلغى هذه القوانين التشريعية الوضعية ليحل مكانها الفقه الاسلامى . كما أستنتجه . واجتهد فيه فقهاء المسلمين الأولين فى العصور الأولى للاسلام بالرغم من جموده . وعدم تطوره كل هذه القرون الطويلة من الزمان .. ! لا أيها السادة ! إنكم تعيشون فى برج من العاج . وإنكم بذلك لا تخدمون الاسلام لتفسيركم له بهذا المعنى الضيق العجيب الذى لا يدل على ما يمتاز به من مرونة ، وأنه أتى لتحقيق غايات لا للتمسك بوسائل ومظاهر وصور لا تغنى من الامر شيئاً . وكأنكم بذلك تعيشون فى واد .

والعالم كله فى واد آخر . وكأنكم تقفون بينما يمر ركب الانسانية دون أن تعون أو تستيقظون .

إننا نؤمن أن نهوض المسلمين محقق لا ريب فيه سواء كان ذلك قريباً أو بعيداً . ولكنا نشك أن يكون نهوضهم هذا على أيدى هذه الجماعات التى تعيش فى مناقشات بيزنطية لاغير .

وإذا كنا نأمل فى هذه الجماعات خيراً للاسلام فهو أن نقترح عليهم أن ينشئو المدارس المتعددة لتثقيف أبناء الشعب، وأن يقيموا المؤسسات الكبيرة لمحاربة الفقر والمرض والبطالة ، وأن يوجهوا نشاطهم إلى التبريز والمنافسة الشريفة فى المجال الاقتصادى والصناعى. ثم يعملون بكل مافى طاقتهم لتحقيق العدالة الاجتماعية.

لقد كنا نحمد لجماعة الإخوان المسلمين اتجاه نشاطها إلى هذه الميادين الثلاث ونحن نرجو من صميم قلوبنا بعد أن خرجت من هذه المحنة التى صهرتها صهراً. أن تتجه بكليتها إلى هذه الميادين الثلاث أولا. لأننا لسنا فى حاجة الآن إلى شىء قدر حاجتنا إلى تكوين مجتمع إسلامى مثقف . قوى نظيف . عامل مفيد . مستقل حر . معتمد على ما تذخر به قلوب أبنائه . ونفوسهم من خصوبة وحيوية . حينئذ سنتحقق بأن فجر الإسلام قد أزف . وبأن مجد الأسلام . ونهوض المسلمين أصبح حقيقة لا جدال فيها ؟

أول مارس سنة ١٩٥٠ م . ع . ق . ع

فهرست الكتاب

الموضوع	الصفحة
لماذا وضعت هذا الكتاب؟	١ — ٢١

البيئة وأثرها فى الثورات الانقلابية ـ لماذا كانت توجه هذه الثورات دائماً ضد الدين — ثورة اليونان الفكرية القديمة — ثورة الشيوعية ضد القيصرية فى روسيا — ثورة الأتراك على الخلافة العثمانية فى تركيا — مدى مسئولية رجال الدين فى الشرق والغرب عن ذلك — الصوفية وتفسيرها لمعنى الزهد فى الحياة بما لا يتفق ونظرة الدين — لم يوضع هذا الكتاب الا للدفاع عن الدين وإظهار جوهره . وغاياته — إن المادية ليست كما يدعى بعض علماء الدين ورجال الصوفية من أنها لا تتفق مع الروحية فى شىء — أن الاسلام . ليس دين رهبنة وإنما هو دين عملى — أن كل مادعا إليه من عبادات هو فى الواقع تغذية لحياة الانسان الدنيوية ـ أن هذا الكتاب وما يدعو إليه من محاربة البدع والاختلاقات فى الدين هو خير من يقف فى طريق هذه المبادىء الهدامة

هل الدين لازم للبشر	٢٢ — ٤٨

مامعنى الدين ـ نظرية دارون والرد عليها ـ حالة الانسان البدائى — كيف نشأت العقيدة الدينية عنده — تطور الديانات ـ رأى العقاد ورد عليه ـ العقيدة من مقومات الانسان ـ لا يمكن لانسان أن يعيش بغير عقيدة ـ الملحد له عقيدة أيضاً ولكن من زاوية أخرى ـ أن الدين فى ذاته لم يقف فى طريق التقدم البشرى ـ رأى (لجون استيوارت ميل) ـ رأى للاستاذ الفيلسوف جمال الدين الأفغانى ـ أن العقل وحده لا يكفى لمعرفة أسرار الكون ـ رأى للفيلسوف الانجليزى (الدوس هكسلى) . استشهاد بما يذهب إليه الأستاذ العقاد فى أن العقل لا يكفى لادراك الذات

الموضوع	الصفحة
الالهية ـ رأى للفيلسوف (أجوست سباتييه) من كتابه فلسفة الدين ـ آراء لغيره من الباحثين الاوربيين ـ رأى للاستاذ أحمد بك أمين ـ ماذا يتنبأ الباحث للدين ـ .	
حالة الإنسانية قبل الاسلام	٤٩ - ٦٩
لقد كان تطور الديانات متفقا مع تطور الانسانية فى الوعى والادراك ـ ماذا كان عليه البشر قبل نزول الاسلام ـ البيئة العربية ـ بيئة الفرس والروم باعتبارهما الدولتين المسيطرتين على العالم فى ذلك الحين ـ التاريخ القديم للفرس والروم ـ ماذا كان نظامهما السياسى والاجتماعى ، والاقتصادى ـ سلطان المسيحية فى ذلك الوقت ـ التاريخ الاسود لمحاكم التفتيش حالة الجزيرة العربية قبيل الاسلام ـ ماذا صنع الاسلام بالعرب ـ مقارنة بين مبادىء الاسلام وغيره ـ الغايات التى جاء ليحققها الاسلام . رأى لدسيوجول لابوم فى حالة العالم قبيل الرسالة المحمدية	
الاسلام بين الديانات	٧٠ — ٩٨
الاديان جميعها يجمعها رباط واحد ـ مراحل التطور البشرى ـ تاريخ الاديان المقارن ـ الذاتية الخاصة للديانة اليهودية ـ هل الديانة اليهودية أول ديانة نزلت بالتوحيد ـ من هم اليهود ، وماهى صفاتهم ـ كيف ظهرت المسيحية ـ خصائص الديانة المسيحية ـ مخالفة المسيحية لليهودية ـ لماذا اختصت الديانة المسيحية بالدعوة للروحانية وحدها ـ كيف تلونت المسيحية بلون جديد ـ تدخل « البروتستانت » للحد من سلطة رجال الدين المسيحيين ـ الاسلام دين عام ـ مقارنة الاسلام بالديانة اليهوديه والمسيحية ـ خصائص الاسلام باعتباره دعوة عالمية ـ رأى لبعض المفكرين فى شخصية النبى عليه السلام ـ ما فى الاسلام من مرونة تتفق وتطور الزمن :	
الاسلام كتشريع للبشر	٩٩ - ١٣٦
مصادر التشريع الاسلام ـ أهداف الاسلام ـ تقريبه بين الانسان وخالقه ـ دعوته إلى المساواة المطلقة ـ نزل بطريق التدريج مراعيا ظروف الزمان والمكان ـ نزل بطريق	

الموضوع	الصفحة
الاجمال ليترك مجالا لاجتهاد الانسان ـ جعل العبادات وسائل لاغايات ـ راعى حرية الفرد مع مصلحة المجموع ـ جوز المحظورات عند الضرورات ـ قرر إذا تعارض العقل والنقل أخذ بما يتفق والعقل ـ حارب الكهنوتية والسلطة الدينية ـ جعل الاصل فى الاشياء الاباحة ـ جوز ترك الفروض إذا كان فى ادائها ضرر .	
لماذا تأخر المسلمون	١٣٧ — ١٨٠
أراء بعض المفكرين الاسلاميين فى سبب تأخر المسلمين ـ آراء بعض المفكرين الاوربيين فى ذلك ـ ليست آراءهم هذه مما أصاب الحق ـ الاسلام كدعوة عالمية يعتمد على أركان ثلاث ـ كيف تحققت هذه الاركان جميعها فى عهد النبى محافظة الخليفة الاول على هذه الاركان ـ شخصية الخليفة الثانى مدى أثرها فى الاسلام ـ تأريخ لعهد عمر ـ محافظته على هذه الاركان الثلاث ـ مقارنة بين كل من أبى بكر وعمر وعصريهما اجتهاد عمر وقوة شخصيته ونظره إلى بعيد ـ كيف نمت روح الاسلام فى العهدين السابقين ـ طبيعة عصر الخليفة الثالث ـ تخلى التوفيق الذى لازم الاسلام عنه فى هذا العصر ـ ظهور العصبية العربية ـ هل يبرر ذلك مقتل عمر بيد فارسية استعانة عثمان بأقاربه ـ ظلم الموالى فى الامصار ـ دفاع عن عثمان فى إيمانه وأخلاقه ـ الامويون ومقتل على ـ كيف استتبت الامر لهم ـ طبيعتهم السياسية ـ مدى قوة حرصهم على الدين ـ ما اصطنع فى عهدهم من مذهب الجبريه ـ كيف ذهبت دولتهم ـ عصر العباسيين ـ استعانتهم بالموالى ـ طبيعة دولتهم الكهنوتية ـ كيف اسلم العباسيون المسلمين إلى دور الانحلال.	
كيف ينهض المسلمون	١٨١ — ١٩٥
تأثر العالم بعضه ببعض ـ شيوع الثقافة وسرعة تداولها العوامل التى نهضت بأوربا ـ تقدم الاوربيين فى العلوم الصناعية والطبيعة ، هل هناك من خطر فى احتضان الثقافة الاوربية ـ بحث فى المذاهب الثقافية المعاصرة ـ خصومتها الشديدة للروحانيات ـ التشابه فى عوامل تأخر الاوربيين والمسلمين ـ على أى شىء ينهض المسلمون ـ الحركات الدينية المعاصرة .	

كتب ظهرت للمؤلف

١ ـــ أيامى أو فلسفة الحياة .

٢ ـــ محاكمة الزمن أو طه حسين .

٣ ـــ مع عقلاء الإنس ومجانين الجن .

٤ ـــ لا أومن بالعقل .

٥ ـــ هل أفلست حضارة أوربا .

٦ ـــ البعث أو مذهب السلام .

وقعت بعض أخطاء مطبعية مما فات التصحيح سجلنا هنا

بعضها وتركنا الباقي لفطنة القارىء مع اعتذارنا الشديد

صفحة	سطر	خطأ	صواب
١٠	١١	مشيدو	مشيدى
١٢	٢	صنم	صنما
١٤	٦	يبيحونه	يبيحوه
١٤	١٤	سائل	سائلا
١٥	١١	حاططة	حاطة
٢٨	٢١	تعن	تعنى
٣٣	١٨	وأسرار	وأسرارا
٣٤	٢٥	ليجيبنا	ليجبنا
١٢٩	١	أن تقطع	أو تقطع
١٩٥	٢	تعون	تعوا
١٩٥	٩	يعملون	يعملوا

297:[redacted]
العماوى ،محمد عبد القادر
هذا هو الاسلام
AMERICAN UNIVERSITY OF BEIRUT LIBRARIES
01002597